مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها حلمي مراد

دم .. وخمر!

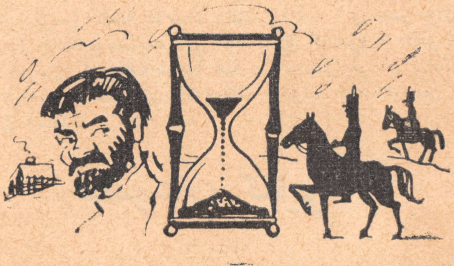
من أبدع روائع
الكاتب والفيلسوف الروسي الخالد: ليو تولستوي



ليو تولستوى

دم .. وخمر !

للعبيد ضمير ! (بوليكوشكا)
فارسان .. وعذراء !



СОЧИНЕНІЕ
ЛЬВА ТОЛСТОГО

ПОЛИКУШКА
ДВА ГУСАРА

٢٠٠ صفحة - ١٠ قروش

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن سبعة وسبعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريدالمسجل ، ماعدا العدد : العاشر وثمنه عشرون قرشاوالأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . أما الاعداد الستة الاولى والعددالعشرون فقد نفدت ، والادارة مستعدةلشرائها

● الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة اجر البريد المسجل ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى

● ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه .

واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) الخطيئة الاولى ، أوديب ، مدام بوفارى ، (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأللحب ، جين اير (ثلاثة اجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (ثلاثة أجزاء) بوشكين ، اعترافات جان جاك روسو (٥ أجزاء) ، قصص من الصين ، ليالى بلزاك ، الالياذة (٣ اجزاء) ، قصص من روما ، المسبحة (جزءان) ، سفينة الملذات .

وثمن النسخة ١٠ قروش ، عدا الأعداد: ١ و٤ و٧ و١٩ و٢٢ فثمن النسخة ٢٠ قرشا ، و ١٢ و ٢٨ و ٣٢ ـ ١٢ قرشا ، والاعداد ٣ و ٥ و ٦ـ ٨ قروش . ويضاف قرشان مقابل أجر البريد المسجل عن كل عدد .

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب

يصدرها : حلمى مراد

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الثانى والاربعون

دم . . وخمر !

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

عملاق جبار .. يفيض محبة وسلاما !

عزيزى القارىء :

.. وأخيرا ، جاء دور العملاق .. دور « ليو تولستوى » ، عملاق الادب العالمى ، لا الادب الروسى وحده .

ولقد ظللت طويلا أصبو الى أن أقدم لك شيئا من انتاج « تولستوى » ، فهو ثروة غالية ، ثمينة ، لا ينبغى أن تخلو منها مكتبة أى قارىء ، فى أى بلد .. **ولكن أكبر عملين ضخمين فى حياة « تولستوى » الكاتب ، هما : « الحرب والسلام » و « أنا كارنينا » .. وكل منهما تقتضى ترجمته ـ ترجمة أمينة كاملة ، كما هى رسالة « مطبوعات كتابى » ـ افراد أعداد وأعداد متتابعة ..** ولقد حدثتك فى العدد ٦١ من « كتابى » كيف أن « الحرب والســلام » تتألف من ألف وخمسمائة صفحة ، فالترجمة الحرفية لها ، كفيلة بأن تشـــغل أعداد « مطبوعات كتابى » لعشرة أشهر على الاقل .. لذلك وجدتنى مضطرا الى أن أكتفى بتلخيصها لك فى ذلك العدد من «كتابى» ، كما لخصت لك قبلها « لحن كرويتزر » فى العدد ٣٠ .

ولكن الفكرة ظلت تراودنى باستمرار .. أن « مطبوعات كتابى » تظل ناقصة ما لم تتضمن شيئا من انتاج هذا العبقرى الجبار . وأقبلت أقرأ كل انتاجه ، عسى أن أجد منه شيئا يمكن تقديمه فى نطاق « المطبوعات » دون اختصـــار ، أو مسخ ، أو تشويه .. **وكان لا بد لهذا الانتاج المنشود ، من أن لا يكون قد ترجم الى العربيــة من قبل ، ليكون مفاجأة طيبــة لك ، وليكون فى السبق الى ترجمته تعويض لك عن « أرجاء » تقديم شوامخ « تولستوى » ..**

وأقول ((**ارجاء**)) متعمدا ، وعن قصد .. فان الفكرة لا تزال تراودنى ، وتلح على .. ولا أزال وأسرة ((كتابى)) ندرس معا ، كيف يمكن أن نقدم لك هذه الشوامخ ، التى لم تترجم كاملة من قبل .. فمن الصحيح أن ((الحرب والسلام)) و ((أنا كارنينا)) و ((لحن كرويتزر)) و ((البعث)) .. من الصحيح أنها ــ أو بعضها ــ قد ترجم الى العربية ، ولكن جميع هذه الترجمات لم تكن كاملة ، لضخامة حجم المؤلفات الاصلية !

فاشل فى صغره .. عبقرى فى كبره !

◆ **وانى** أن [illegible] أقدم [illegible] انتاج تولستوى ــ القصتين الطويلتين اللتين يضمهما هذا العدد من ((مطبوعات كتابى)) ، واللتين ترجمهما الزميل **محمد بدر الدين خليل**

على أننى قبل أن أذكر لك كيف تم اختيارهما ، أحب أن أقدم لك حديثا سريعا عن ((تولستوى)) نفسه .. **الكاتب والفيلسوف الذى أجمع النقاد وأهل الادب ، فى جميع البلدان ، وعلى مر الاجيال ، على أنه من أعظم الخالدين فى تاريخ الادب والقصة .**

ولد ((ليو نيكولايفيتش تولستوى)) فى سنة ١٨٢٨ ، فى أسرة نبيلة ، عريقة المحتد .. اذ كان أبوه ((كونت)) ، وكانت أمه أميرة ، وكانت أملاكهما شاسعة ، وثروتهما عظيمة . وقد ذاق ((ليو)) مرارة التيتم وهو فى التاسعة من عمره ، ولكن أقرباء له أشرفوا على تربيته وتعليمه ، حتى اذا بلغ التاسعة عشرة من عمره ، ألحق بجامعة ((قازان)) ، حيث درس اللغات الشرقية والقانون .. بيد أنه لم يلبث أن انصرف الى اللهو ، فلم يتم دراساته ، والتحق بالجيش فى سنة ١٨٥١ . وقد قدر له أن يكون بين ضباط لواء المدفعية فى (القوقاز) ، وكان أحد

المدافعين عن مدينة (سيباستبول) فى حرب القرم ..

على أنه لم يلبث أن استقال من الجيش ، وقضى أربعة أعوام يجوس خلال أوروبا الغربية ، حيث درس أساليب التربية . بيد أن احتكاكه بالمدنية الغربية ، جعله يستنكرها ويشمئز منها ، اذ لمس أن المادية لبها ، والزيف والاصطناع مظهرها . لذلك عاد الى ضياع أسرته فى (ياسنايا بوليانا) ، حيث أنشأ مدرسة لتعليم أبناء الفلاحين .. وحيث تزوج من « صوفيا أندرييفنا بيهرس » ، التى أنجبت له ثلاثة عشر ابنا وابنة ، والتى كانت عونا له فى أعماله الادبية ، وكثيرا ما كانت تنقل له مؤلفاته بخطها . حتى ليقال أنها نسخت له « الحرب والسلام » سبع مرات .

يتجرد من متاع الدنيا !

• **وخلال** هذه الفترة ـ التى امتدت من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٧ ـ تفرغ « تولستوى » للأدب ، وكتب خير انتاجه القصصى .. قصصا أجمع أهل الادب ـ فى العالم بأسره ـ على أنها كنز ثمين . بل أن قصته « الحرب والسلام » اعتبرت « الرواية القومية لروسيا » .

وبعد سنة ١٨٧٩ ـ أى بعد أن فرغ من « أنا كارنينا » بعامين ـ بدأ يستعرض حياته ، وينتقد الاسلوب الذى جرت عليه . واستبدت به نزعة روحية بلغت ذروتها فى سنة ١٨٨١ ، حين أقبل على الدين ، وراح يمارس طقوسه وينفذ تعاليمه ويدعو اليها ، ويبشر بأن « السعادة الحقة لا تتحقق الا اذا جرد الانسان نفسه من كل المظاهر الزائفة للحضارة ، وارتد الى فطرته ، ورد الكنيسة الى أصولها المسيحية الاولى ، وسار على هدى الضوء المنبعث من أعماقه ، والذى يقوده الى حب أخوته من بنى البشر » . **وكرس « تولستوى » قلمه لهذه الدعوة ، فأصدر طائفة من المؤلفات والكتيبات الدينية ،**



ليو تولستوى
فى صدر شبابه

تدعو الى المحبة والسلام ومحو الفقر ، ونزول الاغنياء عن بعض مالهم للفقراء .. فسبق بذلك الحركة الاشتراكية فى بلاده . وقد بدأ بنفسه ، فوزع أرضه على الفلاحين ورقيق الارض ، وتجرد من متاع الدنيا !

على أن تطرفه فى دعوته ، أوغر عليه صدر الكنيسة الارثوذكسية الروسية ، فأصدرت قرارا بحرمانه فى سنة ١٩٠١ . ولكن هذا لم يفل من روحه ، ولم يثنه عن الرسالة الروحية التى آلى على نفسه أن يؤديها !

زوجته تطلق الرصاص على صورة ابنتهما !

• **ولكن** الحرمان من الكنيسة ، لم يكن كل ما أصابه من جراء دعوته . فقد نكب بحرمان آخر .. الحرمان من حب زوجته ! .. فقد كان تخلصه من ثروته وأملاكه سبب شقاق أحال حياتهما ــ التى كانت من قبل نعيما هانئا ، بكل ما للكلمة من معنى ــ الى جحيم لا يطاق .. وقد انضم أولاده جميعا الى أمهم ، عدا ابنته الصغرى « الكسندرا » التى ظلت تناصره ، وتلازمه ، وتعمل كسكرتيرة له . ومن العجيب أن هذا أثار غيرة أمها ، حتى أنها طردتها من المنزل ، ثم اندفعت الى حجرتها ، وأطلقت الرصاص على صورتها ! ..

الى هذا الحد بلغ الامر بزوجته ! وكانت تصاب ــ حين يعارضها ــ بنوبات هيستيرية ، وتهدده بالانتحار ! .. **ولكنها ــ فى أحيان أخرى ــ كانت تذكر حبهما الماضى ، فتركع عند**

قدميه ، وتلحف فى الرجاء أن يقرأ لها العبارات الغرامية التى كتبها عنها فى يومياته ـ قبل أربعين عاما ـ فكانا يبكيان معا ، وهما يستعيدانها !

على أن حنقها عليه اشتد بعد أن أصر على أن يهب الشعب الروسى حقوق نشر كتبه بدون مقابل . ولم يعد يحتمل نوباتها حين بلغ الثانية والثمانين .. وفى ليل ٢١ أكتوبر سنة ١٩١٠ ، هرب من بيته ـ وابنته الكسندرا ترافقه ـ وانطلق هائما على وجهه فى الظلام والبرد الزمهرير .. وبعد احد عشر يوما ، مات بالتهاب رئوى ، فى محطة (استابوفو) للسكك الحديدية .

تسع قصص تمهد للشوامخ

• **والآن ،** تعال أحدثك عن القصتين الطويلتين اللتين ستقرأهما ، فى هذا العدد :

لقد كان اختيار المادة من أصعب الامور ، اذ أن روائع « تولستوى » قدمت لك من قبل ، وان لم تكن كاملة أو دقيقة .. كما أن البحث عن تحف جديدة ، لم يسبق أن نقلت اليك بالعربية ، كان كالبحث عن ابرة وسط كوم من التبن !

وأخيرا ، ظهر أن « تولستوى » كان قد وضع ـ قبل أن يفرغ لكتبه الضخمة ـ تسع قصص ، بين قصيرة وطويلة ، تناول فى بعضها أحداثا من صميم حياته مزجها بالخيال ، وتناول فى بعض آخر مشروعات أفكار لقصص كبيرة ، وتناول فى اثنتين منها حياة الرقيق فى روسيا .. **فقد كانت هناك ـ فى تلك الحقبة ـ من العهد القيصرى ـ طبقة مستعبدة ، لا تختلف كثيرا عن الطبقة التى عهدناها يوما فى ريفنا ـ فى بعض العهود المظلمة ـ اللهم الا فى أنها كانت ترسف فى مزيد من الذل والهوان .. تلك هى طبقة الرقيق :** رقيق الارض ، الذى كان يعيش على أراضى الاسرات الاقطاعية ، فهى تستنزف دمه

وقواه وحيويته ، فى سبيل زيادة ثرواتها .. ورقيق البيت ، من أبناء الجوارى والعبيد ، الذين لا سبيل لهم فى الحياة فى مجتمع ساده الظلم والفوضى ، الا بالبقاء فى أسار السادة !

القصة التى أذهلت « تورجنيف »

• **وكانت** « للعبيد ضمير ! » – أو « بوليكوشكا » ، كما أسماها تولستوى – هى أقوى هاتين القصتين .. وهى صورة لحياة ربما شـــهدتها أجيال قبلنا فى بعض البلاد العربية ، ولكنها بالنسبة لجيلنا ، صورة جديدة ، طريفة ، تحرك أقسى القلوب الانسانية صلابة ، وتعلى من قدر الكرامة والعزة البشرية التى كانت كامنة تحت مظاهر الذل والاستكانة ! .. انها تبين كيف أن الرقيق بشر ، يستطيع أن يتوب بعد ضلال ، وأن يستقيم بعد تخبط .. فلما أبت الظروف الا أن تظهر بطل القصـــة بمظهر يفقده ثقة مولاته ، وايمان زوجته به ، وتقدير زملائه ، قضى على حياته !

ولست أملك أن أقول فى هذه القصة أبلغ مما قاله « ايفان تورجنيف » ، وهو الآخر من أعمدة القصة الروسية :

« قرأت قصة تولستوى « بوليكوشكا » ، فأذهلتنى قوة موهبته الهائلة .. وان فيها لصفحات من أروع ما كتب حقا . انها لترسل قشعريرة باردة فى ظهرى ، رغم ما تعرفه من أن ظهرى قد أصبح أكثر سمكا وصلابة .. انه لاستاذ ! أستاذ ! »

أما القصة الثانية : **« ضابطان وعذراء »** – أو « ضابطان من الفرسان » كما أسماها – فلها فى حـد ذاتها قصة .. اذ أن القصص الاولى لتولســتوى – فى تلك الحقبة التى بدأ فيها استقراره فى أملاك أسرته – كانت مستمدة من تجاربه وحياته الخاصة ، دون أن تتعلق برسالة معينة .. فلما أقدم على كتابة هذه القصة ، كان قد بدأ يهتم برسـالته فى الادب الروسي ،

فجعل لها نطاقا خاصا خارج نطاق تجاربه الشخصية .

دم وخمر .. بلا حساب !

• **ولقد** تسألنى - ومن حقك أن تسأل - لماذا اخترت لهذا العدد من « مطبوعات كتابى » ، الذى ضم القصتين ، اسم « دم .. وخمر ! » .. والجواب بسيط .. **فان القصتين تصوران حقبة من تاريخ روسيا ، لم يكن فى تلك البلاد شىء يراق باسراف ، ودون حســاب ، قدر : الدم والخمر ..** دم الرقيق والفلاح .. تلك الطبقة المستعبدة ، التى كان زمامها فى أيدى الاقطاعيين .. وهو « دم » لا يقتصر على ذلك السائل الذى يجرى فى العروق فحسب ، بل يضم أيضا الدمع ، والعرق ، وعصارة الحياة .. ثم ، الخمر التى كان السادة يسرفون فى اراقتها ليزدادوا انسياقا وراء لهوهم وعبثهم ، كما كان العبيد يغرقون أنفسهم فيها ، لكى ينسوا .. ينسوا كل شىء !

* * *

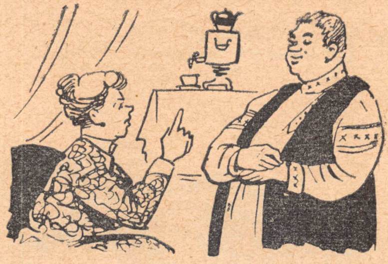
وبعد .. أظننى احتجزتك طويلا عن نبع « تولستوى » النمير . فلأرفع القلم ، لاتركك تغترف من هذا النبع !

المحرر

للعبيد ضمير!

(بوليكوشكا)





(١) سيدة الضيعة

• ـ أنت صاحبة الكلمة ياسيدتى ، فالامر لك ! .. كل ما هنالك أنه سيكون من دواعى الرثاء أن يقع الخيار على آل «دوتلوف» .. كلهم صالحون ، ولا بد من ان يذهب أحدهم ، ما لم نرسل واحدا من رقيق البيت ، على الاقل !

وسكت وكيل الاعمال لحظة ، ثم اردف : « وهذا ما يلمح اليه كل امرىء .. ولكن الامر رهن بمشيئتك ياسيدتى ! » . ووضع يمناه على يسراه فوق صدره ، ومال برأسه على كتفه اليمنى ، وجذب شفتيه الى الداخل ، موشكا ان يحدث صوتا مسموعا (مصمصة) ، وصعد بصره الى أعلى ، ولم يزد على ما قال ، بل بدا أنه اعتزم ان يلزم الصمت طويلا ، وان ينصت ـ دون رد ـ الى كل لغو كان من المؤكد ان يصدر عن مولاته !

وكان وكيل الاعمال الحليق ، الذى ارتدى سترة طويلة ، صيفت على نمط خاص يليق بوكيل الاعمال ، والذى جاء فى تلك الليلة من ليالى الخريف، ليعرض أمرا على مالكة زمامه .. **كان وكيل الاعمال هذا ، عبدا من رقيق البيت ، بحكم مولده ! .. وكان «عرض الامر» ـ من وجهة نظر السيدة ـ معناه الانصات**

الى حديث عن أمر يجرى فى ضيعتها، واصدار تعليمات للمضى فى العمل . اما من وجهة نظر « ايجور ميخايلوفيتش » ــ وهو رئيس الخدم ــ فان « عرض الامر » كان يتطلب الوقوف معتدلا ، وأصابع قدميه مرفوعة الى أعلى ، فى ركن مواجه للأريكة . . مع الانصات الى كل ألوان الثرثرة المبتورة العبارات، والعمل بمختلف الطرق والوسائل على تهيئة ذهن السيدة لكى تقول بسرعة ونفاد صبر : « حسنا ! . . لا بأس ! » . ولكل هذا كان « ايجور ميخايلوفيتش » قد رسم خطته ! . . وكان « الامر » المعروض هو تعيين المجندين . فقد كان على ضيعة (بوكروفسك) ان تقدم فى عيد «بوكروف» ثلاثة افراد ليجندوا فى الجيش . ولاح ان القدر قد اختار بذاته اثنين منهما بحكم ظروف عائلية واخلاقية واقتصادية . ولم يكن ثمة تردد أو نزاع فى أمرهما ، سواء من جانب السيدة ، او الحكومة ، أو الرأى العام . ولكن الذى كان مثار الجدل هو : من يكون الثالث؟

وكان وكيل الاعمال تواقا الى أن ينقذ ابناء دوتلوف ــ الذين كان فى أسرتهم ثلاثة رجال فى سن التجنيد ــ والى ايفاد «بوليكوشكا» ، وهو رجل من رقيق البيت ، متزوج ، سيىء السمعة ، فوجىء ــ أكثر من مرة ــ وهو يسرق الاكياس ، وسروج الخيل ، والتبن .. ولكن السيدة ــ التى كثيرا ما كانت تعطف على اطفال بوليكوشكا فى اسمالهم ، وتعمل على اصلاح أخلاقه بآيات من التوراة ــ أبت أن تفرط فيه . . غير أنها ــ فى الوقت ذاته ــ لم تكن راغبة فى ايذاء آل دوتلوف ، الذين لم تكن قد عرفتهم ، ولا رأتهم قط . ولكنها ــ لسبب ما ــ لم تبد قادرة على ادراك وجهة نظر وكيل أعمالها ، كما أنه لم يقو على أن ينبئها صراحة بأنه لابد لواحد من ابناء دوتلوف ان يذهب ، اذا لم يذهب «بوليكوشكا» ، فقد راحت تقول له فى تأثر : « ولكنى لا أبغى سوءا بآل دوتلوف !» . وكان خليقا بوكيل الاعمال أن

يقول : « ما دمت لاتبغين، فادفعى ثلاثمائةروبل لبديل! » (١)
.. ولكن مثل هـذا الرد كان سيـاسة خرقاء ، ومن ثم ركن « ايجور ميخايلوفيتش » الى وقفـة مريحة حتى لقد أستند – دون ان يفطن – الى اطار الباب، بينما كان يحتفظ بمظاهر الخضوع على وجهه ، وهو يراقب خلجـات شفتى السيدة ، ويعجب بحواشى قلنسوتها وظلالها الملقاة على الجدار ، تحت احدى الصور !

ولكنه لم ير من الضرورى ان ينتبه لمعانى كلمات السيدة ، اذ انها كانت تتكلم طويلا ، وتقول كثيرا .. وتوترت العضلات التى خلف أذنيه ، تحت رغبة واتته فى التثاؤب ، ولكنه تحايل فحولها الى سعال أطلقه وهو يرفع يده الى فمه . ومنـذ عهد غير بعيد ، رأيت « لورد بالمرستون » (٢) يجلس وقـد أرخى قبعته على وجهه، بينما كان احد أعضاء المعارضة يصب الحمم على الوزارة . وما لبث اللورد انهض فجأة، فرد على المعارض – نقطة نقطة – فى خطاب استغرق ثلاث ساعات . ولم أدهش حين شهدت ذلك، لاننى رأيت الشىء ذاته يجرى بين « ايجور ميخايلوفيتش » ومولاته ، آلاف المرات !.. على انه لم يلبث ان القى ثقله على ساقه اليمنى بدلا من اليسرى – ولعله خشى أن ينساق للنعـاس ، أو ظن ان السـيدة كانت تتعمد اطالة الموقف – وشرع يمهد للحديث بمقدمة مليئة بالرياء، كما اعتاد ان يفعل دائما : « الامر رهن بمشيئتك ياسيدتى .. على ان ثمـة اجتمـاعا أمام نافـذة مكتبى الآن ، ولا بد أن نبت

---

(١) كان من الجائز فى روسيا أن يدفع المجند الميسور الحال مبلغا لشخص آخر يؤدى الخدمة العسكرية بدلا منه . فاذا كان المجند من الرقيق ، وشـاء مالكوه أن يحتفظوا به ، دفعوا عنه

(٢) لورد بالمرستون : كان رئيسا للوزارة الانجليزية من سنة ١٨٥٩ الى أن توفى فى سنة ١٨٦٥ ، ومن كبار ساستها فى القرن التاسع عشر

بقـرار ، فان الاوامر تقول بأن المجنـدين يجب أن يكونوا فى المدينة قبل عيد «بوكروف» ، وهناك اجماع بين الفلاحين على ترشيح ابناء دوتلوف ، دون سواهم . اما «المير» (١) فليس يشقى بمصالحك، اذ ما الذى يهمه اذا خربنا بيت آل دوتلوف؟

.. اننى أعرف قسوة الضـائقة التى المت بهم ، فانهم ــ منذ توليت وكالة اعمالك ــ يعيشون فى عوز. واليوم وقد كبر ابن أخ الشيخ ، وأوشك ان يكون عونا ، اذا بالاسرة تمنى بنكبـة ثانية !.. أما أنا ، فكما عهدت ، أمين على ثروتك كمـا لو أنها كانت ثروتى .. وهم ــ على أية حـال ــ ليسـوا أهلا لى أو أقارب ، ولست اجنى منهم شيئا ..!»

فقطعت عليه السيدة حديثه قائلة: « ما هذا يا ايجور ؟.. كأنما فكرت أنا يوما فى هذا ! » . على انها ارتابت لفـورها فى ان يكون قد تقاضى من آل دوتلوف رشوة . فقد واصل حديثه قائلا : « .. ان دارهم هى خير دار فى (بوكروفسك) من حيث العناية والتدبير . وهم فلاحون مجتهدون ، اتقياء ، وكبيرهم شيخ للكنيسة منذ ثلاثين عاما .. فهو لايشرب الخمـر ، ولا يسب ، وانما هو يواظب على الذهاب للكنيسة .. » . وكان وكيل الاعمال يعرف الوتر الذى يحسن أن يضرب عليه ، فقال : « على أن اهم ما أريد ان أعرضـه عليك ، هو انه لم يؤت غير ولدين ، اما الآخرون فأبناء أخوة له ، كفلهم برا بهم .. ومن ثم فيجب ان يجرى الاقتراع بين الاسرات ذات الرجلين . كم من أسرات تفككت بسبب قلة حكمتها ، فانفصل عنها ابناؤها، وأصبحوا الآن آمنين (٢) . أما آل دوتلوف، فسيتعرضون للعناء ، لمجرد انهم طيبون بارون ! »

---

(١) العمدة او رئيس القوم .. ولعلهـا تحريف « امير » التى انتقلت الى اللغة الروسية عبر القبائل المتاخمة لتركيا والدول الاسلامية

(٢) كان الاقتراع على المجندين يجرى بين الأسرات العديدة الذكور اولا

ولكن السيدة لم تستطع أن تتبع حديثه عند هذه النقطة ، اذ انهـا لم تفهم ماذا يعنى بالاسرات « ذات الرجلين » ، ولا بـ « البر » . فقنعت بأن تسـمع صـوته ، وترقب الازرار المكسوة بالقماش ، فى سترة وكيل الاعمال . كان أعلاها ثابتا فى مكانه ، ولعله لم يكن يستعمل كثيرا .. اما الاوسط فكان مدلى ، وكان من الواجب ان يثبت فى مكانه منذ زمن طويل ..

على انه من المعروف ان ليس من الضرورى – فى المحادثات التى تدور حول الاعمال ، بوجـه خاص – ان تفهم ما يقال ، وانما يكفى ان تتذكر ما تريد أنت ان تقول !.. وقـد عملت السيدة بهذا ، فقالت : « كيف يتعـذر عليك الفهم يا ايجور ميخايلوفيتش ؟ .. ليست بى ادنى رغبـة فى ان يصبح أحد أبناء دوتلوف جنديا . كنت أظن ان امرءا يعرفنى – كما تعرفنى أنت – قمين بأن يشهد لى بالرغبـة فى ان ابذل ما فى طوقى لمسـاعدة رقيق اسرتى ، فأنا لا ابغى ان يصيبهم أى ضر ، بل اننى على استعداد لان أضحى بكل ما أمتلك ، لاتهرب من هذه الضرورة المحزنة ، فلا أرسل دوتلوف أو بوليكوشكا ! » ..

ولست أدرى ، هل خطـر لوكيل الاعمال ان لا حاجـة هناك للتضحية بكل شىء للتهرب من الضرورة المحزنة ، وانما كانت ثلاثمائة روبل كافية .. على ان من المحتمل ان هـذه الفكرة طرأت على باله !

– لن اقول لك سوى هذا : لن افرط فى بوليكوشكا ، مهما يكن الامر . فعندما اعترف لى من تلقـاء نفسه – بعد حادث الساعة – وبكى ، وعاهدنى على الاستقامة ، تحدثت اليه طويلا ، ورأيت انه كان صادقا فى تأثره ، وفى توبته !

وهنا قال ايجور ميخايلوفيتش لنفسه : « ها هى ذى تضل ثانية ! » . وشرع يتأمل الشراب الذى كانت تحتسيه من كوب من اكواب الماء ، ويسائل نفسه : « اهو عصير برتقال أو ليمون ؟

.. اظنه لاذعا قليلا ! » .. بينما استطردت السيدة قائلة :
«ولقد انقضت سبعة أشهر، لم يحنث فيها مرة ، بل كان رائع السلوك . ان زوجته تقول لى أنه اصبح رجلا آخر . فكيف تريدنى على ان أعاقبه بعد ان استقام ؟.. ثم انه من المجافاة للانسانية ان تجند رجلا ذا خمسة اطفال، لا عائل لهم سواه.. لا ، يحسن ان لاتزيد فى اللجاج يا ايجور ! » . ورشفت من الشراب رشفة ، فراقب « ايجور ميخايلو فيتش» حركة حلقها والسائل ينساب فيه ، ثم أجاب باقتضاب وجفاء : « اذن فقد استقر الرأى على دوتلوف ؟ »

وعقدت السيدة يديها ، وقالت : « كيف لاتفهم ؟.. افأريد بدوتلوف سوءا ؟ اترانى أكن له ضغينة ؟.. الله شاهد على اننى على أستعداد لان افعل كل شىء من اجلهم .. » . ونظرت الى صورة فى ركن الحجرة ، ثم تذكرت انها لم تكن ايقونة ، فقالت لنفسها : « لا بأس .. ليس هذا محور الاهتمام ! » . **ومن الغريب ، أن فكرة الروبلات الثلاثمائة لم تخطر لها فى هذه المرة أيضا !** .. وعادت تقول : « حسنا ، ما الذى املك ان افعله ؟ وما درايتى بهذا الامر ؟ .. من المستحيل ان اعرف . ومن ثم فأنا أعتمد عليك ، وها قد عرفت رغباتى ، فاعمل على ارضاء الجميع ، وفقا للقانون .. ما الذى ينبغى عمله ؟.. انهم ليسوا الوحيدين ، بل أن كل امرىء يتعرض لاوقات عصيبة . **كل ما هنالك أن ليس من سبيل الى ارسال بوليكوشكا .. يجب ان تفهم ان من ابغض الامور على نفسى أن افعل شيئا كهذا ! »**

وكان الحماس قد تملكها . ومن المحتمل انها كانت على استعداد لان تسترسل فى الحديث طويلا ، لولا ان دخلت احدى خادماتها الحجرة ، فتحولت تسألها : « ماذا هناك يا دنياشا ؟ » فأجابت الخادم : « لقد جاء فلاح ليسأل ايجور

ميخايلو فيتش عما اذا كان للاجتماع ان يستمر فى انتظاره !». ورمقت ايجور ميخايلو فيتش فى حنق ، وهى تقول لنفسها : « يا لوكيل الاعمال هذا ! .. لقد ضايق السيدة ، ومن ثم فلن تسمح لى باغماضة عين قبل الساعة الثانية صباحا ! »

ـ حسنا يا ايجور ، اذهب وافعل خير ما فى وسعك !

واجاب الرجل : «سمعا ياسيدتى! ». ولم يعد الى الحديث عن دوتلوف ، وانما تساءل : «من الذى يذهب الى الموكل بالبستان ، ليأتى بالنقود ؟ » . فقالت السيدة: « ألم يعد بيتر بعد من المدينة ؟ » . فأجاب : « لا ياسيدتى » . وسألته : « الا يستطيع نيكولاس ان يذهب ؟ » . فقالت دنياشا : « ان أبى مريض ، يشكو من ظهره ! » . وتساءل وكيل الاعمال : «أأذهب أنا غدا يا سيدتى؟». ولكن السيدة قالت : «لا يا ايجور، فانك مطلوب هنا » . وفكرت قليلا، ثم اردفت : « كم المبلغ؟»

ـ اربعمائة واثنان وستون روبل ..

فقالت السيدة ، محملقة فى وجه ايجور ميخايلو فيتش باصرار : « ارسل بوليكوشكا ! » . وبسط الرجل شفتيه فى شبه ابتسامة ، دون ان يكشف عن اسنانه .. ولم تتبدل اسارير وجهه. وقال: « سمعا ياسيدتى! » . فقالت: «ارسله الى هنا ! » . فقال وهو ينصرف الى مكتب المحاسبة : «سمعا ياسيدتى ! »

(٢) بوليكوشكا .. بيطرى بالسليقة !

• **لم** يكن لبوليكى ـ أو بوليكوشكا ، كما كان ينادى عادة ، من قبيل الاحتقار ـ أى اعتبار لدى حارس الدار ، ولا رئيس الخدم ، ولا وكيل الاعمال ، ولا وصيفة السيدة . اذ انه كان رجلا قليل القيمة ، ملوث السمعة .. ولم يكن من أهل القرية أصلا . فكان ركنه أسوأ الاركان ، رغم انه اوتى سبعة



افراد فى اسرته . **وكان المالك السابق قد أمر ببناء هذه الاركان، على النحو التالى : ففى وسـط مبنى من الطوب ـ مساحته حوالى ثلاث وعشرين قدما مربعة ـ أقيم فرن كبير من الطوب، أحيط بردهة . وكانت اركان المبنى الاربعة تنفصل عن هـذه ((اللدهة)) ـ كما كان رفيق البيت ينطقونها ـ بحواجز خشبية، ومن ثم فلم يكن فى الاركان فراغ فسيح، لا سيما ركن بوليكى، الذى كان أقربها الى الباب ..** وكان سرير الزوجية ـ بلحاف من قماش منقوش ، ووسادتين ـ ومهد يشغله طفل رضيع ، ومنضدة ـ يجرى عليها الطهو والغسل ، وتوضع عليها كافه انواع الاشياء المنزلية ، كما كان بوليكى ، الذى كان طبيبا للخيل ، يشتغل عليها ـ واوعيـة ، وثياب ، وبعض فراريج ، وعجـل ، وسبعة افـراد يؤلفون الاسرة .. كل هـؤلاء كانوا يملأون فراغ الركن ، وما كان بوسعهم أن يتحركوا فيه ، لولا ربع الفرن الذى كان تابعا لهم ـ والذى كان بوسع الناس ان يناموا عليه ، وان يضعوا عليه الاشياء ـ ولولا انه كان لهم ان يخرجوا الى درجات السلم .. وهو أمر لم يكن ممكنـا ، اذا ما اشتد البرد ـ فى شهر أكتوبر ـ ولم يكن الافراد السبعة يمتلكون سوى معطف واحد من فراء الغنم ، يتشاطرونه فيما بينهم . على انه كان بوسع الاطفال ـ من ناحية اخرى ـ ان يدفأوا بالجرى، كما كان فى استطاعة الكبار ان يدفأوا بالشغل .

وكان لهؤلاء واولئك ان يصعدوا فوق الفرن ، حيث كانت الحرارة ترتفع الى مائة وعشرين درجة فهرنهيتية . **وقد يبدو ان الاقامة فى مثل هذه الظروف بغيضة ، ولكنهم لم يكونوا يحفلون بذلك .. كان يكفيهم ان يستطيعوا أن يعيشوا !**

كانت «اكولينا» ـ زوجة بوليكوشكا ـ تغسل ثياب زوجها وأولادها وتحوكها ، وتغزل ، وتنسج ، وتبيض النسيج ، وتطهو ، وتخبز فى الفرن المشترك ، وتتشاجر وتثرثر مع جاراتها . وكانت المخصصات الغذائية الشهرية لاتكفى الاولاد وحدهم ، بل تغذى البقرة كذلك . وكان خشب الوقود دون مقابل ، وكذلك العلف للماشية ، كما كان يصيبهم بعض التبن من الحظائر ، أحيانا . وكانت لهم رقعة صغيرة من الارض ، يستنبتون فيها الخضر .. وقد انجبت بقرتهم عجلا ، كما كان لديهم بعض الدواجن .. وكان «بوليكى» مستخدما فى الحظائر للعناية بجوادين فيها ، كما كان يقوم بحجامة الخيل والماشية ، وينظف حوافرها ، ويشرط قروحها ، ويعالجها ببلاسم من ابتكاره . وكان يتقاضى أجره عن ذلك نقدا وعينا . كذلك كان بعض شوفان صاحبة الضيعة يتسرب الى حوزته ، وكان أحد فلاحى القرية يقدم له عشرين رطلا من لحم الضأن ـ شهريا ـ فى مقابل كيلين من الشوفان . وكان من الممكن أن تكون الحياة محتملة ، لو لم يكن ثمة اضطراب ومتاعب .. فقد كانت الاسرة فى عناء كبير !

كان ((بوليكى)) قد عاش ـ فى صباه ـ فى مزرعة لتربية الخيل ، فى قرية اخرى . وكان السائس الذى قدر لبوليكى ان يقع بين يديه هو اكبر لص فى المنطقة ، وقد انتهى أمره الى أن نفى الى (سيبريا) . وقد قضى ((بوليكى)) فترة المران والتدرب ، تحت اشراف هذا الرجل ، ومن ثم اعتاد من صغره تلك ((السفاسف)) التى لم يستطع فى كبره ان يتخلص منها ، رغم انه كان من اليسير عليه ان ينصرف عنها !.. كان فتى صغيرا ،

ضعيفا ، لا أب له ولا أما ولا أى ناصح أمين يعلمه . ومن هنا جنح الى الشراب ، ولم يعد يحب ان يرى شيئا حوله مهملا دون ان يستحوذ عليه.. فما من شيء، سواء كان عنان جواد، أو قطعة من عدة الركوب ، أو قفلا ، أو مزلاجا ، أو شيئا أهم من ذلك وأعظم قيمة ، الا ووجد له « بوليكى » نفعا لديه !.. فقد كان ثمة أناس ـ فى كل مكان ـ يودون أن يحصلوا على هذا الشيء ، وان يدفعوا ثمنه شرابا أو نقودا .. حسب الاتفاق! ومثل هذه المكاسب من أيسر الامور ، كما يقول الناس، فهى لاتحتاج الى تعلم أو مران ، ولا الى جهد، ولا الى أى شيء .. والذى جرب هذا مرة ، لايحفل بمصدر للكسب سواه . ولم يكن ثمة سوى عيب واحد .. فمع انك تحصل على الاشياء بسهولة ، ودون ما كثير عناء أو نفقة ، فتنعم بعيش رغد ، الا ان الامور قد تنقلب فجأة، نتيجة شر من شخص ما، فاذا الاخفاق يصيب حرفتك ، والكساد يلحق بتجارتك، واذا بك تسأل ـ فورا ـ ان تقدم حسابا عن كل شيء .. حتى لتلعن اليوم الذى ولدت فيه !

وهذا ماجرى لبوليكى ! .. كان قد تزوج ، وأنعم الله عليه بحظ طيب. اذ ظهر ان زوجته ـ ابنة الراعى ـ كانت موفورة الصحة ، ذكية ، ذات جلد على العمل ، وقد انجبت له طفلا بعد آخر ، اطفالا ملاحا لطافا.. ومع ان بوليكى ظل دائبا على حرفته ، دون ان يصادفه أى سوء . **الا ان الحظ تخلى عنه يوما ، فاذا بأمره يفتضح .. وكانت الفضيحة كلها حول شيء تافه ، اذ كان قد خبأ بعض أعنة الخيل الجلدية ، التى كانت ملكا لاحد الفلاحين ، ثم تسنى العثور عليها .. فضرب «بوليكى» من اجلها، ورفع الامر الى مولاته ـ سيدة الضيعة ـ وفرضت عليه رقابة .. وضبط مرة ثانية ، ومرة ثالثة ، متلبسا** . وبدأ القوم يسبونه ويعيرونه . وانذره وكيل اعمالها بأن يزج به بين المجندين . ووبخته سيدة الضيعة ، وبكت

زوجته واصبحت كسيرة الفؤاد. وهكذا ساءت الامور جميعا!

وكان رجلا ذا فطرة طيبة ،فهو لم يكن سيئا بطبيعته ،وانما كان ضعيفا .. كان مغرما بالخمر ، وقد اعتاد الاقبال عليها ، حتى لم يعد يقوى على هجرها .. وكانت زوجته تؤنبه ـ بل وتضربه ـ أحيانا ، اذا عاد اليها ثملا ، فكان يبكى ويقول : « ماذا أصنع وأنا رجل منكود ؟ .. فلأفقد عينى اذا أنا لم أكف عن الخمر .. لن أعود اليها البتة ! » .. وينقضى شهر ، ثم يغادر البيت يوما ، فيسكر ، ولا يرى لمدة يومين . واذ ذاك يقول جيرانه : « لا بد له من أن يحصل على المال ، لكى يشرب به ! » .. وكان يعمد الى الطريقة الميسورة ، ثم لا يلبث أن يفتضح أمره !

وكان آخر مآزقه ناشئا عن ساعة مكتب الضيعة .. كانت من ساعات الحائط ، قديمة ، تعطلت عن العمل منذ أمد طويل . وتصادف أن وجد الباب مفتوحا ـ من تلقاء ذاته ـ فدخل .. وأغوته الساعة ! .. فأخذها ، وتخلص منها فى المدينة . وشاء سوء الطالع أن كان صاحب الحانوت الذى اشتراها منه ، قريبا لاحدى جوارى المنزل ، فجاء يزورها فى يوم عطلة ، وحدثها عن الساعة .. وشرع القوم ـ لا سيما وكيل الاعمال ، الذى كان يكره بوليكى ـ يتحرون ويتقصون ، وكأن الامر يعنى كلا منهم ! .. وانكشف الامر ، ورفع الى السيدة ، فأرسلت تستدعى « بوليكى » ، فاذا به يرتمى على قدميها لتوه ، ويعترف بكل شىء ـ فى لهجة مؤثرة ـ كما أوصته زوجته أن يفعل ! .. وأحسن تنفيذ تعليمات زوجته بحذافيرها ، فأخذت السيدة تقرعه ، ثم أخذت تعظه .. ومضت تتكلم ، وتتكلم ، مذكرة أياه بالله ، وبالاستقامة ، وبالحياة الآخرة ، وبالزوجة والاولاد ، حتى أثرت فى نفسه ، وأدمعت عينيه .. ثم قالت : « اننى أصفح عنك ، على أن تعدنى بأن لا تعود اليها ثانية ! »

فقال بوليكى ، وهو ينشج ببكاء مؤثر : « أبدا لن أعود ما حييت .. أو فلأهلك ، ولتنفجر امعائى ! »

وعاد بوليكى الى داره ، فقضى يومه مستلقيا على الفرن ، وهو يجهش ببكاء أشبه بخوار العجل .. ومنذ ذلك اليوم لم يؤخذ عليه أى مأخذ . بيد أن حياته لم تعد ممتعة ، فقد ظل القوم ينظرون اليه كلص ، حتى اذا اقترب موعد التجنيد ، أخذ كل امرىء يومىء اليه !

* * *

ولقد كان بوليكى طبيبا للجيـاد ، كما قدمنا .. أما كيف أصبح كذلك فجأة ، فهذا ما لم يدره أحد ، ولم يدره هو بوجه خاص ! .. اذ كان واجبه الاوحد فى مزرعة الخيل ـ حيث كان يعمل تحت امرة رئيس حراس انتهى أمره الى النفى ـ أن ينظف الحظائر من الروث ، وأن ينظف الجياد أحيانا ، وأن يحمل الماء .. فليس من المحتمل أن يكون قد تعلم المهنة هناك ! .. ثم بات نساجا ، وعمل ـ بعد ذلك ـ فى بستان كان يجتث الاعشاب من دروبه ، ثم قضى عليه بتكسير الطوب عقابا على ذنب أتاه ، ثم أصبح حمالا لدى تاجر كان يدفع لخليلته مبلغا سنويا لتدعه فى هذا العمل .. **ومن ثم فمن الواضح أنه لم يكن ممكنا أن يحظى بأية خبرة بأعمال البيطرى هناك أيضا ! .. ومع ذلك فان شهرته كبيطرى رائع المهارة ـ بل خارقها ـ بدأت تذيع تدريجا ، وبطريقة ما ، خلال اقامته ـ آخر مرة ـ فى قريته .** اذ حجم جوادا مرة أو اثنتين ، ثم أرقده أرضا ، وراح ينخسه فى خاصرته ، ثم أمر باحكام وثاقه ، وراح يجرح خصيتيه ـ والجواد يناضل عبثا ـ قائلا ان هذا يؤدى الى « استنزاف الدم المرتد من الحوافر » ! .. ثم أوضح لفلاح أن من الضرورة ـ التى لا غنى عنها ـ فصد الدم من وريدى جواده «زيادة فى اراحته » ، وشرع يدق المبضع المثلوم السن ،

بمطرقة من الخشب .. وضمد ـ بعد ذلك ـ جرحا فى أسفل بطن جواد صاحب فندق القرية بشريحة اقتطعها من شال زوجته .. وأخيرا ، راح يمارس علاج كافة أنواع القرح بنثر مسحوق الشب عليها ، ثم ترطيبها بمادة من زجاجة لديه .. وكان ـ أحيانا ـ يوصى باعطاء الجواد جرعات من أى شىء يخطر بباله .. وكلما ازداد عدد الجياد التى يعـذبها ، ويفضى بها الى الموت ، ازداد القوم ايمانا ببراعته واقبالا بجيادهم عليه !

واشعر بأنه ليس لنا ـ معشر المتعلمين ـ مايسوغ الضحك من « بوليكى » ، فان الاساليب التى اتبعها لبث الثقة ، هى عين تلك التى كانت تؤثر على آبائنا ، والتى لاتزال تؤثر علينا ، والتى ستظل تؤثر على ابنائنا ! .. فان الفـلاح الذى ينكب على رأس جواده الاوحد ـ الذى لا يمثل كل ثروته فحسب ، وانما هو فـرد من أسرته ، فى الغالب ـ وهو يحملق فى يقين وخوف الى وجه « بوليكى » العابس ، وأساريره الدالة على خطورة شأنه ، وكميه المحسورين عن ذراعيه النحيلتين ، وقد راح يضغط موقع الداء من الجواد تماما ـ وبين فكيه خرقة مبللة بدواء ، أو زجاجة مليئة بمسحوق الشب ، ثم يقدم فى جرأة على شـق اللحم الحى ـ وهو يقول لنفسه فى السر : « لسوف يتغلب الحيوان المعوج السيقان على جراحه ويبرأ منها ! » ـ فى حين يتظاهر بأنه يعرف أين الدم وأين القيح ، وأيها رباط العضل وأيها العرق ! .. هذا الفلاح الذى يرقب كل هذا ، لا يمكن أن يرتاب فى أن « بوليكى » ما كان ليرفع يده كى يشق اللحم ، لو أنه لم يكن على دراية بما يفعل ، لا سيما وأنه ـ أى الفلاح ـ لا يستطيع أن يقدم على شىء كهذا بنفسه ! .. فاذا حم القضاء ، وانتهى الامر ، فانه لا ينحو باللائمة على نفسه اذ أذن للبيطرى بشق لحم جواده دون ما داع لذلك !

ولست أدرى رأيك فى هذا ، بيد أننى جربت الامر ذاته مع طبيب راح ـ برجاء منى ـ يعذب أولئك الذين أعزهم ! ..

أليس المبضع ، وزجاجة الدواء المتسامى (١) ، و « يترنح .. السقاوة .. تفصيد الدم .. المادة » وما اليها .. أليس لكل هذه الكلمات من الاثر ما لكلمات : « العصاب .. والروماتيزم .. والكائنات الحية » ، وما اليهـا ؟ .. ان الحكمة القائلة : « يقدمون على الخطأ وهم يحلمون » ، لاتنطبق على الشعراء قدر ما تنطبق على الاطباء والجراحين البيطريين !

(٣) فى « ركن » بوليكى !



• **وعندما** اجتمع أهل القـرية فى العتمة الباردة ــ التى شابت ذلك المساء من أمسـيات أكتوبر ــ لاختيار المجندين واعلان أصواتهم ، أمام مكتب ادارة الضيعة ، كان « بوليكى » يجلس على حافة فراشه، منهمكا فى صحن دواء للخيل وضعه على المنضدة وراح يمر عليه بزجاجة .. أما كنه هذا الدواء ، فلم يكن « بوليكى » نفسه يعرفه ! .. كان يتألف من المادة الاكالة المتسامية ، والكبريت الخام ، واملاح جلوبر ، وبعض أنواع العشب التى كان قد جمعها اذ خيل اليه فجأة انها ذات

---

(١) المادة الكيمياوية المتسامية هى التى تتحول اذا عرضت للهواء الى بخار يتصاعد .. وغالبا ما يكون نفاذ العبير

نفع للخيل المصابة بالرياح المحتبسة (١) ، ثم قدر انها لن تكون غير لازمة للاضطرابات الاخرى !

وكان أطفاله قد ناموا : اثنان على الفرن ، واثنان على السرير ، وواحد فى المهد الذى جلست « اكولينا » الى جواره تغزل .. وكانت بقية الشمعة ـ احدى شموع مالكة الضيعة ، لم تلق من الصون ما يبعدها عن يد بوليكى ـ تحترق فى شمعدان خشبى على حافة النافذة ، و « اكولينا » تنهض اليها ـ من آن الى آخر ـ فتسوى ذبالتها بأصابعها ، حتى لا يضطر زوجها الى أن يتعطل عن عمله الهام . **وكان بعض المتحررين فى الرأى يعتبرون « بوليكى » بيطريا غير ذى قيمة ، وانسانا غير ذى شأن . ولكن سواهم ـ وهم الاغلبية ـ كانوا يعتبرونه انسانا غير ذى شأن ، غير أنه أستاذ عظيم فى فنه .. أما « أكولينا » فكانت تراه طبيب الخيل الاول ، وخير الرجال بلا مراء ، برغم أنها كثيرا ما كانت تؤنبه ، بل وتضربه !**

ونثر « بوليكى » بعضا من مادة خام على كفه ، اذ أنه لم يكن يستخدم الموازين قط ، وقد اعتاد أن يسخر من الالمان الذين يستخدمونها قائلا : « ليس هذا من صنعة العقاقير فى شىء ! » .. ووزن « بوليكى » المادة على راحة يده ، فلاح له أن الكمية غير كافية ، فأفرغ عشرة أمثالها من جديد ، وقال محدثا نفسه : « سأضع هذا القدر كله ، ليكون أفضل تأثيرا ! » .. واسرعت «اكولينا» تلتفت عند سماعها صوت زوجها ـ مولاها وسيدها ـ مترقبة منه امرا . **حتى اذا رأت ان حديثه لم يكن يعنيها ، هزت كتفيها ، وجال بخاطرها : « يا للمعرفة ! .. ترى من أين يستقيها ؟ ! » . ثم واصلت الغزل .** وكان بوليكى قد وضع المادة على ورقة ، فاذا الورقة تهوى الى الارض .. ولم يفت ذلك « أكولينا » ، فصاحت : « آنى ، انتبهى ! ..

---

(١) انتفاخ البطن لاحتباس الغازات الناشئة عن سوء الهضم .

لقد أسقط أبوك شيئا ، فالتقطيه ! »

وابرزت «آنى» ساقيها العاريتين ، الصغيرتين، الناحلتين، من تحت المعطف الذى كانت تتغطى به ، وانسابت تحت المنضدة كالهريرة الصغيرة ، والتقطت الورقة ، قائلة : « هاك يا أبت ! » . ثم اندفعت عائدة الى السرير ، وقد أثلج البرد قدميها الصغيرتين . وصاحت أختها الصغيرة بصوت رفيع وسنان ، ونطق الثغ : « لا تدفعينى ! » . فتمتمت أكولينا : «لسوف أضربكما ! » .. وعاد الرأسان يختفيان تحت المعطف!

وقال بوليكى بعد ان وضع المادة فى الزجاجة ، وأحكم سدادها : « لسوف يمنحنى ثلاثة روبلات . ولسوف ابرىء جواده . ما أرخص الثمن ! .. انه جهد يفلق الدماغ ! .. اذهبى يا أكولينا فاطلبى من «نيكيتا» قدرا من التبغ ، وسأدفع له الثمن غدا » .. وأخرج من جيب بسرواله انبوبة غليون من خشب الليمون - كانت مطلية يوما - وقد انتهت بفوهة (مبسم) من الشمع الاحمر ، وشرع يثبتها فى قصعة الغليون (المكان الذى يوضع فيه التبغ)

وتركت «أكولينا» مغزلها وخرجت، وهى تحرص على ان تتفادى كل ما كان فى طريقها .. وان لم تكن هذه بالمهمة الميسورة . وفتح «بوليكى» الصوان ، فوضع فيه الدواء ، ورفع الى فمه زجاجة «فودكا» فاذا بها خالية ، واذ ذاك قطب محياه .. حتى اذا عادت زوجته وقد احضرت التبغ، جلس على حافة السرير، وحشا غليونه وأشعله، ثم اشرقت أساريره رضى واعتزازا ، شأن الرجل الذى أتم عمل يومه .. وسواء راح يفكر فى غده - وكيف سيمسك بلسان الجواد ويصب دواءه ، هذا المزيج القوى ، فى حلقه - أو راح يتأمل كيف ان أحدا لايرفض للشخص النافع طلبا - « ألم تر

بنفسك؟ .. الم يرسل له نيكيتا التبغ ؟! » ــ فان «بوليكى» شعر بهناءة .

* * *

وفجأة ، دفع الباب ــ الذى كان معلقا على محور (مفصلة واحدة ــ ودخلت « الركن » خادم من .. **((فوق))** ! ولم تكن الوصيفة الثانية ، ولا الثالثة ، وانما الخادم الصغيرة التى كانت مكلفة بنقل الرسائل . و **((فوق))** ــ كما يعرف كل امرىء ــ يعنى منزل سيدة الضيع ، ولو كان مقاما على منخفض من الارض !

ولقد اعتادت «أكسيوتكا» ــ وهو اسم الفتاة ــ أن تدخل فى اندفاع ، مارقة كأنها رصاصة ، دون ان تثنى ذراعيها اللتين كانتا تتحركان فى أتساق مع سرعتها، وتهتزان كبندول الساعة ، لا الى جانبيها ، وانما امامها ! .. وكانت وجنتاها أشد احمرارا من ثوبها الوردى دائما، كما كان لسانها يتحرك بسرعة ساقيها . وقد اندفعت الى الحجرة، وامسكت بحافة الفرن، لسبب ما ، غير معروف !.. وشرعت تترنح الى امام والى خلف ، ثم اخذت تخاطب «أكولينا» ــ وهى مقطعة الانفاس ــ دون أن تطلق أكثر من كلمتين أو ثلاثا فى كل مرة ، على النحو التالى :

((ان السيدة.. اصدرت أوامرها.. بأن يصعد اليها .. بوليكى توا .. اوامرها ان يصعد !))

ثم امسكت ، والتقطت أنفاسها بعناء ، وعادت تقول :

((لقد كان ايجور ميخايلوفيتش مع السيدة .. وقد تحدثا عن المجندين .. وذكرا بوليكى.. وقد امرت افدوشيا نيكولايفنا .. بأن يصعد فى التو واللحظة .. هكذا أمرت افدوشيا نيكولايفنا ...)) ، وتنهدت مرة اخرى ، ثم اتمت عبارتها : **((بأن يصعد فى هذه اللحظة ..!))**

واخذت «اكسيوتكا» تجيل بصرها ــ لنصف دقيقة ــ بين بوليكى، واكولينا، والاطفال الذين كانوا قد أخرجوا رؤوسهم من تحت الاغطية .. ثم التقطت قشرة ثمرة من ثمار البندق ــ كانت على الفرن ــ ورمت بها «آنى» الصغيرة . وما لبثت ان رددت : **« أن يصعد فى هذه اللحظة ! .. »** . ثم اندفعت الى خارج الحجرة كالاعصار، والبندولان ــ المثلان فى ذراعيها ــ يتأرجحان كالعادة ، بعرض الاتجاه الذى كانت تندفع فيه !

ونهضت « اكولينا » عن مغزلها مرة اخرى ، فأحضرت لزوجها حذاءيه .. وكانا حذاءين رثين من احذية الجنود تخللتهما الثقوب .. ثم اخذت سترة زوجها من فوق الفرن، فناولته اياها دون أن تنظر اليه، وقالت : « الا تبدل قميصك يا بوليكى ؟ » . فأجابها : « لا » . ولم تكن « اكولينا » قد نظرت الى وجهه مرة، وهو يرتدى حذاءيه وسترته. وحسنا كانت تفعل بعدم النظر .. ولقد كان وجه بوليكى ــ فى هذه المرة ــ شاحبا ، وكان فكه الاسفل يختلج ، وتبدت فى عينيه نظرة دامعة ، وادعة ، عميقة الاسى .. نظرة لايراها المرء الا فى أعين المساكين ، والضعفاء ، والمذنبين !

ورجل «بوليكى» شعره ، ثم هم بالخروج ، ولكن زوجته استوقفته ، فدست فى صدره رباط شريطه الذى كان مدلى تحت سترته ، ووضعت له قلنسوته على رأسه .. ومن خلف الحاجز الخشبى، انبعث صوت زوجة النجار : « ماهذا يابوليكى ؟ .. هل ارسلت السيدة فى طلبك ؟ » .. كانت زوجة النجار قد رفعت صوتها فى ذلك الصباح بالذات ، متشاجرة مع «اكولينا» من اجل وعاء الغسيل المصنوع من رماد الفرن ، الذى قلبه أولاد «بوليكى» فى ركن النجار . ومن ثم فقد سرت ــ فى بداية الامر ــ اذ سمعت بأن «بوليكى» قد استدعى امام السيدة .. فغالبا ما يكون الاستدعاء لغير خير!

وكانت امرأة ماكرة ، ديبلوماسية ، ذات لسان لاذع ، فما

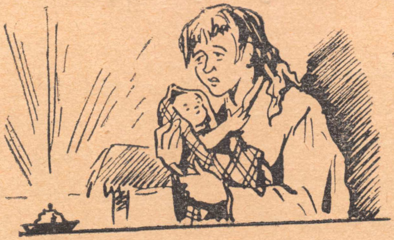
كان احد ليعرف - خيرا منها - كيف يشطر امرءا بكلمة .. أو هكذا كانت تتصور ، على الاقل ! .. وقد عادت تقول : « أتوقع أن توفدك السيدة الى المدينة لشراء أشياء ، فما أعتقد مهمة كهذه تتطلب سوى من هو أهل للثقة ، ولهذا فان السيدة تستدعيك ! .. فلعلك تبتاع لى ربع رطل من الشاى - من هناك - يابوليكى ! »

وكبحت «أكولينا» دموعها ، وقد راحت شفتاها تختلجان معبرتين عن غضب . وأحست بأنها تتمنى لو استطاعت ان تمسك « هذه السليطة ، زوجة النجار ، من شعرها الرث الاكرت ! » . **ولكنها نسيت زوجة النجار ذات اللسان السليط ، اذ نظرت الى أطفالها وفكرت فى أنهم قد يصبحون بلا أب - اذا جند أبوهم - كما تصبح هى زوجة جندى ، لاتكاد تكون أحسن حالا من الارملة فى شىء !** .. وأخفت وجهها فى راحتيها ، وجلست على السرير ، واسلمت رأسها الى الوسائد . فقالت ابنتها اللثغاء ، وهى تجذب المعطف - الذى كانت تتغطى به - من تحت مرفق امها : « اماه ، انك تهشمينننى ! »

فصاحت اكولينا : « ليتكم تموتون .. جميعا ! لقد أنجبتكم الى الدنيا لغير ما شىء سوى الحزن ! » . وأجهشت ببكاء مرتفع ، مما سر زوجة النجار التى لم تكن قد نسيت بعد انقلاب وعاء الغسيل فى ركنها ، فى الصباح !

(٤) بوليكى .. مبعوث السيدة الى المدينة !

• **وانقضى** نصف ساعة .. وشرع الرضيع يبكى ، فنهضت «أكولينا» وألقمته ثديها . وكانت قد كفت عن البكاء ، ولكنها اسلمت وجهها - الذى ظل محتفظا بوسامته رغم نحوله - الى يدها ، وثبتت بصرها على الومضات الاخيرة للشمعة



المحتضرة ، وجلست تفكر فيما دفعها الى الزواج ، وتعجب مما يدعو الى طلب جنود بهذه الكثرة، وتتدبر كيف تستطيع ان تثأر من زوجة النجار !

وسمعت وقع قدمي زوجها ، فجففت دموعها ، ونهضت لتفسح له مكانا يمر خلاله . **ودخل بوليكى كما لو كان غازيا مظفرا ، فطوح بقلنسوته على السرير ، ونفخ ، وفك ازرار سترته**

— ترى ما الذى كانت تبغيه منك ؟

— أممم !.. طبعا ! ان بوليكوشكا هو آخر من يخطر بالبال من الرجال .. ولكن ، عندما تكون ثمة مهمة تحتاج للاداء ، فمن الذى يرتجى لها ؟ .. بوليكوشكا ، بلا شك ...

— واية مهمة هى ؟

ولم يجد بوليكى داعيا للتعجيل بالرد ، فأشعل غليونه ، وبصق ، قبل ان يقول : **« ان اذهب فاحضر نقودا من احد التجار »**

وهتفت أكولينا متسائلة : « تحضر نقودا ؟ ! »

فضحك بوليكى — بصوت خافت — وراح يهز رأسه ، قائلا:

— آه ! .. أو ليست السيدة بارعة فى اختيار الكلمات ؟.. قالت : « لقد كنت معتبرا غير أهل للثقة ، ولكنى أءتمنك أكثر مما أءتمن أى رجل آخر » !

وكان بوليكى يتكلم بصوت مرتفع حتى يسمعه الجيران .

واستطرد قائلا :

ــ قالت : « لقد وعدتنى بأن تستقيم ، فهاك الدليل الاول على اننى أصدقك .. اذهب الى التاجر ، فخذ منه النقود التى هو مدين بها ، واحضرها الى ! » . فقلت لها : « اننا جميعا عبيدك يامولاتى ، ومن واجبنا ان نخدمك كما نخدم الله . ولهذا اشعر بأن بوسعى ان أفعل أى شيء لفخامتك ، ولست املك ان ارفض اداء أى عمل .. مهما تكن أوامرك أصدع بها ، لاننى عبدك ! »

وعاد يبتسم من جديد، تلك الابتسامة المنطوية على ضعف واستخذاء، وتلطف، وشعور بالذنب. ثم استأنف الحديث قائلا:

ــ **فقالت : « أحسنت .. اذن فسوف تؤدى المهمة باخلاص ؟ » .. ثم اردفت : « انك لتعلم ان مصيرك يتوقف عليها ! »** فرحت اقول لها : « كيف اعجز عن ان ادرك ان بوسعى ان أنفذ أوامرك بحذافيرها ؟ .. اذا كانوا قد تقولوا على ، فان كل امرىء يستطيع ان ينسج الاقاويل عن سواه .. ولكنى لم ارع يوما أية فكرة توحى بأن فخامتك تصدقين هذه الاقاويل.. أو هكذا اعتقد، على الاقل.. » . وقصارى القول اننى رحت أدق فى رفق ، حتى لانت مولاتى تماما .. فقالت : **« لسوف أحسن الظن بك ! »**

ولاذ بالصمت دقيقة ، ثم عادت الابتسامة ترتسم على محياه من جديد ، واستأنف الحديث :

ــ اننى اعرف جيد المعرفة كيف اتحدث الى امثالها ! .. وعندما كنت انطلق لاعمل لحسابى ــ فيما مضى ــ كان يحدث ان يقسو شخص من طبقتها على ، ولكنى لا أكاد اجتذبه بكلمة او اثنتين ، حتى اروح «أصقله» الى ان يصبح فى نعومة الحرير !

ــ وهل المبلغ كبير ؟

فأجاب بوليكى فى غير اكتراث: « الف وخمسمائة روبل».

وهزت زوجته رأسها ، ثم عادت تسأله : « ومتى أمرت بأن ترحل ؟ »

ـ لقد قالت : « غدا .. خذ أى جواد يروق لك، واذهب الى ادارة ضيعتى ، ثم انطلق فى رحلتك .. والله معك ! »

فقالت اكولينا ، وهى تنهض فترسم علامة الصليب على وجهها وصدرها : « المجد للرب ! » .. ثم اردفت فى همس، حتى لايسمع صوتها خلال الحاجز الخشبى : « وليساعدك الله يابوليكى » .. **وأمسكت بكم قميصه ، وقالت ، وهى سادرة فى همسها : « اصغ الى يابوليكى ! .. استحلفك باسم المسيح ربنا ان تقبل الصليب حين تشرع فى رحلتك، وعاهده على أن لاتمس قطرة من الخمر شفتيك ! »**

فقال ساخرا : « أمر محتمل ! .. أن أشرب وأنا أحمل كل هذه النقود ! .. آه ! ما أبدع العزف الذى كان يوقعه شخص ما على البيانو ، هناك ! بديع !.. » . وصمت لحظة، ثم ابتسم وقال : « أحسبها السيدة الصغيرة .. كنت أقف هكذا امام السيدة الكبيرة، بجانب ذلك الذى لا أدريه،وكانت السيدة الصغيرة تعزف خلف الباب . وظلت تدور وتدق ، حتى نسقت بين الاوتار فانسابت فى تناسق بديع ! .. آه ، ياعجبى ! .. لكم اتمنى ان أعزف لحنا !.. اننى سرعان ما احذق العزف ، وانى بهذا لقمين ! لكم انا بارع فى اجادة مثل هذا الامر ! .. اعطنى قميصا نظيفا فى الغد ! »

وأويا الى فراشهما سعيدين .

(٥) فى اجتماع الفلاحين

• **وكان** الاجتماع صاخبا ، خارج ادارة الضيعة ، فى تلك الاثناء . فان المهمة التى كانوا يعالجونها لم تكن هينة . وكان



كل الفلاحين ـ تقريبا ـ حضورا. وبينما كان وكيل الاعمال مع السيدة ، ظلوا مرتدين قلنسـواتهم ، وازدادت أصواتهم عددا وارتفـاعا . وكانت تتخلل اللغط العميق ـ فى اويقات نادرة ـ أصـوات متهدجة ، وأصوات متحشرجة ، وأصوات رفيعة ، تمـلأ الجو ، وتبدو ـ اذ تنساب خـلال نوافذ دار السيدة ـ كهدير البحر ينساب من بعيد ، فيثير فى السيدة انفعالا عصبيا كذلك الذى تحدثه عاصفة مرعدة ثقيلة الوطأة .. انفعالا هو خليط من الخوف وعدم الارتياح . **فقد كانت السيدة تشعر كما لو ان الاصوات كانت توشك ان تزداد ـ فى أية لحظة ـ ارتفاعا فوق ارتفاعها ، وسرعة فوق سرعتها ، ثم يحدث أمر ما !**.. وراحت تقول فى نفسهـا : « كأنما من العسـير ان يجرى كل شىء فى هدوء وسـلام ، بدون نزاع وصياح، وفقا لشريعة الحب الاخوى والتواضع المسيحى ! »

كانت ثمة اصوات عديدة تتكلم فى آن واحد ، ولكن صوت « ثيودور ريسون » النجار كان أكثرها ارتفاعا . فقد كان فى اسرته شابان مكتملا النمو ، ومن ثم فقد أخذ يحمل على آل «دوتلوف» . وانبرى الشيخ دوتلوف يدافع عن نفسه ، فبرز من بين الحشد الذى كان يقف خلفه ـ فى بادىء الامر ـ وراح يتكلم مرسلا نثارا من لعابه ومخـاطه ، وهو يبسط ذراعيه آنا ، ويمسك بلحيته الصغيرة آنا آخر، ويطلق الكلمات بطريقة

كان من العسير عليه ـ هو نفسه ـ أن يفهم معها ما كان يقول . وكان ابناه وابن أخيه ـ وهم جميعا من الشباب البديع ـ يقفون خلفه منكمشين ، بينما كان الشيخ أشبه بالدجاجة التى تذود الصقر عن أفراخها .. **وكان الصقر هو «ريسون» .. بل ان «ريسون» لم يكن يهاجم وحده «دوتلوف» ، بل راح يهاجمه معه جميع الرجال الذين اوتى كل منهم فى اسرته شابين مكتملى النمو .. والآباء الذين أوتى كل منهم ابنا واحدا ، وكل المجتمعين تقريبا!**

وكانت نقطة الخلاف ان شقيق « دوتلوف » كان قد جند منذ ثلاثين سنة ، ومن ثم فقد رغب «دوتلوف» فى ان تعفى اسرته من دورها ـ فى التجنيد ـ بين الاسرات التى اوتيت كل منها بين افرادها ثلاثة شبان صالحين للجندية .. واراد ان تحسب خدمة أخيه فى الجيش لصالح أسرته ، فتمنح بذلك عين الفرصة التى تمنحها الاسرات التى لايوجد بين أفرادها غير شابين ، ويجرى الاقتراع بين هذه الاسرات جميعا ـ على قدم المساواة ـ ليختار المجند الثالث من بين شبابها . وكانت ثمة اربع أسرات أخرى ـ الى جانب اسرة دوتلوف ـ تضم كل منها بين أفرادها ثلاثة شبان . ولكن احداها كانت اسرة شيخ القرية ، وقد أعفتها سيدة الضيعة . أما الاسرة الثانية ، فكان احد أبنائها قد جند فى العام السابق .. ومن كل من الاسرتين الباقيتين اختير مجند ، فى هذه المرة .. بل ان أحد هذين المجندين لم يحضر الاجتماع ، ولكن زوجته وقفت محزونة خلف الآخرين جميعا ، يساورها أمل مبهم فى ان عجلة الحظ قد تتجه نحوها ، بطريقة ما !.. أما «رومان» ذو الشعر الاحمر ، والد المجند الآخر ، فقد وقف فى سترة مهلهلة ـ وان لم يكن فقيرا ـ ونكس رأسه فى صمت ، وهو يستند الى جدار المبنى ، لايكاد يتحرك الا ليرمق باهتمام أى امرىء كان يرفع صوته ـ من حين الى حين ـ ثم يعود الى تنكيس رأسه من جديد ، وكأنما كان كل كيانه ينضح بالتعاسة !.. واما الشيخ

سمعان دوتلوف ، فقد كان رجلا يستطيع اى امرىء – عرف عنه شيئا – ان يأتمنه على مئات وآلاف الروبلات ، وهو مطمئن . كان رزينا ، تقيا ، يمكن الركون اليه .. وكان شيخ الكنيسة كذلك . وهذا مما جعل الضجيج الذى احاط به – فى هذه المناسبة – يبدو اكثر اثارة للدهشة والعجب !

وعلى العكس منه، كان «ريسون» النجار ، وهو رجل طويل اسمر . فقد كان سكيرا عربيدا ، بارعا جدا فى محاجة العمال والتجار والفلاحين والسادة ومجادلتهم فى الاجتماعات والاسواق . **وقد بدا فى الاجتماع معتدا بنفسه، لاذع السخرية، وراح – من علياء طوله – يسحق شيخ الكنيسة المتداعى بكل ما لصوته الرنان من قوة ، وبكل ما أوتى من موهبة للخطابة ، حتى لقد اهتيج شيخ الكنيسة واخرج عن وقاره العميق المعهود .**

والى جانب هؤلاء ، كان « جاراسكا كوبيلوف » حاضرا ، وكان احد المتكلمين باسم الجيل الشاب ، اذ لم يكن قد تجاوز مرحلة الشباب . وكان مستدير الوجه، مربع الرأس ، مجعدا شعر اللحية، ربعة القوام . وقد حذا حذو «ريسون» ، وانحاز اليه فى الجدال . وكان قد اكتسب مكانة وقدرا فى اجتماعات القرية ، اذ امتاز بخطبه القاطعة الباترة .. ثم ، كان هناك ، « ثيودور ميلنيكنى » . وكان شابا هو الآخر، طويلا ، رفيعا ، اصفر الوجه ، ملتف الكتفين ، خفيف اللحية ، ضيق العينين، دائم الهم والاكتئاب، لايرى سوى الجانب المظلم من كل شىء .. وكثيرا ما اثار الارتباك فى الاجتماعات بما كان يوجهه من اسئلة وملاحظات مفاجئة ، محرجة !

وقد انحاز كل من هذين الخطيبين – كوبيلوف وميلنيكنى – الى « ريسون » . وكان هناك – فضلا عنهما – اثنان من المهذارين الثرثارين ، راحا ينضمان – بين آن الى آخر – الى الثلاثة .. وكان احدهما يدعى «خرابكوف»، وقد اوتى وجها

من اكثر الوجوه بشاشة ، ولحية بنيـة مسترسلة ، وقد راح يردد: « آه ، ياصديقى الاعز! » . اما الآخر، فهو «زيدكوف»، وكان شابا قلة فى الجسم ، ذا وجـه كوجه الطائر ، وقد ظل يردد فى كل فرصة : « هكذا الامر فعلا يا اخوتى ! » ، موجها الحـديث الى كل امرىء ، ومتكلما فى لبـاقة دافقة ، دون ان يلزم الموضوع اطلاقا !.. وكان هذان الاثنـان قد انحازا — فى بادىء الامر — الى احد الجانبين، ثم ناصرا الفريق الآخر،ولكن أحدا لم يكن ينصت اليهما . **وقـد كان هنـاك غيرهما ، ممن على شاكلتهما ، ولـكن هذين الاثنين اللذين ظلا يتنقلان خلال الحشد ، ويرفعان عقيرتيهما بالصياح فوق كافة الاصوات — فيثيران الجزع فى نفس سيدة القرية — كانا أقل الجميع ظفرا باصغاء الجمع. واذ انتشيا بالضجيج والصياح، أسلما نفسيهما للذة اطلاق صوتيهما بالجعجعة .**

وكان بين اعضاء الاجتماع كثيرون غيرهم، من ذوى الشخصيات الرصينة ، المحترمة ، وقد وقفوا غير مكترثين ، أو مستاءين . كما كانت هناك نسوة وقفن خلف الرجال ، وفى ايديهن عصى .. على اننى سأتحدث عنهن فى مرة اخـرى ، ان شاء الله . **وعلى كل حال، فان الشطر الاكبر من الحشد كان من الفلاحين الذين وقفوا كما لو أنهم كانوا فى كنيسة ، يتهامسون — كل من خلف ظهر الآخر — بأحاديث عن شؤونهم المحلية، أو عن موعد اقتطاع الحطب من الغابة .. أو كانوا ينتظرون — فى صمت — انتهاء الجدال .**

كذلك كان هنـاك فلاحون اثرياء ، ما كان الاجتماع ليزيد من رفاهيتهم أو ينقص . من هؤلاء كان شيخ القرية «ارميل» ذو الوجه العـريض اللامع ، الذى كان الفلاحون يطلقون عليه «المكرش» لانه كان غنيا .. ومنهم كذلك كان «ستاروستين» الذى كان وجهه ينم عن رضى ذاتى بقوته ونفوذه، وكأنه يقول:

« لكم ان تتكلموا ماشاء لكم الكلام، ولكن أحدا لن يمسنى !.. ان لى اربعة أبناء ، ولكن ما من واحد منهم سيضطر الى الذهاب! » . وكان هذان الاثنان يتعرضان ــ بين وقت وآخر ــ لهجوم من بعض ذوى التفكير المستقل ، مثل كوبيلوف أو ريسون ، ولكنهما كانا يجيبان فى هدوء وحزم ، وباطمئنان الى مناعتهما .

واذا كان « دوتلوف » قد شابه الدجاجة التى تذود الصقر عن أفراخها ، فان فتيانه لم يكونوا يشبهون الافراخ فى كثير. فلم يحوموا حوله ويشقشقوا، وانما وقفوا خلفه صامتين.. كان ابنه الاكبر «اجنات» قد بلغ الثلاثين من عمره فعلا ، كما أن الثانى « فاسيلى » كان رجلا متزوجا . أما الثالث ــ ابن أخيه « ايليشا » ــ فكان قد تزوج من عهد قريب.. وكان شابا أشقر ، متورد الوجه ، فى سترة انيقة من جلد الغنم ، اذ كان من سائقى عربات البريد.. وقد وقف ينظر الى الجمع، ويحك ــ فى بعض الاحيان ــ رأسه ، تحت قبعته ، وكأن الامر كله لم يكن يعنيه فى شىء ، بالرغم من ان الصقور كانت تحوم لكى تنقض عليه هو بالذات !

* * *

وقال أحد الحضور ، معرضا بما قاله دوتلوف عن تجنيد أخيه : « اذا كان الامر كذلك ، فان جدى كان جنديا، ومن ثم فلى ان ارفض ان اكون بين المقترعين ــ انا الآخر ــ على الاساس ذاته !.. **ليس هناك قانون يقر هذا ياصديقى . ففى موسم التجنيد الماضى ، أخذ «ميخيتشيف» بالرغم من أن عمه لم يكن قد عاد من الخدمة بعد ! »**

وكان دوتلوف يقول ، فى الوقت ذاته : « لا أبوك ولا عمك قد خدم القيصر يوما . ولماذا نذهب بعيدا ، وانت نفسك لم تخدم سيدة الضيعة ، ولا الحكومة ، وانما كنت تقضى كل

وقتك فى الحانة ؟!.. لقد انفصل عنك ابناؤك لان من المستحيل عليهم ان يقيموا معك ، ولهذا فأنت تتحمس لترشيح ابناء الغير للتجنيد !.. اما أنا فقد انضويت فى خدمة البوليس عشر سنوات ، وخدمت كشيخ للكنيسة . ولقد احترق كل ماكنت أملك مرتين، فلم يمد لى أحد يد العون. فهل يقضى على اليوم بالخراب، لان الامور تسير فى دارى بسلام وتقوى؟... اعيدوا الى شقيقى اذن ! فقد مات فى الخدمة العسكرية ، على وجه التأكيد .. احكموا بأمانة ، وفقا لقانون الرب ، ايها القوم المسيحيون ، ولا تنصتوا الى هذيان سكير ! »

وفى الوقت ذاته، كان «جيراسكا» يقول لدوتلوف : **«أفتتخذ من أخيك حجة ؟.. ولكن اهل القرية لم يرسلوه الى الجيش، وانما ارسله سيد الضيعة ، بسبب أساليبه الشريرة ، ومن ثم فهو ليس بالعذر الذى يعفيك ! »**

ولم يكن جيراسكا قد أتم حديثه ، عندما تقدم ثيودور ميلنيكنى ــ الاصفر الوجه ــ وشرع يقول وهو بادى الكآبة : « اجل، هكذا ينبغى القول.. ان السادة يرسلون الى الجيش بمن يروق لهم ، ومن ثم فعلى القوم ان ينفضوا أيديهم . لقد اجمع القوم على فتاك ، فاذا لم يرق ذلك لك ، فاذهب وسل السيدة ، فلعلها تأمرنى ــ أنا الرجل الذى يعول اسرة ــ بأن اترك أولادى واذهب !.. » . ثم اردف بمرارة : « هاك قانونا يرضيك! » ، ولوح بيده، ثم عاد الى مكانه السابق . واذ ذاك، انتبه «رومان» ذو الشعر الاحمر ــ الذى كان ابنه أحد المجندين اللذين تم اختبارهما ــ فرفع رأسه وغمغم : « هو كذلك !.. هو كذلك ! » ، وجلس على عتبة الباب فى استياء وكرب .

على ان هؤلاء لم يكونوا كل من راحوا يتكلمون معا ، فى وقت واحد . فالى جانب اولئك الذين كانوا يتحدثون عن شؤونهم الخاصة ــ فى المؤخرة ــ لم ينس المهذاران ان يؤديا دوريهما .

فقال زيدكوف ـ الضئيل الجسم ـ يناصر دوتلوف : « وهكذا ينبغي ايها القوم الاوفياء ! .. يجب ان يحكم المرء بضمير مسيحى .. اعنى اننا يجب ان نحكم كمسيحيين ، ايها الاخوة! »

.. وكان « خرابكوف » البشوش يقول مرددا كلمات « جاراسكا كوبيلوف » ، وهو يجذب سترة دوتلوف المصنوعة من جلد الغنم : « **يجب على المرء ان يحكم وفقا لضميره يا صديقى العزيز .. لقد كانت تلك ارادة السيد ، وليس قرار اهل القرية الذى ارسل بأخيك الى الجيش ! » .. وقال آخرون : « هذا صحيح ! هكذا كان ! »**

وصاح ريسون فى دوتلوف : « اى سكير يهرف هناك ؟ .. هل قدمت لى أى شراب ؟ .. أم ترى ابنك ـ الذى يلتقطونه من قارعة الطريق وهو ثمل ـ يجرؤ على لومى على الشراب؟ .. يجب ان نتخذ قرارنا أيها الاصدقاء ! اذا أردتم ان تعفوا آل دوتلوف ، فاختاروا مجندا .. لا من بين الاسرات ذات الرجلين فحسب ، بل ومن بين الأسرات التى لم تؤت كل منها سوى ابن واحد .. ودعوا الرجل يضحك منا ! »

ـ لابد لواحد من ابناء دوتلوف من الذهاب ! ففيم اطالة الكلام ؟

وشرعت اصوات مختلفة تقول : « من الطبيعى ان تكون الاسرات ذات الابناء الثلاثة هى الاولى فى الاقتراع ! »

فصاح صوت : « لابد لنا من ان نرى أولا ماسوف تقول السيدة . لقد كان ايجور ميخايلو فيتش يقول انهم كانوا راغبين فى ارسال أحد عبيد البيت ! »

وأوقفت هذه العبارة الجدال برهة ، ولكنه سرعان ما تأجج من جديد ، وتحول ـ مرة اخرى ـ الى المسائل الشخصية . فان « اجنات » ـ الذى رماه ريسون بأن الناس يلتقطونه من الطريق ثملا ـ شرع يرمى ريسون بأنه سرق منشارا من جماعة

من النجارين الرحل، وانه كان يضرب زوجته ـ حين يثمل ـ حتى يكاد يقضى عليها !.. فرد عليه ريسون بأنه يضرب زوجته حقا ، ويضربها وهو فى وعيه ، دون ان ترعوى .. فأضحك قوله كل امرىء . ولكنه استنكر فى اباء مفاجىء مسألة المنشار، ودنا من «اجنات» وسأله : « من الذى سرق ؟.. » . فأجاب اجنات ـ المتين البنيان ـ وهو يدنو منه بدوره : « أنت ! »

وصاح ريسون : « من الذى سرق ؟ .. الم تكن أنت السارق ؟ » . فأجاب اجنات : « لا .. بل انت ! » .. ومن المنشار انتقلا الى سرقة جواد ، وكيس من الشوفان ، وخضر قطعت من حديقة أحد المنازل .. بل انهما تبادلا الاتهام بشأن جثة ميت معين . وقال كل من الفلاحين عن الآخر أشياء رهيبة، لو صح جزء من مائة منها ، لكانا يستحقان النفى الى سيبريا ـ على الاقل ـ بحكم القانون .

وكان دوتلوف ـ فى تلك الاثناء ـ قد اختار طريقة أخرى للدفاع عن نفسه ، فانه لم يرض عن صراخ ابنه ، فحاول ان يوقفه قائلا : « انها خطيئة !.. كف عن هذا ! اننى آمرك ! » . وفى الوقت ذاته، راح يقول ان الذى أوتى ثلاثة شبان يقيمون معه ليس وحده رب اسرة ذات ثلاثة ابناء ، وانما ينطبق الوصف كذلك على من له ثلاثة ابناء يعيشون منفصلين عنه . واشار بذلك الى «ستاروستين» . فابتسم «ستاروستين» ، وأجلى حلقه ، وأخذ يسوى لحيته ، كما يفعل الفلاح الذى اوتى بسطة فى الرزق، واجاب بأن الامر كله يتوقف على سيدة الضيعة ، وان من الجلى ان ابناءه كانوا موضع تقدير ، اذ ان الامر صدر باعفائهم .. وحطم « جاراسكا » حجج دوتلوف بشأن الاسرات التى انقسمت ، بأن قال انه لم يكن ينبغى لها ان تنقسم ـ اذ كانت هذه هى القاعدة التى سادت خلال حياة سيد الضيعة المتوفى ـ وانه ليس للمرء ان يبكى على لبن

اريق ، فقد تم الانقسام فعلا ، وأصبح كل ابن ربا لاسرة ، ولا سبيل الى تجنيد الرجل الاوحد فى هذه الاسرة .

وانبعثت اصوات الرجال الذين انقسمت اسراتهم ، وقد انضم اليهم المهذاران : « اتراهم انفصلوا عن أهلهم حبا فى اللهو ؟ .. لماذا يقضى عليهم الآن بالخراب المبرم ؟ » .. وقال ريسون لدوتلوف : « يحسن بك ان تبتاع بديلا اذا لم يرضك هذا ، وفى وسعك ان تفعل ! » . فشد دوتلوف اطراف سترته حوله ، فى حركة يائسة ، وتقهقر وراء الآخرين ، وهو يدمدم مغضبا : « يبدو انك تعد على نقودى ! .. لسوف نرى مايقول ايجور ميخايلوفيتش عندما يعود من لدن السيدة ! »

(٦) .. وانفض الاجتماع !



• وفى تلك اللحظة بالذات ، برز « ايجور ميخايلوفيتش » من الدار ، فاذا القلنسوات ترتفع واحدة بعد اخرى ، اثناء اقتراب وكيل الاعمال ، حتى تعرت جميع الرؤوس من شيباء ، وسوداء تتخللها بواكير الشيب ، وحمراء ، وبنية ، وصفراء ، وصلعاء من امام ، أو صلعاء فى أم ناصيتها ! .. وأخذت الاصوات تخفت تدريجا ، حتى ران الصمت فى النهاية ، وسيطر السكون . وخطا « ايجور ميخايلوفيتش » الى عتبة الباب ،

وقد تجلى انه كان ينتوى الكلام .. ووقف فى سترته الطويلة، وقد دس يديه فى جيبيه الاماميين اخفاء لحرجه، وجذب على جبينه قلنسوته المصنوعة فى المدينة .. وقف ثابتا، وقد باعد بين ساقيه ، على العتبة المرتفعة ، فبـدا كأنه كان يطل من عل على تلك الرؤوس ، وعلى الوجـوه التى تطلعت اليه ومعظمها مسن ، ملتح ، مليح .. وكان فى وقفته هذه رجلا غير ذاك الذى كانه حين وقف امام مولاته .. كان متعاليـا ، ذا سلطان !..

وما لبث ان قال :

ـ هاكم قرار السيدة يارجال ! .. ليس مما يسرها ان تقدم أحدا من رقيق الدار . انما الذين سيذهبون منكم، هم الذين تقررون بأنفسكم اختيارهم . **ان المطاوبين ـ فى هـذه المرة ـ ثلاثة ، والواجب ان يكونوا اثنين ونصف رجل ، ولكن النصف الآخر سيراعى حسـابه فى المرة المقبلة فالامر سيان ، واذا لم يذهب اليوم ، فلا بد له من الذهاب باكر !**

فقالت بعض أصوات : « طبعا ، هـذا صحيح ! » . بينما استطرد ايجور ميخايلوفيتش: « وفى رأيى ان لابد لخاريوشكين ولفاسكا ميتيوخين من الذهاب .. فهذه ارادة الله ، كما يبدو !»

.. وقالت الاصوات : « اجل .. هذا صحيح ! » . وظل هو ماضيا فى الحديث : **« .. اما الثـالث فلا بد ان يكون من آل دوتلوف ، أو واحدا من الاسرات ذات الرجلين .. فما قولكم ؟»**

وصاحت الاصوات : « دوتلوف ! .. ان فى الاسرة ثلاثة من الشبان ، فى سن التجنيد ! » .. ومن جـديد ، عاد الصياح يتزايد شيئا فشيئا ، وانبعث حـديث خضر الحديقة وبعض الاكياس التى سرقت من ساحة السيدة مرة اخرى ، بطريقة ما . وكان « ايجور ميخايلوفيتش » قد قضى فى ادارة الضيعة الاعوام العشرين الاخيرة ، فكان أريبا ، خبـيرا . ومن ثم فقد ظل واقفا يصغى زهاء ربع ساعة ، ثم امر الجميع بالصمت ، وأمر شبان أسرة دوتلوف الثلاثة بأن يقترعوا على من يذهب

منهم . واعدت اوراق الاقتراع، وخلطت داخل احدى القبعات، ثم سحب «خرابكوف» احداها ، **فاذا بها ورقة « ايليشا »** .

وسيطر الصمت على الجميع . وقال ايليشا فى صوت مرتعش : « اهى ورقتى ؟ .. دعنى اراها ! » فظل الجميع سكونا ، بينما أمر « ايجور ميخايلوفيتش » بأن يحضر كل امرىء نقود التجنيد فى اليوم التالى ـ سبعة كوبكات من كل دار ـ ثم اردف ان الامر قد انتهى ، وفض الاجتماع . وتحرك الحشد منصرفين ، وأخذت أصواتهم ووقع اقدامهم تخفت رويدا ، حتى أصبحت كطنين يسرى من بعيد . ومكث وكيل الاعمال واقفا يرقب انصراف الجمع ، حتى اذا غاب ابناء دوتلوف الثلاثة، فى منعرج الطريق، أشار الى الشيخ دوتلوف ، الذى كان قد وقف من تلقاء نفسه، ثم دخلا غرفة المكتب معا.

وقال ايجور ميخايلوفيتش، وهو يجلس فى مقعد وثير امام المكتب : « اننى آسف من اجلك ايها الشيخ . على أن الدور كان دورك . فهل ستدفع لمجند يحل محل ابن أخيك أو لا ؟ »

ـ لكم يسرنا أن ندفع لبديل يا ايجور ميخايلوفيتش ، اولا أننا لانملك الى ذلك سبيلا. لقد آل جوادان ـ فى هذا الصيف ـ الى تاجر الجياد التى لم يعد لهـا نفع (١) ، ثم .. كان هناك زواج ابن أخى .. انه قدر مكتوب علينا ، كما ترى . جزاء اننا نعيش بأمانة وشرف . أن له حقا فى أن يتكلم كما يشاء !

(وكان يفكر اذ ذاك فى ريسون)

ومسح ايجور ميخايلوفيتش وجهه بيده وتثاءب . كانت المهمة قد أتعبته وأسقمته ـ كما ظهر ـ وكان تواقا لان يتناول الشاى . فقال : « آه ، ياصديقى الكهل ، لاتكن شحيحا ! .. ابحث فى أرض دارك ، فانى لموقن من أنك ستخرج من تحتها زهاء اربعمائة ورقة قديمة من فئة الروبل ، وسأبحث لك عن

---

(١) كانت الخيل المريضة والمكتهلة تباع لتذبح ويتجر فى لحمها .

بديل .. واحد ممن اعتادوا التطوع !.. لقدجاءنى شاب منذ ايام يعرض نفسه ! »

وتساءل دوتلوف : **« فى الحكومة ؟ »** .. وكان يقصد « فى المدينة »

ـ حسنا ، هل تدفع له ؟

ـ لكم كان يسرنى ، والله على ما أقول شهيد ، ولكن ...

فقاطعه ايجور ميخايلوفيتش بلهجة صارمة : « آه ، اذن فاسمع ايها الشيخ ! .. حذار من ان يلحق ايليشا بنفسه أذى **(١)** ، ولا بد من أخذه الى المدينة فورا .. بمجرد ان أخطركم بذلك ، ان اليوم أو غدا . لسوف تصحبه أنت ، وستكون مسئولا عنه، ولو انشيئا حدث له ـ لا قدر الله ! ـ فسأبعث بابنك الاكبر بدلا منه ! هل تسمعنى ؟ »

ـ ولكن، اما منسبيل لارسال واحد من اسرة ذات رجلين؟ .. ان هذا ليس من الانصاف فى شىء يا ايجور ميخايلوفيتش!

وصمت لحظة ، ثمعاد يقول ، والدمع يكاد يطفر من عينيه: **« لقد مات أخى فى الجندية ، وها هم أولاء يأخذون ابنى ! .. كيف استحق مثل هذه البلوى ؟ »** .. وأوشك انيهوى جاثيا على ركبتيه، فقال ايجور ميخايلوفيتش : « لابأس ، لابأس .. انصرف ! لا سبيل الى عمل شىء ، فهذا حكم القانون ! .. راقب ايليشا ، فسوف تكون مسئولا عنه ! »

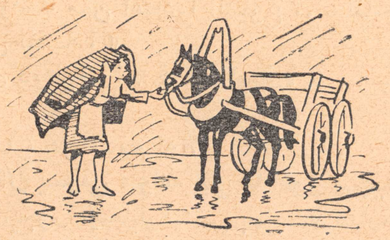
وعاد دوتلوف الى داره، وهو يدق الارض بعصاه المصنوعة من خشب الزيزفون ، اثناء سيره !

(٧) «بوليكى» يذهب الى المدينة

• فى ساعة مبكرة من الصباح، وقف عند عتبة اركانرقيق

---

(١) كان من الشائع أن يصيب المجند نفسه بأذى يجعله غير صالح للخدمة العسكرية ، كأن يقطع من يده اصبعا .



الدار ، جواد عريض العظام ، مخصى ـ كان يدعى « الطبل » لامر ما ـ شد الى عربة صغيرة ، اعتاد وكيل الاعمال ان يستقلها بنفسه احيانا .. وبالرغم من ان السماء كانت تمطر بردا ، والريح قارسة ، فان «آنى» ـ ابنة بوليكى الكبرى ـ وقفت حافية عند رأس الحصان ، ممسكة عنانه على قيد ذراع ، بينما أمسكت باليد الاخرى سترة خضراء مصفرة حائلة اللون ، كانت ملقاة على رأسها ، **وكانت تستخدم كغطاء فراش الاسرة ، ومعطف ، وغطاء للرأس ، وبساط ، ومعطف لبوليكى ، واداة لعدة اغراض أخرى بجانب ذلك** . وكان «ركن» بوليكى يضج بالحركة . وكان الضوء الواهن ـ لذلك النهار المطير ـ قد بدأ يتسرب خلال النافذة التى كان زجاجها مهشما ـ هنا وهناك ـ وقد سدت الثغرات بالورق .

وتركت « أكولينا » الطعام الذى كانت تطهوه فى الفرن ، كما تركت اطفالها ـ الذين كان اصغرهم فى الفراش ـ يرتجفون ، لان السترة التى كانت بمثابة غطاء لهم فى نومهم ، اخذت منهم ولم تستبدل بغير الشال الذى اعتادت امهم ان تضعه على رأسها . وانهمكت «أكولينا» فى مساعدة زوجها على التأهب لرحلته .. كان قميصه نظيفا ، ولكن حذاءيه ـ اللذين كانت اصابعه تطل منهما تنشد قوتا ، كما يقول المثل ـ كبداها كثيرا من العناء . فقد نزعت جوربيها الصوفيين الثقيلين ـ جوربيها

الوحيدين - واعطتهما لزوجها ، واقتطعت بمهـارة زوجا من النعال الداخلية ، من كساء سرج كان ملقى فى حظيرة الخيل مهملا - وقد أحضره بوليكى الى داره قبل ذلك بيومين-حتى تسـد ما كان فى الحـذاءين من ثقوب ، وتصون قدميـه من الرطوبة .

وجلس بوليـكى على السرير بكل جسمـه وقدميه ، وراح يسوى حزامه حتى لايبدو كحبل قذر . وكانت الابنة الصغرى اللثغاء ، الحولاء البصر ، قد التفت فى جلد الغنم - الذى غطى رأسها واسترسل فراحت تجـرجره على الارض - واوفدت لتسأل «نيكيتا» ان يعير اباها قلنسـوة . **وضاعف الحركة فى ((الركن)) مقدم رفيق الدار ليسألوا بوليكى أن يأتيهم بمختلف الاشياء من المدينة . فطلب واحـد ابرا للحياكة ، وطلب آخر شايا، وثالث تبغا، وغيرهم زيت زيتون. وكانت زوجة النجار قد وجدت وقتا لتذكى النار تحت غلاية الماء ، وتعد قدحا مليئا بسائل اسمته شايا، قدمته الى بوليكى استرضاء له ، لتسأله أن يحضر لها قدرا من السكر .**

ومع ان نيكيتـا رفض ان يعير قلنسـوته ، فاضطروا الى ترتيق قلنسوة بوليكى ، وذلك برد الوبر الذى حشيت به - والذى برز من جوفها - وحياكتها بابرة من ابر جراحة الخيل .. ومع أن الحذاءين أبيا - فى بادىء الامر - ان يتسعا لقدمى بوليكى ، بعد ان زج فيهما بالنعلين المصنوعين من كساء السرج .. ومع أن «آنى» كادت تفلت عنان « الطبل » وقـد أثلجت اطرافها ، وكان لابد لـمارى ان تحل محلهـا وهى ملتفة بجلد الغنم ، ثم اضطرت «مارى» ان تخلع عنهـا جلد الغنم ، لكى تلتف به «اكولينا» وتحل محلها لتمسك بالجواد .. **بالرغم من كل هذا ، فقـد انتهى الامر بأن وفق ((بوليكى)) الى آن يكسو جسمه بكل ما لدى الاسرة من ثياب للتدفئة، فلم يخلف وراءه**

سوى السترة وزوجا من النعال المكشوفة !

واذ استكمل اهبتـه ، صعد الى العـربة الصغيرة ، واحكم جلد الغنم حول جسمه، وهز كيس التبن المعلق أسفل العربة، ثم عاد فلف نفسه جيدا، وأمسك بعنان الجواد، وشد اطراف المعطف حوله من جديد، كما يفعل ذوو الشأن والمكانة، وشرع فى رحلته .. وأقبل ابنه الصغير «ميشكا» على الدرج مهرعا، وتوسل اليه ان يدعه يركب قليـلا ، كما ألحفت عليه ماري اللثغاء ان يسمح لها بأن يدعها « تلكب » — أى تركب — قائلة انهـا لا « تشعل ببلد (أى تشعر ببرد) ولو انها بدون جلد الغنم » . **فبادر «بوليكى» الى استيقـاف «الطبل» ، وابتسم ابتسامته الواهنة ، بينما كانت « اكولينا » ترفع الطفلين الى العربة . ومالت نحوه فتوسلت اليـه همسا ان يتذكر عهده ، فلا يتناول أى خمر فى رحلتـه** . وجاس « بوليكى » بالطفلين خلال القرية حتى حانوت الحداد ، ثم انزلهما ، ولف جسمه جيدا ، وسوى من وضع قلنسـوته ، وساق الجواد فى خبب رزين متزن ، وخداه يختلجان مع كل هزة ، وقدماه ترتطمان بجانبى العربة الخشبيين . واندفعت « مارى »و« ميشكا » حافيين ، يهبطان التل الزلق الى البيت ، وهما يصرخان عاليا، حتى ان كلبا مشردا من كلاب القرية تطلع اليهما ، ثم سابقهما الى البيت وذيله بين ساقيه،مما جعل خليفتى بوليكى يرفعان صراخهما قدر ما كان عشر مرات

* * *

وكان الجو لايطـاق ، فالريح لاذعـة ، تتأرجح بين المطـر والصقيع ، وبين آن وآخـر كان البرد يرتطم بوجه «بوليكى» وبيديه العاريتين اللتين كانتا ممسكتين بعنان الجواد — واللتين لم ينفك يجذب كمى معطفـه ليغطيهما — وبجلد نير الجواد ، وبرأس «الطبل» المكتهل ، الذى رد اذنيه الى الخلف، واغمض

عينيه نصف اغماضة !

ثم كف المطر فجـأة ، واشرق الكون فى لحظة . وانقشعت الغيوم الجليـدية ذات اللون الضـارب الى الزرقة ، وشرعت الشمس تشق طريقها لتبزغ ، ولـكن .. فى احجام ودون ما ابتهاج ، كابتسامة « بوليكى » ! .. ومع ذلك ، فان «بوليكى» كان مغرقا فى افكار بهيجة .. **فها هوذا ـ هو الذى كان مهددا بالنفى وبالتجنيـد ، والذى لم يكن يعنف به ويضربه سـوى أولئك الذين يشتد بهم الكسل ، والذى كان يزج به دائمـا فى أسوأ الاماكن ـ ها هو ذا ينطلق بالعربة ليحصل مبلغـا من المال ـ بل مبلغا كبيرا ـ وقد اءتمنتهمولاته .. هاهوذا ينطلق فى عربة وكيل الاعمال ، يجرها «الطبل» الذى كانت السيدة نفسها تستخدمه فى جـر عربتها** .. وكأنه مالك من أصحاب الارض، يسرج جواده بنير واعنة من المجلد بدلا من الحبال !.. واعتدل « بوليكى » فى جلسته ، ودس الحشو الذى تدلى من قلنسوته ، وعاد يحكم لف معطفه حول جسده !

على ان «بوليكى» اذا كان قد وهم انه بدا فى مظهر الفلاح المثرى صاحب الاملاك ، فانما كان يخدع نفسه ويغشها. فمن الحقيقى ـ كمـا يعرف كل امرىء ـ ان تجارا يمتلكون عشرة آلاف روبل ، يرحلون فى عربات تجـرها جيـاد ذات سروج جلدية ، الا ان هـذا لم يكن كل شيء .. ولقد يمر بك رجل ذو لحية ، وقد ارتدى معطفا أزرق أو اسود ، وجلس وحيدا فى عربة يجرها حصان جيـد التغذية ، فلا تلقى اليه نظرة الا لترى ما اذا كان الجواد ناعم البشرة، وما اذا كان الرجل جيد التغذية ، ولتتبين الطريقـة التى يجلس بها ، وسرج جواده ، واطارات عجلات عربته ، وعباءته ، فتعرف لفورك ما اذا كان الرجل يتجر حقا فى مئات الروبلات او فى آلاف ! .. وكان أى شخص مجرب يتاح له ان ينظر عن كثب الى «بوليكى» ويديه، ووجهه، ولحيته الحديثة المنبت ، وعباءته ، والتبن الذى وضع

فى العربة باهمال ، و «الطبل» النحيل، والاطارات الباليةحول العجلات .. **كان أى شخص ذو تجربة يرى ذلك ، خليقا بأن يدرك أنه ليس سوى عبد وليس تاجرا ، ولا وسيطا يتسوق صفقات الماشية ، بل ولا فلاحا يملك ارضا .. وانه لايتعامل بآلاف ولا بمئات ـ بل ولا بعشرات ـ الروبلات !**

ولكن «بوليكى» لم يكن يفكر على هذا النسق .. فقد آثر ان يغرر بنفسه ، وان يغـرر بها مختارا ، راضيا .. انه لن يلبث ان يعود حاملا ألفا وخمسمائة روبل فى صدر معطفه .. ولو شاء فان بوسعه ان يولى وجه «الطبل» صوب (اوديسا)، بدلا من ان يوجهه شطر قريته ، وان يسوقه الى حيث يشاء القدر والمصير . ولكن «بوليكى» لن يفعل شيئا من هذا القبيل، بل انه سيحمل النقود كلها الى السيدة، كما ينبغى، وسيحدثها بأنه حمل يوما مبالغ تفوق هذا المبلغ قيمة !

* * *

وعندما بلغا حانة ـ فى الطريق ـ شرع « الطبـل » يجذب العنـان الايسر ، موليـا صوب الفنـدق ، ثم وقف . وكانت مع «بوليكى» النقود التى اعطيت اليه كى يشترى بها ماسئل ان يشتريه ، ولكنه ـ رغم ذلك ـ ساط «الطبل» ، واضطره الى ان يواصل السير . وتكرر الامر ذاته عند الحانة التالية . حتى بلغا المدينة ـ حوالى الظهر ـ وقفا لدى حانة . وهبط «بوليكى» من العربة فى هذه المرة ، وفتح باب فناء دار صاحب الحانة ـ حيث اعتاد كل اتباع مولاته أن ينزلوا ـ وقاد الجواد والعربة الى الفناء . وهناك ، فك قيود «الطبل» ورفع عنـه النير ، وقدم له بعض التبن، ثم تناول غداءه مع اتباع صاحب الحانة ، دون أن يغفل ذكر المهمة الخطيرة التى أقبل من أجلها **... و ما لبث أن انطلق ليبحث عن التـاجر الذى كان يبتـاع منتجات بستان السيدة ، ومعه قائمة الحساب فى ثنايا مقدم**

قلنسوته !

وكان التاجر يعرف «بوليكى» ، وقد بدا بوضوح مرتابا فى أمره . فلما قرأ الخطاب ، راح يسـأله ليستوثق من انه كان أوفد فعـلا لتحصيل النقـود . وحاول « بوليكى » ان يبدى استياء ، وكأن الاسئلة قد جرحت شعوره ، ولكنه لم يستطع ان يجيد الاصطنـاع ، ولم يملك سـوى أن يبتسم ابتسامته المعهودة . وعاد التاجر يقرأ الخطاب من جـديد ، ثم أسلمه النقود .

وما ان تسلم «بوليكى» المبلغ ، حتى دسه فى صدر معطفه، وعاد الى الخان، فلم يستهوه المشرب ولا الحانة ولا أى شيء.. **كان يشعر بانفعال مستعذب يسرى فى كل كيانه ، وقد وقف اكثر من مرة أمام الحوانيت التى كانت تعرض سلعا مغرية ـ من أحذية ، ومعاطف ، وقلنسوات ، واقمشة ، ومواد غذائية ـ ثم كان يمضى فى سبيله ، وفى نفسه شعور ممتع ، وكأنه يقول لنفسه : « بوسعى أن ابتاع كل هـذا ، ولكن .. ولكنى ـ مع ذلك ـ لن أفعل »** ! وذهب الى السـوق لشراء الاشياء التى كلف بشرائهـا ، فحصل عليها جميعـا ، ثم شرع يساوم على معطف مبطن بفراء الغنم، سئل ان يدفع خمسة وعشرين روبلا ثمنـا له . ولامر ما ، لاح على البائع ـ بعد ان تأمل بوليكى ـ انه يرتاب فى مقدرته على شراء المعطف . بيد ان بوليكى أشار الى صدره ، قائلا ان بوسعه ان يشترى الحانوت كله ، لو أنه شاء . واصر على ان يرتدى المعطف للتجربة وراح يتحسسه، ويجس قماشه ، وينفخ الصوف ليباعد بين شعيراته ويتأمل النسيج ، حتى امتلأ برائحته .. ثم خلعه عنه وتنهد، وقال : « ان السعر لايلائمنى ، فهلا بعته بخمسـة عشر روبل ؟ » . فطوح البائع بالمعطف عبر نضد الحـانوت وهو مغيظ ، بينما خرج بوليكى مبتهجا ، وسار الى الخان الذى نزل فيه .

وبعد العشـاء روى «الطبل» وقدم له قدرا من الشوفان ،

ثم اعتلى المدفأة (١) ، وأخرج المظروف الذى ضم النقود ، ففحصه طويلا ، ثم سأل حمالا كان يعرف القراءة ، ان يقرأ عليه العنوان وما خط تحته ، فاذا به : **طيه الف وستمائة وسبعة عشر من الروبلات المحولة »** (٢) . وكان المظروف مصنوعا من الورق العادى ، ومختوما بشمع بنى صلب ـ نقش عليه رسم مرساة (هلب) ـ فى خمسة مواقع .. خاتم كبير فى الوسط ، وأربعة فى الاركان . كما كانت ثمة نقاط من الشمع بقرب الحافة . ولقد فحص «بوليكى» كل هذا وتأمله وطبعه فى ذاكرته .. بل انه تحسس حواف الاوراق المالية المرهفة ، التى كانت بداخله . وداخله شعور صبيانى بالسرور وهو يرى انه يمسك بين يديه بمبلغ ضخم كهذا . **ثم دس المظروف فى ثغرة بين ثنايا قلنسوته ، ورقد والقلنسوة تحت رأسه .. ولكنه لم يطمئن ـ مع ذلك ـ فظل يستيقظ خلال الليل ليتحسس المظروف** . وكان ـ فى كل مرة ـ يجده فى مكانه ، فيخالجه شعور مستعذب بالرضى .. فهاهوذا «بوليكى» الملطخ السمعة المستضعف ، المهين .. ها هوذا يحمل مبلغا كهذا ، ليسلمه الى مولاته بعناية دونها عناية اى امرىء آخر .. حتى وكيل اعمالها نفسه !

(٨) هياج فى الخان

• **استيقظ** خدم صاحب الخان و « بوليكى » ـ حوالى

---

(١) كانت البيوت الروسية مزودة بمدافىء مبنية بالطوب ، كبيرة الحجم ، على شكل الأفران المعروفة فى ريفنا .

(٢) الروبل المحول عملة ورقية تعادل سبعى الروبل الفضى فى القيمة . فكأن المبلغ كله ٤٦٢ روبل .. وهو ما ذكره ايجور لمولاته فى نهاية الفصل الأول



منتصف الليل ــ على طرقات على البـاب الخارجى ، وصياح صادر من فلاحين . واذا بفريق المجنـدين من (بوكروفسك) قـد وصل .. كان ثمة عشرة أفـراد تقريبا : خوريوشكين ، وميتيوكين ، وايليشا (ابن أخى دوتلوف) ، وبديلان رافقا القوم عسى أن تدعو الحاجة اليهما ، وشيخ القرية ، ودوتلوف الكهل ، والرجال الذين ساقوا العربات التى أقلتهم . وكان فى الحجرة ضوء ساهر ، وقد رقدت الطاهية على اريكة خشبية تحت الايقونات ، فقفزت ناهضة ، وبادرت الى اشعال شمعة .. كذلك استيقظ «بوليكى» ، واطل من اعلى المدفأة ، فنظر الى الفلاحين اثناء ولوجهم المكان .

ودخلوا وهم يرسـمون علامة الصليب على صـدورهم ، وجلسوا على المقـاعد الخشبية المرصوصـة بحذاء جـدران الحجرة . وكانوا جميعـا يلوحون فى أكمل هدوء وسكينـة ، حتى ليعجز المرء عن ان يحدس أيهم المجندون ، وأيهم الذين كانوا يرافقونهم . وأخـذوا يحيون أهل الخـان ، ويتحدثون بأصوات عالية ، ويطلبون طعاما .. وصحيح ان بعضهم كانوا سكوتا ، واجمـين ، محزونين ، الا ان بعضـا آخر كانوا على النقيض ، فى مرح غير عادى .. **كان من الجلى أنهم سكارى . وقد كان بين هؤلاء «ايليشا» ، الذى لم يسرف يوما فى الشراب من قبل**

وتساءل شيخ القرية : « وبعد يا أولاد .. هل ننام أو نتناول عشاء ؟ » . فقال «ايليشا» وهو يفتح صدر معطفه ، ويجلس على مقعد خشبى : « عشاء ! .. وأطلبوا لنا بعض الفودكا ! » . فقال شيخ القرية فى ايجاز : « كفاك فودكا ! » . والتفت الى الآخرين قائلا : « ليقتطع كل منكم لنفسه لقمة من الخبز يا اولاد !.. لماذا نوقظ القوم ؟ » . فعاد ايليشا يصيح، دون ان ينظر الى احد، وبصوت نم عن انه لن يسكت: « آتونى بفودكا ! »

واخذ الفلاحون بمشورة شيخ القرية ، فأحضروا خبزا من العربات التى اقلتهم، وطلبوا قليلا من الجعة ، ثم استلقوا .. بعضهم على الارض ، وبعضهم على المدفأة . وظل ايليشا يردد بين فترة واخرى : « دعونى أصب بعض الفودكا . اتسمعون؟ .. اريد بعض الفودكا ! » . ثم فطن الى «بوليكى» ، فصاح : **« بوليكى ! ها ، بوليكى ! .. أأنت هنا ايها الصديق العزيز ؟.. الا تعلم اننى ذاهب لاصير جندياً ؟ .. ودعت أمى وزوجتى.. لكم راحت تعول وتجهش بالبكاء ! .. لقد حزمونى حزما وارسلونى كالطرد لاصبح جنديا.. اطلب لى بعض الفودكا !»**. فأجابه بوليكى : « لست املك أية نقود ! » . وأخذ يواسيه ، ثم اردف : « من يدرى ؟ .. لعلك يرفضون تجنيدك بعون الله ! »

ــ لا يا صديقى ، فأنا متين البنيان كالشجرة الصلبة .. ابدا لم أصب بمرض . لا سبيل الى رفضى ! .. أى جندى يرجوه القيصر خيراً منى ؟

وأخذ بوليكى يروى له كيف ان فلاحا اعطى طبيبا ورقة مالية من ذات الروبلات الخمسة، ففاز بالاعفاء من الجندية.. واقترب «ايليشا» من المدفأة، وشرعا يتكلمان بمزيد من الحرية. فقال ايليشا : **« لا يابوليكى ، لقد انتهى الامر ! لم اعد أنا نفسى راغبا فى البقاء ، فقد استغنى عمى عنى ،وكأنه لايملك ان يدفع**

لبديل يحل محلى !... لا ، لقد ضن بابنه، وضن بالمال ، ومن ثم فقد ارسلونى . لا !.. أنا نفسى لا أريد المكث ! » . وكان يتكلم بصوت منخفض ـ تحت تأثير أساه الهادىء ـ وكأنه يبث الآخر سره .. واستطرد يقول : « انما آسى على شيء واحد .. آسى على امى ، تلك الحبيبة ! .. لشد ما كان حزنها ! والزوجة كذلك ! .. لقد قضوا على المرأتين بالخراب، لغير نفع ! .. لسوف تهلك امرأتى .. أو ـ بمعنى آخر ـ ستصبح زوجة جندى، وكفى ! .. كان خيرا لو اننى لم أتزوج! فلماذا زوجونى ؟ .. انهم آتون الى هنا غدا ! »

وتساءل بوليكى: « ولكن ، لماذا احضروكم بهذه العجلة ؟.. ان احدا لم يسمع بالامر كله، ثم اذا بهم فجأة .. » . فأجاب ايليشا مبتسما : « تصور انهم يخشون ان أحدث بنفسى اذى. لا داعى للخوف ، فلن أحدث بنفسى شيئا من هذا القبيل .. كل ما هنالك اننى آسف من اجل امى .. » . ثم اردف فى رفق وأسى : « ما الذى حملهم على ان يزوجونى ؟ »

وفتح الباب اذ ذاك ، ثم اغلق بصوت عال ، ودخل الشيخ دوتلوف وهو ينفض البلل عن قلنسوته ، وقد غيب قدميه فى حذاءين من لحاء الخشب مفرطى الكبر ـ كعادته ـ فكأنهما قاربان حول قدميه ! .. وقال لخادم الخان وهو يمر به : « أليس هناك مصباح يا أفاناسى ، لاحضر على ضوئه بعض الشوفان ؟ » . وشرع يشعل ـ فى بطء ـ بقية من شمعة ، دون ان ينظر الى ايليشا، وقد بدا قفازاه وسوطه مدسوسين تحت حزامه الذى شد باحكام وعناية حول معطفه . ولاح وجهه ـ الذى أضناه الجهد والنصب ـ مألوفا ، ساذجا ، وادعا ، مليئا بهموم العمل ، وكأنه وصل لتوه مصطحبا قافلة من العربات المحملة !

* * *

وصمت ايليشا عندما رأى عمه، وعاد يطرق، متأملا مقعده الخشبي فى وجوم . ثم تمتم مخاطبا شيخ القرية : « فودكا ، يا ارميل !.. اريد بعض الشراب ! » .. وبدا صوته محنقا ، ساخطا . فأجابه الشيخ الذى كان يأكل شيئا من وعاء أمامه: « شراب ، فى مثل هـذا الوقت ؟ الا ترى الآخرين قد اكتفوا بلقمة وناموا ؟.. لماذا تثير شغبا ؟ » . وتجلى ان كلمة « شغب » قد وسوست الى « ايليشا » بالعنف، فصاح: « لسوف أقدم على عمل غير طيب ، اذا أنت لم تعطنى فودكا ، ايهـا الشيخ ! » . فالتفت شيخ القرية نحـو دوتلوف الذى كان قـد وضـع الشمعة فى « فانوس » ، وهم بأن يخرج ثم توقف ليرى ما قد يحدث ... والذى كان يرمق ابن اخيه ـ من ركن عينه ـ فى رثاء ، وكأنما هو فى عجب لمسلكه الصبيانى .

وعاد ايليشا يغض بصره، وهو يتمتم: « فودكا ! .. اعطنى! .. اقدم على شر ! » . فقال شيخ القرية فى لين : « دعك من هذا يا ايليشا ! .. اجل ، دعك، وكفى ! .. ان هذا خير لك! » **.. وقبل ان يفرغ من كلماته، كان « ايليشا » قد وثب فضرب زجاج احـدى النوافذ بقبضته ، وهو يصـيح بأعلى صوته : « مادمت تأبى ان تسمع كلامى ، فهاك العـاقبة ! » . واندفع نحو النـافذة الاخرى ليكسر زجاجها** . وفى لمح البصر ، تقلب « بوليكى » مرتين ، واختبأ فى الركن القصى على قمة المدفأة .. وقد فعل ذلك بسرعة خاطفة، بثت الفزع فى جميع الصراصير التى كانت هناك . وألقى شيخ القرية بملعقته ، واندفع نحو « ايليشا » . ووضع دوتلوف فانوسـه ببطء ، وفك حزامه ، وهز رأسه ، وهو يصك لسـانه بسقف فمه محدثا صوتا ينم عن الاستنكار ، وسار الى « ايليشا » الذى كان قـد انهمك فى نضال ضد شيخ القرية واحـد اتباع صاحب الخـان ، وهما يردانه عن النافذة .

وكانا قد أمسكا بذراعيه ، ولاح أنهما قد سمراه فى مكانه .

ولكنه لم يكد يرى عمه والحزام فى يده ، حتى تضاعفت قواه عشر مرات ، وانتزع نفسه منهما ، وتقدم من دوتلوف وعيناه تكادان تقفزان من محجريهما ، وقبضتاه مشدودتان ، وصاح : **« لسوف أقتلك ! .. ابتعد ، أيها الحيوان ! .. لقد قضيت على ، أنت وابناك الزنيمان ! لقد قضيتم على بالخراب ! .. لماذا حملونى على الزواج ! .. ابتعد ! لسوف أقتلك ! .. »** .

وكان ايليشا رهيبا فى هياجه ، فقد احتقن لون وجهه ، وراح انسانا عينيه يدوران فى محجريهما ، وأخذ جسده الشاب السليم يرتجف بأجمعه كالمحموم . وبدا كأنما كان يبغى أن يقتل الرجال الثلاثة الذين وقفوا فى وجهه ، وكان قادرا على قتلهم !

— انك تشرب دم أخيك ، يا مصاص الدماء !

وأومض بريق خاطف خلال وجه دوتلوف الدائم الرزانة ، وتقدم خطوة ، ثم قال فجأة : « انك تأبى أن تسكن فى سلام ! » .

وكان أعجب ما فى الامر هو : من أين جاء بتلك الطاقة ؟ .. **فقد أمسك بابن أخيه بحركة سريعة ، وألقى به على الارض ، وارتمى معه ، وأحكم وثاق يديه بحزامه ، بمعونة شيخ القرية ! وظلا يتصارعان زهاء خمس دقائق ، ثم نهض دوتلوف أخيرا — بمساعدة الفلاحين — وهو يجذب معطفه من قبضة « ايليشا »** .

وما لبث أن أنهض « ايليشا » الذى أصبحت يداه مكتوفتين خلف ظهره ، واضطره الى أن يجلس على مقعد خشبى فى الركن .

وقال وهو لا يزال متهدج الانفاس — من جراء الصراع — وقد راح ينتزع من حول قميصه حزاما غير عريض : « لقد قلت لك أنك ستسىء الى نفسك ! .. لماذا تأثم ؟ ان الموت مكتوب علينا جميعا ! » . ثم التفت الى اتباع صاحب الخان ، وقال : « اطووا معطفا ليتوسده ، والا فسوف يتصاعد الدم الى رأسه » . وراح يربط الحزام الضيق حول معطفه المصنوع من جلد الغنم ، ثم تناول الفانوس ، وخرج ليعنى بالجياد .

وراح ايليشا — وهو شاحب الوجه ، مشعث الشعر ، وقد

تهدل قميصه ـ يطوف ببصره فى الحجرة ، وكأنه يحاول أن يتذكر أين هو .. بينما انهمك اتباع صاحب الخان فى جمع شظايا الزجاج المهشم ، ثم دسوا فى الثغرة ـ التى خلفها فى النافذة ـ معطفا ، ليحولوا دون انسياب تيار الهواء القارس .

وعاد شيخ القرية يجلس الى وعائه ، وهو يردد : « آه ، يا ايليشا ! يا ايليشا ! .. لكم أنا آسف من أجلك حقا ! .. أية حيلة لنا فى الامر ؟ .. هاك خوريوشكين .. انه الآخر متزوج ! .. من الواضح أن لا حيلة لنا فى الامر ! »

وعاد ايليشا يقول بصوت خشن ، ولهجة مشبعة بالسخط : « انما قضى على بالدمار ، من أجل ذلك الشرير عمى ، فحسب ! .. لقد كان كل حرصه منصبا على ابنه .. لقد قالت أمى أن وكيل الاعمال دعاه الى أن يدفع من أجل بديل عنى ، فأبى ، وقال انه لا يملك ما يدفع .. كأنما لا قيمة لكل ماجلبته وأخى على أسرته من خير ! .. انه شرير ! »

* * *

ورجع دوتلوف الى الحجرة ، فأدى الصلاة أمام الايقونات ، وخلع ثيابه الخارجية عنه ، وجلس بجوار شيخ القرية ، فأحضرت الطاهية بعض الجعة ، وملعقة أخرى . وران السكون على ايليشا ، ورقد على المعطف المطوى ، وأغمض عينيه . فأشار شيخ القرية نحوه ، وأخذ يهز رأسه فى صمت . بينما لوح دوتلوف بيده قائلا : **« كأنما المرء غير آسف من أجله ! .. انه ابن أخى ، من صلبى ودمى ! .. وكأنما الامور ليست بالغة السوء ، كما هو جلى ، فراق لهم أن يصوروني له وغدا شريرا ! .. ولعلها زوجته التى بثت فى رأسه أن بوسعنا أن ندفع من أجل بديل عنه ، فهى امرأة ضئيلة الجسم ، خبيثة ، رغم صغر سنها .. ومهما يكن ، فانه ينحو باللائمة على ! .. ولكن المرء يرثى للفتى ! .. »** . فعقب شيخ القرية قائلا : « آه ! ..

ويا له من فتى بديع ! »

— ولكن صبرى بلغ مداه معه ! .. على اننى سأمد له ! .. فغدا سيأتى « اجنات » ، وقد رغبت زوجة الفتى فى أن تأتى معه هى الاخرى .

فقال شيخ القرية وهو يبارح مكانه ، ويصعد الى سطح المدفأة : « أحسنت صنعا . دعهما يأتيان ! .. الا ما أتفه المال ، انه عرض زائل ! » . فغمغم أحد أتباع صاحب الخان ، وهو يرفع رأسه : « لو كان لدى المرء مال لما ضن به .. منذا الذى يضن بالمال ؟ » . فرد عليه دوتلوف قائلا : **« آه ! المال ، المال !.. أنه سبب الخطايا ! لا شىء فى الدنيا يسبب من الآثام أكثر مما يسبب هو .. وقد قال الكتاب المقدس ذلك ! »** .

فقال العامل يقره على قوله : « كل شىء مثبت فى الكتاب المقدس . لقد روى لى رجل كيف أن تاجرا اختزن كوما من المال ، ولم يشأ أن يخلف وراءه شيئا منه ، فقد بلغ من حبه للمال ، أن أراد أن يأخذه معه الى قبره . وعندما كان يحتضر ، طلب أن تدفن معه وسادة صغيرة . فلم يرتب أحد فى الامر ، ودفنوها معه . ثم راح أبناؤه يبحثون عن ماله ، فلم يستطيعوا أن يعثروا على شىء منه . وأخيرا ، خطر لواحد منهم أن من المحتمل أن المال كان أوراق نقد وضعت كلها فى الوسادة . وعرض الامر على القيصر ، فسمح بأن يفتح القبر . فماذا تظن أنه حدث ؟ .. لقد فتحوا التابوت ، وشقوا الوسادة فلم يجدوا فيها شيئا . ولكن التابوت كان مليئا بثعابين صغيرة ، ومن ثم فقد دفن ثانية .. أرأيت ما يفعل المال ؟ »

وقال دوتلوف وهو ينهض قائما : « هذه حقيقة واقعة ، فالمال يجلب كثيرا من الاثم ! » . وشرع يصلى . حتى اذا فرغ ، ألقى نظرة على ابن أخيه ، فاذا الشاب نائم .. وسار اليه دوتلوف ففك الحزام الذى كان يوثق يديه ، ثم رقد هو الآخر . وخرج فلاح من الحجرة ، لينام مع الخيل !



(٩) مفاجأة فى نهاية الطريق !

• **ما أن** سيطر السكون على كل شيء ، حتى هبط بوليكى عن المدفأة متسللا فى رفق، وكأنه مجرم ، وشرع يتأهب للرحيل. فقد شعر ــ لسبب ما ــ بعدم ارتياح لمجرد التفكير فى قضاء الليل فى الخان ، مع المجندين . وكانت الديكة قد بدأت تكثر من التصايح ، ينادى بعضها بعضا . كما كان « الطبل » قد أتى على كل الشوفان الذى قدم اليه ، وشرع يمد عنقه الى دلو الماء . فأسرجه بوليكى ، وقاده ــ خلال عربات الفلاحين ــ الى الخارج .. وكانت قلنسوته سليمة بمحتوياتها ، فسرعان ما راحت عجلات العربة تدرج على الارض المكسوة بالصقيع ، ميممة شطر (بوكروفسكى) .

ولم يشعر بوليكى بطمأنينته الا حين خلف المدينة وراءه . فقد ظل ــ حتى بارحها ــ يتصور أنه لن يلبث أن يسمع أصواتا تنم عن أنهم يطاردونه فى أية لحظة ، وانهم لن يلبثوا أن يستوقفوه ، وأن يوثقوا كتافه ــ بدلا من ايليشا ــ ثم يأخذوه الى مركز التجنيد فى صباح اليوم التالى .. وكان ثمة شيء ــ لعله الصقيع ، أو لربما كان الخوف ــ يرسل قشعريرات باردة تسرى فى ظهره ، فراح يلهب « الطبل » مرة بعد أخرى ، يستحثه على الاسراع .. وكان أول من صادفه قسا ارتدى

قلنسوة طويلة من الفراء ، يصحبه عامل أعور . فتشاءم « بوليكى » من هذا الاخير ، واشتد جزعه ، فازداد انطلاقا ، ولكنه عاد يطامن من خوفه تدريجا ، عندما بارح المدينة ، حتى تبدد الخوف أخيرا .. وخفف « الطبل » من ركضه ، وقد ازدادت الطريق وضوحا أمامه .. وخلع « بوليكى » قلنسوته، فتحسس الاوراق المالية ، وقال لنفسه : « هل أخبئها فى صدرى ؟ .. لا ، فقد اضطر الى أن أفك حزامى .. مهلا ! فلأهبط عندما أبلغ أسفل التل ، وأسوى من حالى .. **ان القرص الاعلى قد حيك بعناية واحكام ، ومن ثم فلا سبيل الى أن ينزلق المظروف خلال طبقات النسيج .. وخير لى – على أية حال – أن لا أخلع القلنسوة حتى أبلغ البيت ! »**

ولما بلغ أسفل التل ، واستقبل امامه التل الذى يليه ، ركض « الطبل » من تلقاء نفسه صاعدا اياه ، فلم يحاول « بوليكى » أن يكبح جماحه ، اذ كان مشوقا مثله الى العودة الى الدار .. وكان كل شىء على ما يرتجى ، أو هكذا تصور « بوليكى » – على الاقل – فأسلم نفسه للأحلام ، متخيلا ما سوف تبديه السيدة من عرفان ، متصورا الروبلات الخمسة التى ستمنحه اياها ، والفرح الذى سيطغى على أسرته ! .. وخلع القلنسوة ، فتحسس المظروف وابتسم ، ثم ردها الى رأسه وأحكم وضعها . وكانت المقدمة المخملية للقلنسوة بالية، ونظرا لان « أكولينا » كانت قد رتقت فتوقها رتقا محكما فى أحد جوانبها ، فانها لم تلبث أن تفسخت من جانب آخر .. **واذا الحركة التى ظن « بوليكى » فى وهن الفجر الوليد أنها دفعت المظروف الى جوف طبقات القلنسوة ، تزيد من تمزق الجانب المتفسخ ، وتدفع ركنا من المظروف الى الخارج ، خلال المقدمة المخملية .**

وبدأ الفجر يسفر النقاب ، فشرع النعاس يداعب أجفان « بوليكى » الذى لم يكن قد نام فى ليلته .. وفى نعاسه شد

القلنسوة لتزداد التصاقا برأسه ـ فازداد بذلك بروز المظروف الى الخارج ـ وارتطم رأسه بمقدم المركبة . واستسلم للنعاس ، فلم يستيقظ الا وقد اقترب من القرية . وهم بأن يفحص قلنسوته ، ولكنه أحس بأنها محكمة الوضع فوق رأسه ، فلم ير داعيا لرفعها ، مطمئنا الى أن المظروف بداخلها . ومس « الطبل » بسوطه ، ونسق القش الذى كان يكسو أرض العربة ، وعاد يتخذ مظهر الفلاح الموسر ، ويتلفت حوله فى خيلاء ، والعربة تدرج نحو القرية !

وتراءى له مطبخ الدار ، و « الاركان » التى يسكنها الرقيق .. ولاحت له زوجة النجار وهى تحمل الغسيل ، ثم تبين مكتب ادارة الضيعة ، ومسكن السيدة .. **المسكن الذى لن يلبث أن يبرهن فيه على أنه رجل أمين ، أهل للثقة .. لسوف يقول للسيدة : « بوسع كل امرىء أن يتقول على أى شخص كما يحلو له ! » .. وسترد السيدة قائلة : « لابأس يا بوليكى ! .. هاك ثلاثة (أو ربما خمسة ، بل عشرة) روبلات ! » . وستأمر بتقديم الشاى اليه ، بل ربما أمرت بتقديم بعض الفودكا !** .. ولن يكون هذا بالامر المستغرب ، بعد الوقت الذى قضاه فى البرد ! .. ومضى بوليكى يحدث نفسه : « بعشرة روبلات نستطيع أن ننعم غدا بعيد طيب ، وأن نبتاع أحذية ، ونرد الى نيكيتا روبلاته الاربعة والنصف .. اذ لا حيلة فى ذلك ، فهو قد بدأ يضايقنا بالمطالبة ... »

وعندما أصبح على حوالى مائة خطوة من الدار ، أحكم لف معطفه حول جسمه ، وسوى من وضع حزامه وياقته ، وخلع قلنسوته فسوى شعره ، ودس يده تحت بطانة القلنسوة ، غير متعجل .. وأخذت اليد تعبث وتبحث داخل البطانة ، واشتدت سرعة أصابعها .. ثم انضمت اليها اليد الاخرى ، بينما أخذ وجه « بوليكى » يزداد شحوبا فوق شحوب . ودخلت احدى اليدين فى جوف القلنسوة بأكملها . ثم هوى

« بوليكى » على ركبتيه ، واستوقف الجواد ، وراح يبحث فى العربة ، منقبا بين القش ، وبين الاشياء التى كان قد ابتاعها .. متحسسا معطفه وسرواله .

ولكن .. لم يكن ثمة أثر للنقود !

وشرع يزأر ، وهو يشد شعره : « يا للسماوات ! ما معنى هذا ؟ .. ما الذى سيحدث الآن ؟ » .. ثم فطن الى أنه قد يشاهد ، فحول وجه الجواد نحو الطريق الذى أتى خلاله ، وأحكم قلنسوته على رأسه ، ثم ساق « الطبل » عائدا من حيث أتى ، والجواد مشدوه مستنكر ، ولا بد أنه كان يقول لنفسه : « ليس بوسعى أن أخرج ثانية مع بوليكى .. لقد عنى باطعامى وسقايتى أتم عناية ، لمرة واحدة فى حياته ، ثم لم أحظ منه بغير الخداع الذى لا يسر النفس !.. لكم أجهدت نفسى فى الجرى أثناء العودة ، حتى اشتد بى التعب ! .. ومع ذلك ، فاننى لم أكد أصبح على قيد خطوات من العلف ، حتى شرع يسوقنى راجعا بى ! »

أما بوليكى ، فقد راح يصيح فيه ، خلال الدموع : « هيا أيها الحصان المنهوك القوى ! » . ووقف منتصبا فى العربة ، يشد عنان « الطبل » فى عنف ، وينهال عليه ضربا بالسوط !

(١٠) بوليكى ! .. أين بوليكى ؟

• **لم** ير أحد « بوليكى » فى (بوكروفسك) طيلة ذلك اليوم . وقد سألت السيدة عنه مرارا بعد الغداء ، واندفعت « اكسيوتكا » كالاعصار الى « اكولينا » ، ولكن « اكولينا » قالت انه لم يعد بعد ، لعل التاجر الذى كان يبتاع خضر البستان قد عطله عن العودة ، أو لعل شيئا قد جرى للحصان .. واردفت قائلة : « ليته لم يصب بالعرج ! .. لقد قضى « مكسيم » يوما بأكمله فى الطريق ــ عندما ذهب به فى المرة



السالفة — واضطر الى أن يقطع المسافة كلها على قدميه ، فى العودة ! »

وولتها « اكسيوتكا » ظهرها ، وعادت وهى تحرك بندوليها ، بينما أخذت « اكولينا » فى ابتكار الاعذار التى تبرر غياب زوجها ، لتطامن من هواجس نفسها . ولكن ، دون جدوى ! .. كان قلبها مثقلا ، ولم تقو على أن تعمل بنفس راضية فيما كانت تتخذه من استعدادات للعيد الذى كان مرتقبا فى اليوم التالى . **وضاعف من ألمها أن زوجة النجار راحت تؤكد لها أنها رأت بعينيها « رجلا يشبه بوليكى تماما ، مقبلا فى عربة ، ثم ولى راجعا »** .. كذلك راح الاطفال يرتقبون « بابا » فى لهفة وصبر نافذ ، وان اختلف حافزهم عن الحافز الذى كان يثير قلق أمهم . فان غيابه حرم « آنى » و « مارى » من جلد الغنم ومن السترة الثقيلة ، وهما اللذان كانا يمكنانهما من أن يقوما بجولات خارج البيت ، فلم تعودا تملكان سوى أن تجريا فى دورات سريعة قصيرة ، حول البيت . ولم تكن المضايقات — التى ترتبت على ذلك — قليلة ، بالنسبة لجميع من كانوا يقطنون مساكن الرقيق . ولقد ارتطمت « مارى » مرة — وهى تجرى — بساقى زوجة النجار التى كانت تحمل ماء بين يديها .. ومع أنها بدأت تعول مستبقة العقاب — بمجرد أن اصطدمت بركبتى المرأة — الا أن هذا لم يعفها من الضرب

وجذب الشعر ، مما جعلها تزداد صراخا .. أما اذا لم ترتطم بأحد ، فانها كانت تندفع من الخارج مارقة خلال الباب ، وتبادر الى اعتلاء وعاء لترقى الى قمة الفرن !

ولم يكن ثمة من راح يعانى القلق حقا ـ من أجل بوليكى ـ سوى السيدة و « أكولينا » .. أما الاطفال ، فلم يكن يشغلهم سوى ما كان عليه من ثياب !

ولم تكن السيدة تكف عن سؤال ايجور ميخايلوفيتش : « ألم يحضر بوليكى بعد ؟ » .. أو : « ترى أين يحتمل أن يكون ؟ » . فكان يجيبها وكأنه مغتبط لان ماتوقعه قد تحقق : « لست أدرى » .. ثم كان يضيف فى لهجة ذات معنى : « كان الواجب أن يكون هنا حوالى الظهر ! »

* * *

لم يسمع أحد شيئا عن « بوليكى » طيلة اليوم ، اللهم الا ما عرف ـ فى أواخر النهار ـ من أن بعض فلاحى المناطق المجاورة ، قد رأوه يجرى فى الطريق عارى الرأس ، يسأل كل من كان يصادفه عما إذا كان قد عثر على خطاب ما . **ورآه رجل راقدا على حافة الطريق بجوار عربة ربط جوادها الى شجرة . وقال الرجل : « لقد حسبته سكرانا . وكان الجواد يبدو وكأنه لم يذق الماء ولا الطعام منذ يومين ، اذ كان جنباه متهدلين ! »**

ولم تنم « أكولينا » الليل طوله ، بل ظلت ساهرة ، مرهفة السمع . ولكن « بوليكى » لم يعد . ولو أنها كانت بمفردها ، أو لو أنها أوتيت طاهية أو خادمة ، لشعرت بمزيد من التعاسة ، ولكن أولادها كانوا يلهونها أحيانا عن هواجسها . وما ان صاحت الديكة ، واستيقظت زوجة النجار ، حتى اضطرت « اكولينا » الى النهوض ، والى اشعال النار ، فقد كان اليوم عيدا .. وكان لا بد من انضاج الخبز واخراجه من الفرن

قبل أن يطلع النهار ، وكان لا بد من اعداد الجعة ، ومن خبز الفطائر ، ومن حلب البقرة ، ومن كى الثياب والاقمشة ، ومن تنظيف الاطفال ، ومن اجتلاب الماء الى «الركن» ، ومن الحيلولة دون أن تنفرد جارتها بالفرن كله .. ومن ثم شرعت «أكولينا» فى العمل ، وهى لا تزال ترهف سمعها . ولكن النهار ازداد ضياء ، وأخذت أجراس الكنيسة تدق ، واستيقظ الاطفال .. ولم يعد بوليكى بعد !

وكانت بوادر الصقيع قد اكتنفت اليوم السابق ، وتساقط بعض الجليد وتراكم فى أكوام صغيرة فى الحقول ، وعلى الطريق وأسقف الدور . ولكن الجو كان بديعا ومشمسا ، رغم الصقيع ، فى ذلك اليوم . وكأنما كانت الطبيعة تمجد العيد .. وفى هذا الجو الصحو ، كان بوسع المرء أن يمد بصره فيرى على مسافة بعيدة ، ويسمع الاصوات عن بعد . **ولكن «أكولينا» – التى كانت تقف بجوار الفرن – راحت تدفع رأسها خلال الباب ، وهى منهمكة فى اعداد الفطائر .. ومع ذلك فانها لم تسمع بوليكى – وهو يصل بالعربة – وانما عرفت من صيحات الاطفال أن زوجها قد عاد**

كانت « آنى » قد ضمخت شعرها بالزيت ، وتهيأت دون معونة أحد ، بوصفها الابنة الكبرى . وكانت ترتدى ثوبا من قماش منقوش ، جديدا ولكن المكواة لم تسر عليه .. منحة من السيدة . وكان مشدودا وكأنه مصنوع من ألياف الشجر . مما غبطها عليه الجيران . وأخذ شعر الصبية يلمع ، اذ كانت قد أذابت لتضميخه نصف بوصة من شحم الشموع . بينما غابت قدماها فى حذاءين رفيعين ، وان لم يكونا جديدين .. أما « مارى » فكانت لا تزال ملتفة فى سترة قديمة ، وقد تلطخت بالوحل ، فلم تدعها « آنى » تدنو منها خشية أن يتسخ ثوبها . ومن ثم فقد مكثت « مارى » خارج الركن ، فرأت أباها وهو يقبل فى العربة ، ومعه كيس كبير . وصرخت :

« بابا جاء ! » ، واندفعت خلال الباب الى الخارج ، مارة بآنى — التى خفت لترى ما جعل أختها تصرخ — ملطخة لها ثوبها . ولم تعد « آنى » تحفل بالحيطة ، بعد أن اتسخ الثوب ، فانقضت عليها وضربتها . ولم يكن بوسع « أكولينا » أن تبرح مكانها ، فلم تملك سوى أن صاحت فى البنتين : « وبعد ؟ .. لسوف أسوطكما معا ! » . **والتفتت نحو الباب، فاذا بوليكى يدخل من الباب الخارجى ، حاملا كيسا ، فيسير الى «ركنه» مباشرة . ولاح لاكولينا أنه كان شاحبا ، وبدا لها من وجهه انه اما كان يبتسم ، واما كان يبكى .. ولكنها لم تجد وقتا كى تكتشف أى الحالين كانت حاله .**

وصاحت تسأله ، وهى فى مكانها أمام الفرن : « أكل شىء على ما يرام يا بوليكى ؟ » . فغمغم بوليكى بكلمات لم تستبنها .. وعادت تصيح : « اه ؟ .. هل ذهبت الى السيدة ؟ » . وجلس بوليكى على السرير فى ركنه ، يتأمل ما حوله بنظرات طائشة ، وهو يبتسم ابتسامة تنم عن الذنب .. ابتسامة تعسة ، مفرطةالتعاسة . وتناهى اليه صوتأكولينا ، تتساءل : « ماذا يا بوليكى ؟ .. لماذا أطلت الغياب ؟ » . فقال فجأة : « أجل يا أكولينا ، لقد أسلمت السيدة نقودها .. وكم شكرتنى ! » . وشرع يتلفت حوله ، وقد ازداد ما شاب ابتسامته من قلق وارتباك .

شيئان اجتذبا نظراته المحمومة : الطفل الرضيع ، والحبال التى كانت مدلاة من المهد المعلق . ونهض فسار الى حيثكان المهد معلقا ، وشرع يفك بعجلة عقدة حبل منها ، بأصابعه النحيلة . ثم استقرت عيناه على الرضيع . ولكن « أكولينا » دخلت فى تلك اللحظة ، حاملة صحفة الفطائر ، فأسرع بوليكى الى اخفاء الحبل فى صدره ، وجلس على السرير .

وتساءلت أكولينا : « ماذا بك يا بوليكى ؟ .. انك لست فى حالك الطبيعية ؟ » . فأجابها : « لم أنم ! » . وفجأة ، مرق

شيء بجوار النافذة . وان هي الا لحظة حتى اندفعت «اكسيوتكا» — الخادم التي من « فوق » — كالسهم . وقالت : « السيدة تأمر بوليكي بأن يأتي في هذه اللحظة .. هذه اللحظة .. افدوشيا نيكولابيفنا تقول : هذه اللحظة ! » . فنظر بوليكي الى « أكولينا » ، ثم الى الفتاة ، وقال : « ها أنذا قادم . ترى ما الذي تريد ؟ » . قالها ببساطة ، فهدأت وساوس أكولينا . ثم استطرد : « لعلها تريد أن تكافئني .. قولي لها انني قادم ! »

ونهض فخرج . وتناولت « أكولينا » وعاء الاستحمام فوضعته على مقعد خشبي ، وملأته بالماء من الدلاء التي كانت الى جوار الباب ، ومن المرجل الذي كان في الفرن ، ثم شمرت عن ساعديها ، ولمست الماء لتتعرف مدى حرارته . وقالت : « تعالي يا ماري ، سأغسل لك جسمك ! » . فشرعت البنية الصغيرة — الحولاء اللثغاء — في الانتحاب . وصاحت أكولينا : « تعالي أيتها الشريرة ! سأغسل لك جسمك ، فلا تثيري ضجة ولا ضوضاء .. هيا ، فلا يزال أمامي أن أنظف أخاك ! »

* * *

في تلك الاثناء ، لم يكن « بوليكي » قد تبع الخادم الموفدة من « فوق » ، وانما سعى الى مكان آخر .. فالى جانب الجدار — في الردهة — كان ثمة سلم يفضي الى الفراغ الذي تحت السقف مباشرة . **فلما بارح « بوليكي » مسكنه ، تلفت حوله ، حتى اذا لم ير أحدا ، أحنى ظهره ، وتسلق ذلك السلم بعجلة ، وخفة ، فكأنه كان يجري فوقه .**

وتساءلت السيدة في صبر نافذ ، موجهة الخطاب الى « دنياشا » التي كانت ترجل لها شعرها وتنسقه : « ترى ما الذي جعل بوليكي لا يأتي حتى الآن ؟ .. أين بوليكي ؟ لماذا لم يأت ؟ » .. ومرة أخرى ، انسابت « اكسيوتكا » الى مساكن الرقيق ، واندفعت داخلة ، وهي تنادي بوليكي كي يوافي

مولاتها . فردت أكولينا التى كانت قد فرغت من « مارى » ، ووضعت ابنها الرضيع لتوها فى حوض الغسيل ، وبدأت تبلل شعره الخفيف القصير ، غير حافلة ببكائه : « عجبا .. لقد ذهب منذ فترة طويلة » . وصرخ الطفل ، وتقلصت عضلات وجهه ، وراح يحاول أن يتشبث بشىء ما ، بيديه الصغيرتين الواهنتين . فوضعت أكولينا احدى يديها تحت ظهره الناعم ، البض ، الطرى ، وراحت بالاخرى تغسل جسمه ، وهى تقول متلفتة فى قلق : « ابحثى عنه خشية أن يكون قد استسلم النوم فى مكان ما ! »

وفى تلك اللحظة ، كانت زوجة النجار قد صعدت ـ مشعثة الشعر ، دون أن تحكم ضم أطراف ازارها ، الذى رفعت ذيله عن الارض بيدها ــ الى الفراغ الذى يلى السقف مباشرة ، حيث كانت قد علقت بعض الثياب لتجف . **وفجأة ، ملأت ذلك الفراغ صرخة ذعر ، وهبطت زوجة النجار كالمخبولة ، وقد أغمضت عينيها ، وكادت لفرط اسراعها تنزلق على السلم انزلاقا .. وصرخت : « بوليكى ! » .. وأفلتت أكولينا طفلها من بين يديها ، بينما راحت زوجة النجار تصرخ : « لقد شنق نفسه ! »**

واندفعت أكولينا الى الردهة ، غير حافلة بالرضيع الذى تقلب فى الحوض ، ثم وقع وساقاه فى الهواء ، ورأسه تحت الماء ! .. وكانت زوجة النجار تقول : « انه مدلى .. من احدى العارضات الخشبية ! » . ولكنها أمسكت حين رأت « أكولينا » .

واندفعت « أكولينا » صاعدة السلم . وقبل أن يمسك بها أحد ، كانت قد بلغت قمته . ولكنها سرعان ما هوت من هناك ، وقد أرسلت صرخة رهيبة ، ولولا أن تلقفها القوم الذين أقبلوا مهرعين من كل ركن ، لكانت قد لقيت حتفها !



(١١) ضحكات فى ((ركن)) بوليكى !

• **لم** يكن من سبيل الى تمييز شىء خلال الضجيج العام ، لعدة دقائق . فقد تجمع حشد من القوم راحوا يصرخون ويتكلمون ، وأخذ الاطفال والعجائز يبكون . بينما كانت أكولينا مستلقية فاقدة الرشد . وأخيرا ، صعد رجلان — النجار ووكيل الاعمال ، الذى كان قدهرع الى المكان — درجات السلم . وشرعت زوجة النجار تروى — للمرة العشرين — كيف أنها لم تكن ترتاب فى شىء ، اذ صعدت لتحضر ثوبا لها .. ((ونظرت حولى هكذا .. ورأيت .. رجلا ! ونظرت مرة أخرى .. كانت ساقاه متدليتين . وتثلج كل جسمى ! .. أفهو أمر بديع ؟ تصوروا رجلا شنق نفسه ، وتصوروا أن أكون أنا التى قدر لها أن تراه ! .. أما كيف هبطت مسرعة ، فهذا ما لست أذكره ! .. انها لمعجزة أن صان الله حياتى ! الحق أن الرب كان رحيما بى ! .. أهو أمر هين ؟ أن أقفز من مكان على مثل هذا الارتفاع . كنت خليقة بأن أهوى قتيلة !))

وأقبل الرجلان اللذان صعدا السلم ، بعين القصة .. **كان بوليكى مدلى من احدى العارضات ، بالحبل الذى أخذه من المهد ، وهو فى قميصه وسرواله . وكانت قلنسوته مقلوبة ، باطنها الى الخارج ، وملقاة بجواره .. بينما كان معطفه وجلد**

الغنم مطوبين فى تناسق وعناية ، على مقربة . وكانت قدماه تمسان الارض ، ولكن أى أثر للحياة لم يكن يبدو عليه .
واستردت أكولينا وعيها ، فعادت تندفع نحو السلم ، ولكنها صدت عنه . وفجأة ، صاحت الصبية اللثغاء من « الركن » : « ماما .. لقد غلق (أى غرق) سيمكا ! » . وانتزعت أكولينا نفسها من أيدى الممسكين بها ، وجرت الى « الركن » .. كان الطفل ملقى على ظهره فى الحوض ، لا يحير حراكا ، وقد جمد ساقاه عن كل حركة . فانتزعته أكولينا من الحوض ، ولكنه لم يتنفس ، ولم يتحرك .. **وألقته على السرير ، وانطلقت ـ وهى معقودة الذراعين على صدرها ـ بضحك مرتفع ، ثاقب ، رهيب .. حتى أن « مارى » ـ التى ضحكت هى الاخرى ، فى بادىء الامر ـ غطت أذنيها بكفيها ، وهرعت خارجة الى الردهة ، وهى تصرخ باكية !**

وتقاطر الجيران على « الركن » معولين باكين ، فحملوا الطفل الى الخارج ، وبدأوا يدلكون جسمه ، ولكن .. دون جدوى . وكانت « أكولينا » تتقلب على الفراش وهى تضحك .. تضحك بشكل بث الذعر فى نفوس كل من سمعوها ! .. وما كان المرء ليتبين عدد المقيمين فى مساكن العبيد ، ولا أى نوع من الناس هم ، الا فى مثل هذه الآونة ، وقد تزاحم الرجال والنساء .. كانوا جميعا فى هرج ، يتكلمون فى وقت واحد ، وكثير منهم راحوا يبكون ، ولكن أحدا لم يقم بعمل يناسب الموقف .. وكانت زوجة النجار لا تزال تجد أناسا لم يسمعوا قصتها عن الصدمة التى أصابت مشاعرها الرقيقة ، عندما وقع بصرها على المشهد غير المرتقب ، وكيف حفظها الله فلم تقع من قمة السلم .. وراح كهل ألقى على كتفيه سترة امرأة ـ وقد كان يوما خادما خاصا للسيد ـ يروى كيف أن امرأة أغرقت نفسها فى بركة ماء ، ذات يوم ، فى عهد السيد السابق .. وأوفد وكيل الاعمال رسلا الى القس والى « كونستابل »

البوليس ، كما أقام رجالا على حراسة الجثة .. وظلت ((أكسيوتكا)) ــ الخادم التى من ((فوق)) ــ تحملق فى الفتحة المفضية الى الفراغ الذى يلى السقف ، بعينين جامدتين ، دون أن ترى شيئا ، ودون أن تقوى ــ كذلك ــ على أن تنتزع نفسها من موقفها ، وتعود الى مولاتها .. وكانت ((أجاثا ميخايلوفنا)) ــ التى كانت وصيفة لصاحبة الضيعة السابقة ــ تبكى وتطلب بعض الشاى لتهدىء أعصابها ! .. أما ((آنا)) القابلة (الداية) فكانت ترقد جثة الطفل الصغير على المائدة ، وقد نضحت يديها البضتين ، المدربتين ، بزيت الزيتون . بينما وقفت نسوة أخريات حول ((أكولينا)) يحملقن فيها صامتات !

وانكمشت البنات الصغيرات معا فى الركن ، ورحن يسترقن النظر الى أمهن ، ثم انطلقن فى العويل . وما لبثن أن هدأن لحظة ، ونظرن الى أمهن ، ثم ازددن انكماشا وتماسكا .. وانتشر الرجال والغلمان خارج المبنى ، وهم ينظرون الى الباب والنوافذ ، وقد تجلى الذعر على أساريرهم ، وان لم يستطيعوا أن يروا أو يدركوا شيئا ، فراح كل منهم يسأل الآخر عما جرى ! .. فقال واحد أن النجار اجتث قدم زوجته ببلطة .. وقال آخر أن الغسالة قد حملت الى فراشها ، حيث وضعت ثلاثة توائم .. وقال ثالث أن قط الطاهية قد أصيب بلوثة فعض عددا من الناس . على أن الحقيقة لم تلبث أن ذاعت تدريجا ، حتى صعدت ــ فى النهاية ــ الى سيدة الضيعة . ولاح أن أحدا لم يكن يدرك كيف يعلنها اليها . ولكن ((ايجور)) الجلف فاجأها بالحقائق مباشرة ، فاضطربت أعصاب السيدة ، وانقضت فترة طويلة قبل أن تسترد جأشها . وكان القوم المتجمعون فى أسفل الدار قد بدأوا يهدأون ، وأشعلت زوجة النجار النار تحت الغلاية ، لتعد بعض الشاى ، فلما لم توجه دعوة الى الذين لم يكونوا من المقيمين فى مساكن الرقيق ،

انصرفوا وقد رأوا أن ليس من اللياقة أن يبقوا . وأخذ الغلمان يتصارعون خارج المبنى .

* * *

وكان كل امرىء قد عرف جلية الامر ، فراحوا يرسمون علامة الصليب على صدورهم ، وينفضون ، حين دوت فجأة صرخة عالية : « السيدة ! .. السيدة ! » . وتزاحم كل من فى الحشد ، ليفسحوا لسيدة الضيعة طريقا ، وان راح كل منهم — فى الوقت ذاته — يحاول أن يرى ما هى فاعلة .. **وولجت السيدة الردهة بوجه شاحب لطخته الدموع ، فاجتازت عتبة « ركن » أكولينا ، ودخلت عليها** .. وتلاصقت عشرات الرؤوس وتزاحمت لتنظر خلال الباب . واشتد الضغط على امرأة حبلى ، حتى اضطرت الى أن تطلق صرخة عالية ، ولكنها انتهزت هذا الظرف ، لتظفر لنفسها بمكان أمين فى الصف الاول .. وكيف كان لاحد أن يتمالك نفسه من الرغبة فى أن يرى سيدة الضيعة فى « ركن » أكولينا ؟ .. كان الامر — بالنسبة لرقيق الدار — أشبه بالاضواء الملونة التى تنار فى نهاية أى استعراض ! .. وكما أن اشعال نيران ملونة عمل عظيم ، يشير الى مناسبة جليلة ، فكذلك كان وجود سيدة الضيعة — فى ثيابها الحريرية الموشاة بالدانتيلا — فى « ركن » أكولينا !

وتقدمت السيدة ، فأمسكت يد « أكولينا » ، ولكن أكولينا جذبت يدها من قبضتها ، فهز العبيد المسنون رؤوسهم فى استهجان ، بينما قالت السيدة : « أكولينا ! .. ان أولادك بحاجة اليك ، فاحرصى على نفسك » . ولكن « أكولينا » انفجرت مقهقهة ، ونهضت قائلة : « ان أولادى كلهم من الفضة ، الفضة الخالصة ! .. فلست أحتفظ بنقود ورقية !» . ثم تمتمت فى عجلة جعلت الكلمات تتلاحق وتندغم : **« اننى**

قلت لبوليكى : ((لا تأخذ نقودا ورقيـة !)) .. وها هى ذى النتيجة .. لقد لطخته بالقار .. بالقار والصابون يا سيدتى! .. فان القار والصابون يخلصانك من أى جرب يلحق بك ، فى الحال !)) . وازدادت قهقهتها ارتفاعا !

وتحولت السيدة عنها ، فأمرت باستدعاء مساعد الطبيب فورا ، وبأن يحضر معه لاصقات (لبخات) من الخردل . وقالت : ((احضروا بعض الماء البارد !)) . وشرعت بنفسها تبحث عنه ، ولكنها أشاحت فجأة ، اذ رأت الطفل الميت مع القابلة العجوز ((آنا)) . ورأى الجميع كيف أخفت وجهها فى منديلها ، وانفجرت باكية .. ومما يؤسف له أن السيدة لم تر ما كانت الجدة ((آنا)) تفعل، فانها كانت قمينة بأن تقدره ، لا سيما وأنه كان من أجل خاطرها هى .. فقد غطت الطفل بقطعة من الكتان ، وبسطت ذراعيه بيديها الطريتين المدربتين، وهزت رأسه ، وعبست ، ثم أرخت جفنيه على عينيه ، وتنهدت وقد شعرت بأن كل امرىء رأى ـ فى عملها ـ مدى طيبة قلبها ! .. **ولكن السيدة لم تر شيئا من هذا ، لانها لم تقو على أن ترى أى شىء على الاطلاق . فقد راحت تبكى فى نشـيج هيستيرى !**

وأسرعت الايدى تعينها على الوقوف والسير ، واقتيدت الى خارج المكان ، ثم الى دارها . وقال كثيرون لانفسهم : ((أهذا كل ما يرى منها ؟)) . ثم عادوا ينفضون ويتفرقون . وظلت ((أكولينا)) سادرة فى ضحكها وهذيانها . وما لبثت أن نقلت الى حجرة أخرى ، حيث حجمت ليسيل الدم المفسود من رأسها ، ثم كسيت الجراح بلصقات الخردل ، ووضع ثلج على رأسها . ومع ذلك فانها لم تثب الى رشدها ، ولم تبك ، بل ظلت تضحك وتأتى من الافعال والاقوال ما لم يتمالك معه أهل الرحمة ـ الذين عنوا بها ـ أنفسهم من أن يضحكوا هم الآخرون !



(١٢) ليلة رهيبة فى الضيعة !

• **لم** يكن العيد بهيجا فى (بوكروفسك) . ومع أن اليوم كان جميلا ، الا أن القوم لم يخرجوا للهو والنزهة ، ولم تردد الفتيات الاغانى فى الشارع ، ولم يعزف عمال المصنع — الذين أقبلوا من المدينـــة ليقضـــوا ذلك اليوم بين أهلهم — على « الكونسرتينا » ولا على « البلاليكا » (١) ، لا ولم يلعبوا مع الفتيات . وانما جلسوا جميعا فى الاركان واجمين ، فاذا تكلموا كان حديثهم خافتا ، وكأنما هناك روح شريرة تتصنت أقوالهم .

ولم يكن الامر بالغ السوء أبان النهار ، ولكن .. ما أن هبط الليل ، وشرعت الكلاب تعوى — وقد زاد الامر سوءا أن هبت ريح راحت تولول خلال المداخن — حتى تملك القوم جميعا خوف طاغ ، دفع الذين كانوا يملكون شموعا الى أن يشعلوها أمام ايقوناتهم . واضطر كل من تصادف أن كان وحيدا فى « ركنه » الى أن يسعى الى جيرانه يسألهم الاذن ليمكث الليل معهم ، ليتخفف من الوحشة .. وأى امرىء كان عمله يقتضيه أن يذهب الى الحظائر ، أبى أن يخرج ، وآثر أن يدع الماشية بلا علف — فى تلك الليلة — غير مشفق عليها .. كما أن الماء المقدس — الذى كان كل امرىء يمتلك زجاجة صغيرة منه لطرد كل سوء ، استهلك عن آخره خلال الليل !

---

(١) الكونسرتينا والبلاليكا من الآلات الموسيقية الشائعة فى روسيا

ومع ذلك فما أكثر من سمعوا شيئا يسير فى الفراغ ـ الذى يلى السقف مباشرة ـ بخطى ثقيلة .. وشاهد الحداد ثعبانا يطير نحو هذا المكان مباشرة ! .. أما « ركن » بوليكى فلم يكن يعمره أحد ، فقد نقل الاطفال والمرأة المجنونة الى مكان آخر. ولم يبق سوى جثمان الطفل الميت راقدا هناك ، وقد جلست عجوزان ساهرتين عليه ، بينما كانت امرأة ثالثة .. « حاجة » (١) تتلو المزامير ، مدفوعة بحرارة تقواها ، لا من أجل الطفل ، وانما بشعور مبهم بالنكبة التى حاقت بالجميع .. فهكذا أرادت سيدة الضيعة . **ولقد سمعت « الحاجة » والمرأتان العجوزان ،كيف أن عارضات السقف الخشبية كانت تهتز ، كما كان ينبعث أنين متوجع ، كلما انتهين من كل فقرة من كتاب « المزامير » . واذ ذاك كن يهتفن : « ليقم الرب ! » ، فاذا بكل شيء يهدأ من جديد .**

ودعت زوجة النجار صديقة لها ، فلم تناما ليلتهما طولها ، بل شربتا كل الشاى الذى كانت قد أعدته للأسبوع كله . وسمعتا ـ هما الاخريان ـ كيف أن العارضات كانت تئز فوق رأسيهما ، كما سمعتا جلبة وكأن أكياسا كانت تتساقط تباعا . ولقد أعان وجود الحراس الفلاحين على استبقاء شجاعة أهل مساكن الرقيق بعض الشيء ، والا لكانوا قد ماتوا خوفا فى ذلك الليل .. وكان الفلاحون ينامون على بعض القش فى الردهة ، وقد ذكروا ـ فيما بعد ـ أنهم سمعوا هم الآخرون أمورا عجيبة فى الفراغ الذى يلى السقف ، وان كانوا ـ اذ ذاك ـ يتحادثون فى هدوء تام عن التجنيد ، ويمضغون لقما من الخبز ، ويحكون أجسادهم ، و ـ فوق كل شيء ـ يملأون الردهة برائحة غثة عرفت عن الفلاحين ، حتى أن زوجة النجار لم تتمالك أن بصقت ـ اذ تصادف أن مرت بالقرب

---

(١) « الحاجة » امرأة تصطنع اللوثة الدينية ، فتعتبر من الأولياء ،وتسمى « حاجة » ، ولو لم تكن قد زارت الأراضى المقدسة

منهم — ونعتتهم بأنهم « فروخ الفلاحين » !

ومهما يكن الامر ، فإن الميت ظل معلقا فى الفراغ الذى يلى السقف . ولاح كأنما خيمت روح الشر ذاتها على مساكن الرقيق ، باسطة جناحيها الهائلتين ، فى تلك الليلة ، مبدية قوتها وسلطانها ، مقتربة من أولئك القوم كما لم تقترب قط من قبل! .. هكذا شعروا جميعا . ولست أدرى ما اذا كانوا على صواب ، بل اننى لاراهم كانوا فى خطأ مبين . واعتقد أنه لو كان قد قدر لشخص على شىء من الجرأة أن يأخذ شمعة أو مصباحا فى تلك الليلة الرهيبة ، وأن يرسم على صدره علامة الصليب — بل وبدون أن يرسم الصليب — فصعد الى ما تحت السقف ، وبدد رهبة الليل رويدا — خلال تقدمه بالشمعة — ملقيا الضوء على العارضات الخشبية ، وعلى الرمل ، وعلى أنبوبة المجارى المكسوة بنسيج العنكبوت ، وعلى لفافات العنق التى خلفتها زوجة النجار وراءها .. ووصل الى « بوليكى » ، فغالب مخاوفه ورفع المصباح الى مستوى وجهه ، لرأى عين الشكل النحيل، وقد مست القدمان الارض لان الحبل ارتخى ، ومال الجسم جانبا وقد خلا من الحياة .. ولا صليب تحت القميص ، وقد سقط الرأس على الصدر .. ولرأى الوجه الطيب السحنة وقد تفتحت عيناه بلا ابصار ، والابتسامة التى تجمع بين المسكنة والشعور بالذنب ، وهدوءا ساجيا ، وصمتا يسيطر على كل شىء .. والواقع أن زوجة النجار كانت أكثر بشاعة وارهابا من بوليكى — رغم أن صليبه كان بعيدا عن جسمه ، وملقى على احدى العارضات — لا سيما وهى تنكمش فى ركن من سريرها ، بشعر مشعث ، وعينين مفعمتين بالذعر ، وقد راحت تروى كيف أنها سمعت ضجيج أكياس تتساقط !

و « فوق » .. أى فى دار السيدة ، سيطرت عين الرهبة

التى سادت مساكن الرقيق . وكان مخدع السيدة نفسها معبقا برائحة « الكولونيا » والادوية ، بينما راحت « دنياشا » تصهر شمعا أصفر ، لتعد لاصقة « لبخة » . أما السبب الذى من أجله كانت هذه اللاصقة ، فهذا ما لست أدريه ، وأن كنت أعلم أن اللاصقات كانت تصنع عادة عندما تكون السيدة متوعكة . وقد كانت فى تلك الليلة بالغة الاستياء ، حتى لقد حل بها المرض . ولقد أقبلت عمة «دنياشا» لتمكث الليل معها، حتى تشد أزرها . ومن ثم فقد كانت فى غرفة الوصيفة أربع ، رحن يتكلمن بأصوات خافتة : دنياشا ، وعمتها ، والوصيفة الثانية ، وأكسيوتكا .. وما لبثت « دنياشا » أن تساءلت : « من منكن تذهب لتحضر بعض الزيت ؟ » . فقالت الوصيفة الثانية فى حزم واصرار : « ما من شىء يغرينى على الذهاب »

ـ هراء ! .. اذهبى مع أكسيوتكا !

فقالت أكسيوتكا : « سأهرع وحدى ، فلست خائفة من شىء ! » . **بيد انها لم تكد تفرغ من قولها ، حتى شعرت بخوف طارىء !** بينما قالت دنياشا : « حسن .. اذهبى اذن يا عزيزتى الى الجدة آنا ، وسليها أن تعطيك بعض الزيت فى قدح ، واحضريه الى هنا ، ولا تسكبى منه شيئا ! »

ورفعت « أكسيوتكا » ذيل ثوبها باحدى يديها . واذ حال هذا دون تأرجح ذراعيها معا كالبندولين ، فانها راحت تحرك ذراعا واحدة بعنف مضاعف ، فى خط متعامد على خيط سيرها ، وهى تندفع ! وكانت خائفة .. وخيل اليها أنها قمينة بأن تموت ذعرا اذا هى رأت أو سمعت شيئا ، ولو كان هذا الشىء أمها التى كانت على قيد الحياة .. ومرقت فى طريقها المألوف ، وهى مغمضة العينين !



(١٣) فلاح يقتحم مخدع السيدة !

• **وفجأة** ، انبعث على مقربة من أكسيوتكا صوت ريفي عميق ، متسائلا : « هل السيدة نائمة أو غير نائمة ؟ » . ففتحت الفتاة عينيها – اللتين كانت تغمضهما – ورأت أمامها جسما خيل اليها أنه أكثر ارتفاعا من الدار كلها . فصرخت وارتدت عائدة بسرعة هوجاء ، حتى أن ذيل ثوبها راح يتطاير خلفها فى الهواء . وبقفزة واحدة تجاوزت المدخل ، وبقفزة أخرى كانت فى غرفة الوصيفة ، حيث ارتمت على سرير وهى ترسل صراخا ضاريا . وأوشكت دنياشا وعمتها والوصيفة الثانية أن يمتن رعبا . وقبل أن يتمالكن حواسهن ، سمعن خطوات ثقيلة بطيئة مترددة ، فى الردهة ، انتهت أخيرا عند بابهن . **واندفعت « دنياشا » الى مخدع مولاتها والشمع المصهور يتناثر من بين يديها . واختبأت الوصيفة الثانية وراء الستائر . أما العمة – وكانت أقوى منهن شخصية – فقد همت بأن تدفع الباب المؤدى الى الردهة ، وتحكم اغلاقه . ولكن الباب فتح – فى تلك اللحظة – وولج فلاح الحجرة !**

ولم يكن القادم سوى دوتلوف بحذاءيه الشبيهين بالقاربين! .. وراح يتلفت حوله باحثا عن ايقونة ، دون أن يحفل بما استولى على من كن فى حجرة الوصيفة من مخاوف . واذ لم ير الايقونة الصغيرة التى كانت فى الركن الايسر من الحجرة ،

وقف أمام صوان كانت أوانى الشاى وأقداحه تحفظ فيه ، ورسم على صدره علامة الصليب . ثم وضع قلنسوته على حافة النافذة ، ودس يده فى صدر معطفه ، وراح يدفعها موغلا ، وكأنه يريد أن يحك جلده ، تحت الابط . وما لبث أن أخرج المظروف الذى كان يحمل خمسة أختام بالشمع البنى ، يحمل كل منها رسم مرساة (هلب) !

وضغطت عمة « دنياشا » قلبها بيدها ، ثم راحت تناضل ، حتى انتزعت الكلمات بعناء ، قائلة : « لعمرى !.. لقد أوقعت الذعر فى نفسى حقا ، حتى اننى لا أقوى على أن أنطق بكلمة ! لقد ظننت أن لحظتى الاخيرة قد حانت ! » .. وصاحت الوصيفة الثانية ، وهى تبرز من وراء الستائر : « أفهكذا يتصرف الناس ؟ » .. وقالت « دنياشا » ، وهى تخرج من مخدع مولاتها : « لقد انزعجت السيدة نفسها . فما الذى تقصده اذ تقتحم الدار من مدخل الخادمات ، دون ما استئذان ؟ .. يا لك من فلاح جلف ! »

ولم يحاول « دوتلوف » أن يلتمس لنفسه الاعذار ، بل قال أنه راغب فى أن يقابل السيدة . فقالت دنياشا : « أنها متوعكة المزاج ! » . وفى تلك اللحظة ، أطلقت « اكسيوتكا » ضحكا عاليا ، بدا أنها لم تكن تقو على كبحه ، حتى أنها اضطرت الى أن تدفن وجهها فى وسادة السرير . وظلت ساعة لا تقوى — رغم تهديدات دنياشا وعمتها — على أن ترفع وجهها فترة ، دون أن تنفجر فى الضحك ثانية ، وكأنما كان ثمة شيء يفجر الضحك فى صدر ثوبها الوردى المنقوش ، وفى شدقيها المضرجين بالحمرة . فلقد لاح لها أن من المضحك كل الاضحاك أن يستولى الخوف على الجميع — الى هذا الحد — وراحت تدس رأسها فى الوسادة ، وتدق الارض بحذاءيها ، وكل جسمها يهتز بعنف لفرط الضحك !

ووقف « دوتلوف » فى مكانه ، وراح يطيل النظر اليها بامعان ،

وكأنه يستوثق مما أصابها . ولكنه لم يلبث أن تحول عنها ، دون أن يكتشف سر ما بها ، وعاد يقـــول : **((الواقع أن .. الامر .. الامر على جانب عظيم من الاهمية . وليس عليـك سوى أن تدخلى للسيدة ، فتقولى لها أن فلاحا وجد الخطاب الذى ضم النقود ؟))** . فتساءلت دنياشا : ((أية نقود ؟)) . وقرأت ـ قبل أن تحمل النبأ للسيدة ـ ما كان مكتـوبا على المظروف ، وسألت دوتلوف عن المكان والزمان اللذين وجـد فيهما النقود التى كان على ((بوليكى)) أن يحضرها من المدينة. حتى اذا استمعت الى كل شىء ، دفعت عن طريقهـا الخادم الصغيرة ـ التى كانت لا تزال تتلوى لفـــرط الضـحك ـ وأقصتها الى البهو الخارجى ، ثم دخلت الى سيدتها .

* * *

ودهش ((دوتلوف)) اذ أبت السيدة أن تستقبله ، ولم تقل لدنياشا شيئا معقولا .. فقد كان كل ما قالته : **((لست أدرى شيئا عن هذا الخطاب ، ولا أريد أن أعرف شـيئا ؟ .. أى فلاح ؟ وأية نقود ؟.. لا أستطيع ، ولا أريد أن أرى أحدا !.. ليتركنى هذا الفلاح بسلام !))**

وقال دوتلوف ، وهو يقلب المظروف بين يديه : ((ما الذى ينبغى أن أفعل ؟ .. انه ليس بالمبلغ البسيط !)) . ثم سأل دنياشا : ((ما الذى كتب عليه ؟)) . فعادت الفتاة تقرأ العنوان .. و ((دوتلوف)) فى ريب من أمره ، وقد بقى فى نفسه شىء من الامل فى أن النقود قد لا تكون نقود السيدة ، وأن العنوان لم يقرأ له كما ينبغى أن يقرأ .. ولكن ((دنياشا)) قطعت كل شك ورجاء بشأن المبلغ والعنوان ، فدس المظروف فى صدره وهو يتنهد ، وهم بالانصراف قائلا : ((أعتقد أن على أن أسلمه الى ضابط البوليس)) . فاستوقفته دنياشا قائلة : ((مهلا !.. سأحاول مرة أخرى)) .. كانت قد أعملت فكرها بعد أن اختفى

المظروف فى صدر معطف الفلاح ، فلم تشأ أن تفوت على سيدتها المبلغ ، وقالت : « هات هذا الخطاب ! » . فأخرج « دوتلوف » الخطاب ثانية ، ولكنه تردد برهة قبل أن يضعه فى يد « دنياشا » المبسوطة . ثم قال : « قولى أن سمعان دوتلوف قد وجده فى الطريق .. »

ـ حسنا .. هاته !

ـ لقد خيل الى أنه ليس ذا قيمة .. مجرد خطاب ! ولكن جنديا قرأ لى ما كتب عليه عن وجود نقود بداخله ..

ـ لا بأس .. اذن ، هاته !

فقال دوتلوف : « اننى لم أجسر على الذهاب الى أى مكان، ولا الى بيتى قبل أن .. » ، وسكت لحظة ، ثم استطرد دون أن يتخلى عن المظروف الثمين : « قولى هذا للسيدة ! » .. وأخيرا ، أخذت دنياشا الخطاب منه ، ودخلت على مولاتها من جديد . فصاحت السيدة فى لهجة عاتبة : **« أواه ، يا الهى ! .. لا تحدثينى يا دنياشا عن هذه النقود ! .. فقط تصورى ذلك الطفل الصغير .. ! »** . وارتجفت وهى تتمثل ابن « أكولينا » الميت ، بينما عادت دنياشا تقول : « أن الفلاح لا يدرى لمن تريدين أن يعطى هذا المبلغ يامولاتى ! » . وهنا فتحت السيدة المظروف ، فارتجفت لمرأى النقود ، ووجمت فترة وهى شاردة البال ، ثم قالت : « يا للنقود البغيضة !.. ما أكثر ما تحدث من آثام ! » . فقالت دنياشا : « ان دوتلوف هو الذى أحضرها يا مولاتى . فهل تأمرين بأن ينصرف ، أو تتكرمين بالخروج لكى تقابليه ؟ .. وهل النقود كاملة لم تمس؟ »

وفجأة ، قالت السيدة وهى تتلمس يد دنياشا لتتشبث بها . « لا أريد هذه النقود .. انها نقود رهيبة ! ما أكثر ما فعلت ! أنبئيه بأن له أن يأخذها اذا شاء ! » . **وراحت تردد على مسمع من دنياشا المذهولة : « أجل ، أجل ، أجل ! .. دعيه يأخذها بأكملها ، وليفعل بها ما يشاء ! »** . وهتفت

دنياشا ، وهى تبتسم ، وكأنها تحايل طفلة : « ألف وخمسمائة روبل ؟ ! » . فصاحت السيدة بصبر نافد : « دعيه يأخذها بأكملها ! .. كيف لا تفهميننى ؟ انها نقود منحوسة ، فلا تحدثينى عنها بعد الآن ! .. ليأخذها الفلاح الذى عثر عليها ! هيا ! »

وخرجت دنياشا الى حجرة الوصيفة ، فسألها دوتلوف : « هل وجدت المبلغ كاملا ؟ » . فأجابت دنياشا ، وهى تسلمه المظروف : « يحسن بك أن تحصيه بنفسك ، فقد أمرت بأن أسلمك اياه ! » . ودس « دوتلوف » قلنسوته تحت ابطه ، وانحنى الى الامام ، وشرع يحصى المبلغ . ثم تساءل : « هل لديكم عداد ؟ » (١) . فلقد خطر لدوتلوف أن السيدة كانت غبية لا تحسن العد ، وأن هذا هو الذى دعاها الى أن تأمره بعد النقود . ولكن دنياشا قالت بجفاء : « تستطيع أن تعدها فى بيتك .. فالنقود لك ! .. لقد قالت السيدة : لا أريد أن أراها ، فدعيها للرجل الذى أحضرها ! » . وحملق « دوتلوف » فى دنياشا ، دون أن يقيم ظهره المنحنى ، بينما بسطت عمة الوصيفة راحتيها ، وهتفت : « آه ، أيتها الام المقدسة ! أى حظ ساقه الرب لهذا الرجل ! آه ، أيتها الام المقدسة ! » . ولم تستطع الوصيفة الثانية أن تصدق ما سمعت فهتفت بزميلتها : « ما أراك جادة يا افدوشيا بافلوفنا .. انك تمزحين ! » . فقالت دنياشا ، دون أن تخفى استياءها : « أمزح ؟ ! حقا ! .. لقد أمرتنى بأن أعطى الفلاح النقود .. هاك ، خذ النقود وامض ! .. مصائب قوم عند قوم فوائد ! » . فقالت العمة : « ما هذا مجال المزاح .. انها ألف وخمسمائة روبل » . فعقبت دنياشا قائلة : « بل هى أكثر ! » . ثم أردفت قائلة لدوتلوف فى سخرية : « يجب أن تقدم شمعة بعشرة كوبكات

---

(١) اطار خشبى تمتد بعرضه أسلاك فيها قطع من الخرز ، يستخدم لتعليم الأطفال العد . وكان استعماله شائعا بين فلاحى روسيا قديما

للقديس نيقولا .. لماذا لا تثوب الى وعيك ؟ .. لو أن هذه النقود آلت الى رجل فقير .. ! ولكن هذا الرجل أوتى وفرة من المال ! »

وأدرك « دوتلوف » أخيرا أن الامر لم يكن مزاحا ، فشرع يجمع الاوراق المالية التى كان قدنثرها حوله ليحصيها ، وأخذ يضعها فى المظروف . بيد أن يديه كانتا ترتجفان ، وقد ظل ينظر الى الوصيفتين ليطمئن الى أنه لم يكن فى الامر كله أى مزاح .. بينما راحت دنياشا تقول ، متظاهرة بأنها تحتقر الفلاح والمال معا : « أنظرن ! انه لايكاد يعقل لفرط الفرح ! .. .. دعنى أضع النقود لك فى المظروف ! » . **وهمت بأن تمسك بالاوراق المالية ، ولكن « دوتلوف » لم يدعها تصل اليها ، بل كور الاوراق معا ، ودفعها الى جوف المظروف ، ثم تناول قلنسوته** . فسألته دنياشا : « أمبتهج أنت ؟ » . وأجاب : « لا أكاد أدرى من أمرى شيئا ! .. الواقع .. » . ولم يتم عبارته ، بل لوح بيده ، وابتسم ، وغادر المكان وهو يوشك أن يبكى !

* * *

ودف[illegible] شت[illegible]ءلت : « هل أعطيته النقود ؟ » . فأجابت دنياشا : « أجل »

ـ وهل كان شديد الابتهاج ؟

ـ كان أشبه بمجنون

ـ آه ! .. أدعه ثانية ، فانى أريد أن أسأله كيف عثر على الخطاب . أدعه الى هنا ، فلست أقوى على مبارحة المخدع !

وهرعت دنياشا الى الخارج ، فوجدت الفلاح عند المدخل ، وهو لا يزال عارى الرأس ، وان كان قد أخرج كيس نقوده ، ووقف منحنى القامة يفك رباطه ، بينما كان ممسكا بمظروف النقود بين أسنانه .. ولعله تصور أن النقود لن تصبح ملكا له ما لم تكن داخل الكيس . فلما نادته دنياشا ، اشتد به

الجزع ، وهتف : « ماذا جرى يا أفدوشيا .. أفدوشيا بافلوفنا ؟ هل تريد السيدة أن تسترد النقود ؟ .. ألا تستطيعين أن تشفعي لى عندها ، وأعدك أن أحضر لك بعض العسل البديع ؟ » . فقالت ساخرة : « حقا ! .. فما أكثر ما أحضرت ! »

وفتح الباب مرة أخرى ، واقتيد الفلاح الى السيدة ، وهو ابعد ما يكون عن الابتهاج . فقد راح يفكر فى سريرته - وهو ماض خلال الحجرات ، رافعا قدميه أكثر مما ينبغى ، وكأنه يخطو خلال حشيش طويل يحاول أن لا يسحقه بحذاءيه المصنوعين من اللحاء : « ويلاه ! لسوف تسترد النقود ! » . ولم يتبين شيئا مما كان حوله .. ومر بجوار مرآة ، فرأى زهورا ، وفلاحا فى حذاءين من اللحاء ، يرفع قدميه عاليا .. ثم رأى سيدا يضع على عينيه عوينتين (نظارة) ، فى رسم على الجدار .. ثم شيئا أخضر كأنه الحوض الخشبى ، وشيئا أبيض .. وفجأة ، بدأ الشىء الابيض يتكلم ، فهو لم يكن [illegible] .. ولم يفقه دوتلوف شيئا ، بل اكتفى بأن راح [illegible] أ[illegible]كان ، وقد خيل اليه أن

[illegible]

مترنحا - وكأنه نمس [illegible]

وفجأة ، رأى شبح رجل مقبلا عليه فصاح ، فاذا به « ايفيم » وقد أمسك بيده هراوة ، وسهر على الحراسة عند مساكن الرقيق .

وقال ايفيم بابتهاج ، وهو يقترب منه ، وقد امضه السهر وحيدا : « آه ، أهذا أنت يا أبى سمعان ؟ ! .. هل ودعتم

الحياة ، والحمد لله ! »

ـ وكيف عثرت عليه ؟

ـ أعنى أن بوسعنا دائما أن نبذل قصارى طاقتنا من أجل مولاتنا ، فى شرف وأمانة ، ودون ..

وهنا قالت دنياشا : « انه مرتبك يا مولاتى ! »

ـ كنت قد صحبت ابن أخى المجند ، وفيما كنت أقـود عربتى عائدا ، عثرت على الخطـــاب فى الطريق .. ولا بد أن بوليكى قد أسقطه عفوا !

ـ لا بأس ،انصرف .. انصرف ايها الرجل الطيب ،ويسرنى أنك أنت الذى عثرت عليه !

وقال الفلاح : « لكم أنا مسرور يا مولاتى ! » . ثم تذكـر أنه لم يقدم لها الشـــكر اللازم ، ولم يدر كيف يتصرف . وابتسمت السيدة ودنياشا ، واذ ذاك شرع الرجل يســير وكأنه يخطو بين أعشاب عالية ، وهو يكبح نفسه [illegible] لا يجرى ، وقد داخله الخوف [illegible]

[illegible] . [illegible] « [illegible] روره اذ ال اليك المبلغ ، فليجعله الله ذا نفـع لك ! أفمسرور أنت الآن ؟ » . فأجاب مرتبـكا : « وكيف لا أكون مسرورا ؟ .. اننى مسرور جدا يا مولاتى .. مسرور جدا ! سأصلى دائمـا من أجلك ، وأدعو لك ! .. انما أنا مسرور بوجودك على قيد



المجندين يا أبت ؟ » . فأجابه : « ودعناهم .. وماذا تفعل ؟ »

ـ لقد عينت لحراسة « بوليكى » الذى شنق نفسه !

ـ واين هو ؟

ـ فوق ، معلق فى الفراغ تحت السقف ، كما يقولون !

وأشار بهراوته نحو سقف مساكن العبيد ، فتطلع « دوتلوف » حيث أشار . ومع أنه لم ير شيئا ، فقد قطب عينيه ، وأرهف بصره . ثم هز رأسه . وقال ايفيم : « لقد جاء ضابط البوليس ، كما قال الحوذى ، وسينزلون الجثة حالا . أليست هذه ليلة رهيبة يا أبت ؟ .. ما من شيء يحملنى على أن أصعد اليه بالليل ، ولو أمرت أمرا .. لن أصعد ولو شاء ايجور ميخايلو فيتش أن يقتلنى .. » وكان دوتلوف يردد ، دون أن يفقه ما يقول : « يا لها من خطيئة ! .. آه ، يا له من اثم ! » . وهم بأن يمضى فى طريقه ، فاذا صوت ايجور ميخايلوفيتش يستوقفه ، اذ انطلق من مدخل مكتبه قائلا : « اسمع ، أيها الحارس ! تعال ! » . فلبى « ايفيم » نداءه . واذ ذاك سأله : « من ذلك الفلاح الذى كان يقف معك ؟ » . وأجابه ايفيم : « انه دوتلوف » . فصاح وكيل الاعمال : « آه ، أهذا أنت يا سمعان ! تعال معنا ! »

واقترب دوتلوف .. وعلى ضوء مصباح كان الحوذى يحمله ، رأى الشيخ ايجور ميخايلوفيتش يقف مع رجل

قصير ، يحيط بقبعته شريط ، وقد ارتدى معطفا رسميا طويلا .. ذلك كان ((كونستابل)) البوليس . وأحس الشيخ بشيء من عدم الارتياح ، ولكنه لم يجد مفرا من أن يقف أمامهما ، بينما كان ايجور يقول : ((وأنت يا ايفيم .. انك فتى شجاع ، فأصعد الى الفراغ الذى يلى السقف ، حيث شنق نفسه ، وأصلح وضع السلم ليرقى صاحب الفخامة اليه)) . وهرع ((ايفيم)) ــ الذى كان منذ لحظة يقول أن شيئا فى الدنيا لن يحمله على الصعود ــ فيمم شطر المكان ، وحذاءاه الخشبيان يقرقعان .

وأشعل ضابط البوليس ثقابا ، أوقد به غليونا .. كان يقيم على حوالى ميل ونصف الميل . ولما كان قد تلقى من رئيسه تقريعا شديدا ــ لافراطه فى الشراب ــ فقد أبدى همة وحمية ، فوصل فى الساعة العاشرة مساء ، ورغب فى أن يرى الجثة لفوره ! .. وتحول ((ايجور ميخايلوفيتش)) الى ((دوتلوف)) فسأله عما أتى به . ولكى يجيبه دوتلوف ، راح يروى له كيف عثر على النقود ، وما فعلته السيدة . وقال انه كان فى طريقه الى ((ايجور ميخايلوفتش)) ليسأله رأيه . وشد ما جزع حين سأله وكيل الاعمال أن يعطيه المظروف ، ثم أخذ يفحصه .. وتناول ((كونستابل)) البوليس الظرف بدوره ، فأمسك به لحظة وجيزة ، وسأل دوتلوف عن بعض الامور بشيء من الجفاء . وأخذ الشيخ يقول لنفسه : ((واحسرتاه ! لقد طارت النقود !)) . ثم مضى يتلمس تبرير أمره ، ولكن ((الكونستابل)) لم يلبث أن ناوله النقود ثانية ، وهو يقول : ((يا له من حظ ، لغبى مأفون !)) . فقال ايجور ميخايلوفيتش : ((لقد واتاه فى الوقت المناسب ، فقد كان عائدا بعد أن رافق ابن أخيه المجند . وبوسعه الآن أن يفتديه !)) .. وقال رجل البوليس : ((آه !)) . ثم سار نحو مساكن الرقيق

وتحول ايجور ميخايلوفيتش لدوتلوف : ((هل ستفتديه ..

أقصد ايليشا ؟ » . فقال الرجل : « وكيف لى أن أفتديه ؟ .. هل ستكون ثمة نقود كافية ؟ .. ثم ، قد تكون الفرصة فاتت ! » . فقال وكيل الاعمال : « انت أدرى بذلك ! » . وتبعا « كونستابل » البوليس . واقتربوا من مساكن الرقيق ، حيث كان الحراس الكريهو الرائحة يقفون فى الردهة ، ومعهم مصباح .. ولاحوا وكأنهم مذنبون ، ولعل ذلك كان راجعا الى الرائحة الكريهة التى كانوا يبثونها حولهم .. وكانوا جميعا صامتين . فتساءل كونستابل البوليس : « أين هو ؟ » .. فقال ايجور ميخايلوفيتش هامسا : « هنا » . ثم أردف قائلا لايفيم : « انك فتى جسور ، فتقدم الضابط ، ومعك المصباح ! » . وكان ايفيم قد وضع لوحا مستقيما من الخشب ، فوق قمة السلم . وبدا انه فقد كل خوف ، فصعد السلم ، طاويا كل درجتين أو ثلاث معا ، مبتهجا ، ملقيا الضوء على طريق « كونستابل » البوليس . وعندما غابا فى الفراغ الذى يلى السقف ، تنهد دوتلوف ، ووقف واحدى قدميه على أدنى درجات السلم وتبعهما وكيل الاعمال .

ومرت دقيقتان أو ثلاث . وكان وقع الاقدام ـ تحت السقف ـ قد انقطع ، مما نم عن أنهما بلغا الجثة . وما لبث « ايفيم » أن نادى من أعلى : « ابتاه ، انهم يريدونك ! » . فبدأ دوتلوف يصعد السلم . ولم يكن ضوء المصباح يكشف سوى الجزء الاعلى من جسم كل من « كونستابل » البوليس و « ايجور ميخايلوفيتش » ، خلف القوائم الخشبية . وكان ثمة شخص آخر يقف خلفهما وظهره نحو فتحة المكان .. وكان هذا هو « بوليكى » . وصعد « دوتلوف » ، ثم وقف ، ورسم علامة الصليب على صدره .. وقال « كونستابل » البوليس : « أديروه يا أولاد ! » . فلم يتحرك أحد . واذ ذاك قال ايجور ميخايلوفيتش : « ايفيم .. انك فتى جسور ! » . فتقدم « الفتى الجسور » ، وأدار « بوليكى » ، ووقف بجانبه ،

وهو ينقل بصره ــ وقد تهلل وجهه ــ بين بوليكى ورجل البوليس ، كرجل يعرض أمهق أو « جوليا باسترانا » (١) ، وينقل بصره بين الناس وما يعرض ، وهو على استعداد لان يفعل كل ما يبتغيه النظارة .

وقال رجل البوليس : « أدره مرة أخرى ! » . فأدير « بوليكى » ، وذراعاه يتأرجحان قليلا ، وقدماه يحتكان بالرمال . وعاد الكونستابل يقول : « أمسكوه ، واهبطوا به » . فتساءل ايجور ميخايلوفيتش : « هل نقطع الحبل كله ياصاحب الفخامة ؟ .. آتونا بفأس يا أولاد ! » .. ولم يكن ثمة بد من تكرار التعليمات على الحراس ودوتلوف ، قبل أن يشرعوا فى العمل . على أن « الفتى الجسور » حمل بوليكى كما يحمل جثة خروف .. وما لبث الحبل أن قطع فى النهاية ، وحملت الجثة الى أسفل ، ثم نشر عليها غطاء . وقال « كونستابل » البوليس ان الطبيب سيفد فى اليوم التالى .. وصرف الجميع .

(١٥) عودة المجند الى قريته !

• سعى دوتلوف الى داره ، وهو لا يزال يحرك شفتيه . وكان ــ فى البداية ــ يشعر بتوجس وتشاؤم ، ولكن هذا الشعور لم يلبث أن زايله ، حين اقترب من البيت ، وتولاه ابتهاج أخذ يسرى فى فؤاده تدريجا . وسمع أغانى وأصوات السكارى تنبعث من القرية .. ولم يكن دوتلوف قد عاقر الخمر اطلاقا ، ومن ثم فقد يمم ــ فى هذه المرة أيضا ــ شطر بيته مباشرة . وكان الوقت متأخرا ، حين ولج كوخه ، فاذا زوجه العجوز نائمة . وكان ابنه الاكبر وأحفاده نياما على

---

(١) الأمهق هو الشخص الشديد البياض والشقرة ، ويسمى عادة « عدو الشمس » . أما « جوليا باسترانا » فكانت أنثى نصف امرأة ونصف حمارة ، عرضت فى روسيا منذ قرن تقريبا .



الفرن ، فى حين كان ابنه الثانى نائما فى المخزن . **ولم يكن من مستيقظ سوى زوجة ايليشا ، فقد جلست تبكى .. عارية الرأس ، على مقعد خشبى ، وفى ثوب العمل اليومى القذر . ولم تنهض لاستقباله ، بل ازدادت نحيبا ، وراحت ترثى حالها عندما دخل . وكانت ـ كما قالت زوجته العجوز ـ تجيد الندب والنعيب بطلاقة ، لا سيما وان صغر سنها لم يكن قد أتاح لها فرصة للمران !**

واستيقظت العجوز فأعدت عشاء لزوجها .. وأقصى دوتلوف زوجة ايليشا عن المائدة قائلا لها : « كفى ! كفى ! » . فابتعدت « اكسينيا » عن المائدة ، واستلقت على أريكة خشبية ، وواصلت الندب والنعيب . ووضعت العجوز العشاء على المائدة ، ثم رفعته ـ فيما بعد ـ فى صمت .. ولم يتكلم الشيخ كذلك . وبعد أن صلى لله شكرا ـ عقب العشاء ـ تجشأ ، وغسل يديه ، ثم رفع العداد عن مسمار فى الجدار ، وذهب الى المخزن . وهناك ، راح والعجوز يتكلمان همسا لبرهة ، ثم شرع ـ بعد انصرافها ـ يعد على العداد ، وليس من صوت سوى صلصلة الخرز .. وأخيرا ، رفع غطاء صندوق كبير ـ هناك ـ وهبط الى فراغ تحت الارض . وقضى وقتا طويلا فى الحجرة والفراغ الذى كان تحتها . وعندما عاد الى غرفة الجلوس ، كان الظلام يسود الكوخ ، اذ أن شظية الخشب ـ التى كانت تستخدم كشمعة ـ انطفأت ، فأشعلها

من جديد . وكانت زوجته ـ الهادئة ، الصامتة أثناء النهار ـ قد تكورت على السرير الخشبى وملأت الكوخ غطيطا . أما زوجة ايليشا الصاخبة فكانت تتنفس بهدوء ، وقد نامت هى الاخرى .. كانت ترقد على الاريكة الخشبية فى عين الثياب التى كانت فيها طيلة يومها ، وليس من شىء تحت رأسها يعوضها عن الوسادة !

وشرع دوتلوف يصلى ، ثم نظر الى زوجة ايليشا وهز رأسه ، وأطفأ النور .. وتجشأ ثم صعد الى قمة الفرن ، حيث ينام الى جوار حفيده الصغير . والقى بحذاءيه المكسوين بلحاء الشجر الى الارض فى الظلام ، واستلقى على ظهره متطلعا الى ألواح السقف الخشبية التى كانت فوق رأسه مباشرة ، والتى كانت لا تبين تقريبا .. وأخذ ينصت الى أصوات الصراصير وهى تطير مرتطمة بالجدران ، والى التنهدات ، والزفرات ، والغطيط ، وحفيف قدم تحتك بأخرى ، وجلبة الماشية فى الخارج . وانقضى وقت طويل قبل أن ينام ، بزغ خلاله القمر ، فأضاءت أشعته الكوخ ، واستطاع الشيخ أن يرى « اكسينيا » فى ركنها ، وشيئا لم يستطع أن يتبين ما اذا كان سترة نسيها ابنه ، أو وعاء غسيل وضعته النسوة هناك ، أو رجلا قابعا ! .. ولعله كان قد بدأ ينعس ـ اذ ذاك ـ وربما لم يكن قد بدأ ، ولكنه ـ على أية حال ـ شرع يتفرس فى الظلام .. والظاهر أن الروح الشريرة التى قادت بوليكى الى ارتكاب فعلته الشنيعة ، والتى كان كل من فى مساكن العبيد يشعرون بوجودها ـ فى تلك الليلة ـ قد بسطت جناحها عبر القرية الى الكوخ الذى كانت فيه النقود التى استخدمتها فى القضاء على بوليكى ! .. ومهما يكن الامر ، فقد أحس دوتلوف بوجود الروح الخبيثة ، فاضطرب ، ولم يعد فى وسعه أن ينام ، ولا أن ينهض . وبعد ان لاحظ الشىء الذى لم يستطع أن يتبينه ، تمثل ايليشا وقد أوثق كتافه ،

وجه « اكسينيا » ورثاءها الطلق ، وتذكر بوليكى ويديه اللتين تأرجحتا !

وفجأة ، خيل للشيخ أن شخصا مر بجوار النافذة ، فقال لنفسه : « من عساه يكون ؟ .. أيكون شيخ القرية وقد أقبل مبكرا يحمل مذكرة لى ؟ » . وسمع خطوة فى الردهة ، فساءل نفسه : « كيف فتح الباب ؟ .. أو لم تضع العجوز المزلاج ، عندما عادت من الردهة ؟ » . وبدأ الكلب يعوى فى فناء الدار ، والروح الشريرة ـ كما حدس الشيخ فيما بعد ـ تخطو فى الردهة ، وكأنها تبحث عن الباب . ثم مرت ، وبدأت تتحسس الجدار ، وتعثرت فى وعاء فوقع على الارض محدثا صوتا . ثم عادت تتحسس ، وكأنها تبحث عن اللسان الذى يغلق الباب . وأمسكت باللسان ورفعته .. وسرت فى جسد الشيخ قشعريرة . ورفعت الروح الخبيثة اللسان ودخلت متخذة شكل رجل .. وأدرك دوتلوف أنها الروح الشريرة ، فحاول أن يرسم الصليب على صدره ، ولكنه لم يقو .. وسار الشبح الى المنضدة التى كانت مكسوة بغطاء ، فجذبه وألقاه على الارض ، وشرع يصعد الى قمة الفرن ! .. **وأدرك الشيخ أن الروح الخبيثة اتخذت شكل « بوليكى » وقد كشر عن أنيابه ، وراحت يداه تتأرجحان حوله .. وصعد ، ثم ارتمى على صدر الشيخ ، وبدأ يخنقه !**

وقال بوليكى : « ان النقود لى » ، فحاول سمعان أن يقول : « دعنى .. لن أمسها ! » ، ولكنه لم يقو .. وأخذ بوليكى يثقل عليه ، وكأنه جبل صلد . وكان دوتلوف يعرف أنه لو استطاع أن يردد أدعية ، لخلت الروح الخبيثة عنه ، وكان يعرف أية أدعية يجب أن يتلو ، ولكنه لم يستطع أن ينطق .. وأرسل حفيده ـ الذى كان ينام الى جواره ـ صرخة عالية ، وشرع يبكى ، فقد دفعه جده الى الحائط ، وراح يضغطه فيه . وفكت صرخة الطفل عقدة لسان الشيخ ، فانطلق : « لينهض

الرب ! .. » ، فبدأ ثقل الشبح يخف .. « وليتفرق شمل أعدائه ! .. » . وهبط الشبح عن الفرن ، وسمع «دوتلوف» صوت ارتطام قدميه بالارض ، فمضى يردد تباعا كل ما كان يعرف من صلوات .. وسار الشبح الى الباب ، مارا بالمائدة . وصفق الباب خلفه فهز الكوخ بأسره . ومع ذلك فقد ظل الجميع نياما ، عدا الجد والحفيد . فقد كان الجد يتمتم بالصلوات وهو يرتجف ، بينما كان الحفيد يرهق نفسه بالبكاء ، والنوم يغالبه ، وقد ازداد التصاقا بجده .

* * *

وعاد الهدوء يسيطر على الكوخ ، فظل الشيخ راقدا فى مكانه . وصاح ديك من خلف الجدار ، بجانب أذن دوتلوف .. وسمع نقنقة الدجاج ، وصوت دويك يحاول أن يرد على الديك الكبير ، دون أن يوفق . وتحرك شىء على ساق الشيخ .. واذا به قطة ما لبثت أن قفزت الى الارض دون أن تحدث صوتا ، وراحت تموء بجوار الباب . ونهض الشيخ ففتح النافذة ، واذا الطريق مظلمة موحلة . وكان مقدم العربة قريبا من النافذة . ورسم الرجل الصليب على صدره ، ثم خرج حافيا الى فناء الدار ، حيث كانت الخيل . **وكان من السهل أن يتبين المرء أن الشبح قد مر بالمكان ، فان الفرس التى وضعت من عهد قريب ، كانت تقف الى جوار وعاء به علف ، وقد لفت الحبل الذى ربطت به حول ساقها ، وراحت تنتظر أن يأتى صاحبها فيخلصها .. أما رضيعها ، فقد تعثر وسقط على كوم من الروث** . فانهضه الشيخ وأقامه على أقدامه . وخلص الفرسة وقدم لها غذاء ، ثم عاد الى الكوخ .

واستيقظت العجوز وأشعلت فتيلا ، فقال لها : « ايقظى الولدين ، فانى ذاهب الى المدينة ! » . ثم تناول شمعة رفيعة كانت أمام ايقونة ، فأشعلها ، وهبط بها فى الفراغ الذى

كان أسفل المخزن . وعندما صعد ثانية ، كانت الاضواء تلوح فى نوافذ جميع الدور المجاورة ، اذ استيقظ الشباب متأهبين للعمل ، وأخذت النسوة يرحن ويجئن بدلاء اللبن . وكان « أجنات » يربط الجواد الى احدى العربات ، بينما كان الابن الثانى يعنى بتشحيم عجلات عربة أخرى . ولم تعد الزوجة الشابة تندب حظها ، بل نظفت نفسها ، ولبست ثوبا نظيفا ، وربطت شالا حول رأسها ، وجلست تنتظر ريثما يحين الوقت للذهاب الى المدينة كى تودع زوجها .

وبدا الشيخ متجهما ، رصينا ، فلم ينبس ببنت شفة لاحد ، بل ارتدى خير سترة لديه ، وشد حزامه ، وتهيأ للذهاب الى ايجور ميخايلوفيتش ونقود « بوليكى » فى صدر معطفه . وقال لابنه الذى كان يدير العجلات حول محوريها بعد أن كساهما بالشحم : « لا تتلكأ ، فلسوف أعود بعد دقيقة .. وتأكد من أن كل امرىء على أتم استعداد ! » .. ووجد وكيل أعمال السيدة قد استيقظ لتوه ، وأخذ يحتسى الشاى ، ويتخذ استعداده ليذهب ـ هو الآخر ـ الى المدينة ليسلم السلطات مجندى الضيعة .. وبادره قائلا

ـ اننى أريد أن أفتدى فتاى من الخدمة العسكرية يا ايجور ميخايلوفيتش . فكن كريما ! لقد قلت منذ أيام أنك تعرف شخصا فى المدينة يرغب فى التطوع ، فاذكر لى كيف أبرم الامر

ـ ولماذا انتهيت الى هذا القرار ؟

ـ لم يكن بد من ذلك يا ايجور ميخايلوفيتش ، فانى آسف على الفتى . انه ابن أخى ، على أية حال ، ومهما يكن من أمره . اننى آسف عليه ! .. ان المال سبب كثير من الخطايا .

وانحنى حتى ساوى رأسه وسطه . ووقف ايجور ميخايلوفيتش مفكرا ، وهو يمص شفتيه محدثا صوتا ، كما كان يحلو له فى مثل هذه المناسبات . حتى اذا تدبر الامر ، كتب ورقتين ، وأخبر الشيخ بما ينبغى أن يفعل فى المدينة ،

وكيف يفعله .. وعندما عاد دوتلوف الى داره ، كانت زوجة « ايليشا » الشابة قد انطلقت مع « أجنات » ، وكانت الفرسة السمينة القوية تقف مشدودة الى عربة بجوار الباب الخارجى . فاقتطع فرعا من شجرة ، واحكم سترته حول جسده ، وارتقى العربة ، ثم ساط الفرسة بفرع الشجرة ، فجعلها تجرى مسرعة ، حتى أن جنبيها لم يلبثا أن هبطا ، فقد كان التفكير فى أن الفرصة قد تضيع ، وأن « ايليشا » قد يصبح جنديا ، وتظل نقود الشيطان فى حوزته .. كان التفكير فى هذا يضنيه !

ولن أسهب فى وصف كافة ما فعل دوتلوف فى ذلك الصباح ، وانما أكتفى بأن أقول أنه كان سعيد الحظ الى درجة عجيبة . فقد كان لدى الرجل — الذى أسلمه ايجور ميخايلوفيتش رسالة اليه — متطوع على أتم الاهبة ، وكان مدينا بثلاثة وعشرين روبل فضيا ، وقد أقر مجلس التجنيد صلاحيته . وكان سيده يطلب أربعمائة روبل فضى فى مقابل تطوعه للخدمة العسكرية بدلا منه ، وقد ظل شخص من المدينة يحاول اقناعه — طيلة الاسابيع الثلاثة الاخيرة — بأن يقبل ثلاثمائة روبل . وحسم دوتلوف الامر بكلمتين : « هل تقبل ثلاثمائة وخمسة وعشرين ؟ » . وبسط يده . **ولكن مظهره كان ينم عن أنه مستعد لان يدفع مزيدا ، فلم يمد السيد يده ، وأصر على الاربعمائة روبل . فقال دوتلوف : « أو لن تقبل ثلاثمائة وربع المائة ؟ » . وأمسك بيسراه يمنى الرجل ، يعدها كى يطبق عليها بيمناه مصافحا ، اشارة الى الاتفاق . ولكنه ما لبث أن طوح بيد الرجل بأقصى قوته ، قائلا وهو يدبر عنه : « أو لست تقبل ؟ .. حسنا ، ليكن الله معك ! »** . وصمت لحظة ، ثم استطرد قائلا : « يبدو أن لا بد من هذا .. خذ ثلاثمائة ونصف المائة ! .. هيا ، احضر اذن التسريح ، وهات الشاب . وهاك ورقتين من فئة العشرة روبلات كعربون .. أيكفيك هذا ؟ »

وفك دوتلوف حزامه ، وأخرج النقود . ومع أن الرجل لم يسحب يده ، الا أنه لم يبد قبولا تاما ، متوقعا أن يزيد دوتلوف من المبلغ . ولكن هذا راح يردد ، وهو ممسك بالنقود : « لا ترتكب اثما ! .. كلنا الى الموت يوما ! » . وراح يخفف من لهجته ، ليغرى الرجل ويطمئنه ، فما لبث هذا أن قال : « ليكن ! » . وصافح يد دوتلوف ، وشرع يدعو الله كي يبارك الصفقة ، قائلا : « ليهبك الله الحظ ! »

وسرعان ما أيقظا المتطوع ، وفحصاه ، ثم رافقاه الى ادارة التجنيد . وكان المتطوع مرحا ، وقد طلب قدرا من « الروم » لينتعش ، فمنحه دوتلوف بعض النقود لذلك . ولم يخنه جلده الا عندما بلغوا ساحة مجلس التجنيد . وتقدم السيد والمتطوع ، فوقفا طويلا فى بهو المجلس .. وكان السيد فى عباءة شديدة الزرقة ، والمتطوع فى سترة قصيرة من جلد الغنم ، وقد ارتفع حاجباه ، وراحت عيناه تحملقان فى الفضاء .. وظلا طويلا يتهامسان ، ويحاولان الوصول الى مكان معين ، ويبحثان عن شخص معين .. ولامر ما ، كانا يخلعان قلنسوتيهما وينحنيان لكل كاتب صادفهما ، ثم أنصتا باهتمام الى قرار حمله اليهما أحد الكتبة ، من معارف السيد . وبدا كل أمل فى انجاز المهمة فى ذلك اليوم يتبدد ، وعاد المتطوع يزداد مرحا وطربا . وفجأة ، رأى دوتلوف أمامه « ايجور ميخايلوفيتش » ، فتشبث به لفوره ، وشرع يتوسل اليه ، وينحنى أمامه . وساعده « ايجور ميخايلوفيتش » بهمة ، فلم تحن الساعة الثالثة حتى كان المتطوع قد اقتيد — لدهشته واستيائه — الى قاعة الفحص .. وفى غمرة المرح العام — الذى استولى على الجميع ، من العسس حتى الرئيس ، دون أن يدرى له داعيا — خلعت عنه ثيابه ، وألبس ثياب المجندين ، وحلق شعره ، وسيق الى الباب .. وبعد خمس دقائق ، أحصى دوتلوف النقود للسيد ، وتسلم أمر تسريح ابن أخيه ، فودع

المتطوع وسيده ، وأسرع الى حيث كان مجندو (بوكروفسك)
وكان « ايليشا » وزوجته الشابة يجلسان فى ركن المطبخ ، فما أن أقبل الشيخ حتى أمسكا عن الكلام ، وتطلعا اليه فى توجس ، وان بدا أنهما كانا يكبحان مشاعرهما . وأدى الشيخ صلاة - ارضاء للعادة التى شغف بها - ثم فك حزامه ، وأخرج منه ورقة ، ونادى الى الحجرة كلا من ابنه الاكبر « أجنات » ، وأم ايليشا ، اللذين كانا فى فناء الدار . وتقدم بعد ذلك من ابن أخيه ، فقال له : **« لا تأثم يا ايليشا ! .. لقد آذيتنى - ليلة الامس - بكلمة .. أفلست أشفق عليك ؟ .. اننى لاذكر كيف أن أخى تركك لى ، فهل كنت أدعك تأتى الى هنا لو كان فى مقدورى أن أحول دون ذلك ؟ .. لقد أرسل الله لى حظا ، ولن أضن به عليك . هاك .. خذ هذه الورقة ! »** . ووضع على المنضدة أمر التسريح ، وسوى أطراف الورقة بأصابع متصلبة ، متوترة .. وأقبل من الفناء فلاحو (بوكروفسك) ، واتباع صاحب الخان ، بل والاغراب ، وقد حدسوا جميعا ما كان يجرى . ولكن أحدا لم يقطع على الشيخ حديثه الوقور ، فمضى يقول : « هاك الورقة ! .. لقد دفعت من أجلها أربعمائة روبل فضى ، فلا تلم عمك مرة أخرى ! »

ونهض « إيليشا » من مجلسه ، ولكنه ظل صامتا ، لا يدرى ماذا يقول ، وقد راحت شفتاه ترتجفان انفعالا . وأقبلت أمه العجوز ، فكادت ترتمى على صدره باكية ، لولا أن أشار لها الشيخ كى تبتعد ، وواصل حديثه قائلا : « لقد آذيتنى - ليلة الامس - بكلمة .. ولقد طعنت فؤادى بتلك الكلمة ، وكأنها سكين ! .. لقد تركك أبوك المتوفى فى رعايتى ، فكنت لى بمثابة ابن ، واذا كنت قد غبنتك فى كل شىء ، فكل حى يأثم ! .. أليس كذلك أيها المسيحيون الاتقياء ؟ » . وتلفت الى الفلاحين الذين أحاطوا بالمكان . ثم استطرد : « ها هى ذى أمك ، وزوجتك ، وأمر تسريحك . ولست بنادم على النقود ،

وانما .. اغفر لى ، من أجل المسيح ! » .. **وجثا على ركبتيه ، رافعا أطراف معطفه ، وركع على الارض أمام « ايليشــا » وزوجته . وحاول الشابان جهدهما أن يمنعاه ، فلم يمتنع حتى مست جبهته الارض . واذ ذاك نهض قائما ..**

وبكت أم ايليشا وزوجته فرحا ، وانسابت من الجمع كلمات الاعجاب والتقدير ، فقال شخص : « هكذا الانصاف .. هذه هى الطريقة التى ترضى الله ! » . وقال آخر : « ما المال ؟ .. انك لا تملك أن تبتاع امرءا بالمال ! » . وقال ثالث : « وما السعادة ! .. ما من خلاف فى أن الرجل منصف عادل ! » . ولم يسكت عن التحبيذ سوى الفلاحين اللذين كانا مسوقين الى أداء الخدمة العسكرية ، فقد انسحبا الى فناء النزل .

* * *

بعد ساعتين ، انطلقت عربتا دوتلوف ، مجتازتين أطراف المدينة ، وقد جلس الشيخ و « أجنات » فى الاولى ، وراحت تجرها الفرسة السمينة السمراء ، التى تهدل جنباها ، وتفصد العرق من عنقها .. وكانت تهتز خلفهما خيوط علق بها بعض الخبز الذى صيغ فى أشكال طريفة ، والذى كان الفلاح يعتز به كهدية لاسرته ، فى عودته من المدينة .. أما العربة الاخرى — التى لم يكن ثمة من يمسك أعنة جوادها — فقد جلست الزوجة الشابة ، وحماتها ، وقد لفتا رأسيهما فى شالين ، وبدا عليهما الفرح والهناء . وكانت الاولى تمسك — تحت مرولتها — بزجاجة من « الفودكا » . وجلس « ايليشــا » القرفصاء ، موليا الحصان ظهره — وقد اشتد احمرار وجهه ، وراح يقضـــم لقما من رغيف ، وهو لا يكف عن الكلام . **واندمجت الاصوات ، وقرقعة العجلات على أرض الطريق الحجرية ، وصهيل الجوادين ، فى لحن مرح منسجم .. وأخذ الجوادان يضاعفان من سرعتهما ، وهما يذبان الهواء بذيليهما .**

وقد لج بهما الحنين الى البيت .. بينما كان المارة — من مشاة وركوب — يلتفتون ، ليتأملوا الاسرة السعيدة !

وما أن بارح آل دوتلوف المدينة ، حتى صادفوا جماعة من المجندين ، وقف فريق من أفرادها فى حلقة أمام حانة . وكان أحد المجندين يعزف على « البلاليكا » بشدة ، وقد بدا وجهه غير عادى ، كما هى وجوه المجندين عندما يحلق شعر مقدم رؤوسهم ! .. بينما راح آخر يرقص فى وسط الحلقة ، وهو عارى الرأس ، وقد امسك بزجاجة من « الفودكا » فى يده . واستوقف « أجنات » فرسه ، وهبط ليحكم ربط أجزاء سرجها . وأخذ آل « دوتلوف » جميعا يتأملون الراقص فى فضول ، واعجاب ، وطرب . ولم يلح على المجند أنه رأى أحدا ، ولكنه أحس بالاعجاب العام ، فزاده هذا اقبالا وخفة . وراح يرقص بشدة ، وقد عقد حاجبيه ، وتضرج وجهه ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة فقدت كل معنى . **وكان يغمز بعينه الى عازف « البلاليكا » الذى شرع يعزف بحرارة أشد ، ويداعب كل الاوتار ، بل ويدق بعظام أصابعه على ظهر الآلة .** وكان المجند يقف لحظات ، ولكنه يبدو — رغم وقوفه — كما لو كان مستمرا فى الرقص . ثم شرع يهز كتفيه فى بطء . وفجأة ، دار حول نفسه ، وقفز فى الهواء ، مطلقا صرخة عالية ، ثم هبط ، فأقعى ، وبسط احدى ساقيه ، واتبعها بالاخرى . وضحك الصبية ، وهزت النسوة رؤوسهن ، بينما ابتسم الرجال اعجابا . وكان ثمة « جاويش » مسن وقف ساكنا ، وكأنما كانت نظراته تقول : « أو تظنون أنه رائع .. لقد ألفنا هذه الرقصة وحذقناها ! » .

وصاح العازف وهو يشير الى دوتلوف : « اسمع يا اليخا .. هاك كفيلك ! » .. فهتف « اليخا » : « أين ؟ .. أهلا بك يا أعز صديق ! » .. كان هو عين المجند الذى كان دوتلوف قد دفع المال ليحل محل ابن أخيه فى الجندية . وتقدم مترنحا

اذهبى الى قرية (فودنو) ، وسلى عن العجوز « نيكونوفنا » .. انها أمى ! .. سلى عن العجوز نيكونوفنا ، فى الكوخ الثالث ، من آخر الصف ، بالقرب من البئر الجديدة . وقولى لها أن ابنها « اليخا » .. هل فهمت ! .. اعزف أيها الموسيقى ! »

وتمتم بشىء غير مسموع ، ثم عاد يرقص لتوه ، وهو يطوح بالزجاجة وما تبقى فيها من « فودكا » الى الارض . وصعد « أجنات » الى عربته ، وهم بأن يستأنف السير ، فقالت العجوز للمجند ، وهى تلف عباءتها حولها : « وداعا ! ليباركك الرب ! » . فتوقف « أليخا » فجأة ، وصاح وهو يهز قبضتيه فى وعيد : « اذهبى الى الشيطان ! .. لعلك أمك .. » . **ورسمت أم ايليشا الصليب متعوذة . وانطلقت العربتان . ووقف « اليخا » فى وسط الطريق بقبضتين مشدودتين ، ونظرة مهتاجة، وراح يسب الفلاحين بكل ما أوتى من سباب .**

وتهدج صوته ، ثم ارتمى على الارض ، حيث كان يقف !

وسرعان ما بلغ آل « دوتلوف » الحقول ، ولم يعودوا يبصرون جماعة المجندين . وبعد أن قطعوا أربعة أميال ، هبط « أجنات » من عربته — التى كان أبوه قد نام فيها — وسار الى جوار عربة « ايليشا » .. واقتسم مع الشاب زجاجة « فودكا » كانا قد اشترياها من المدينة .. **وان هى الا برهة ، حتى شرع « ايليشا » يغنى ، فانضمت اليه المرأتان ، بينما راح « أجنات » يصيح طربا .** ومرت بهم عربة أنيقة ، كانت تنطلق فى خفة ، فصاح الحوذى فى جياده منتشيا ، والتفت مساعده الى الرجال والمرأتين — الذين كانوا فى العربتين — وغمز بعينه ، بينما كانوا يهتزون مع ارتجاج العربتين ، وقد احمرت وجوههم ، وهم ماضون فى أغنيتهم الطروب !

— « تمت » —

على ساقيه الكليلتين ، وقد رفع زجاجة « الفودكا » فوق رأسه ، وتحرك نحو العربة ، وهو يصيح فى العازف : « هات كوب يا ميشكا ! .. أيها السيد ! أيها الصديق الاعز ! يا له من سرور ! » . وأسند رأسه الكليل الى حافة العربة ، وشرع يدعو الرجال والنساء الى « الفودكا » . فشرب الرجال ، وابت النسوة .. وكانت ثمة امرأة تبيع بعض المأكولات ـ واقفة بين الحشد ـ فلمحها « أليخا » ، وأمسك بصحفتها ، فأفرغ كل محتوياتها فى العربة ، وصاح فى صوت خنقته العبرات ، وهو يخرج كيس نقوده ، ويطوح به الى ميشكا : « سأدفع ، فلا تخافى أيتها اللعينة ! »

ووقف مسندا مرفقيه الى العربة ، متأملا الجالسين فيها من خلف دموعه ، ثم قال : « أين الام .. أهذه أنت ؟ يجب أن أكرمك ! » . ووقف يفكر لحظة ، ثم دس يده فى جيبه ، وأخرج منديلا جديدا ، وأسرع فخلع منديلا آخر كان قد لفه حول وسطه ـ تحت سترته ـ ووشاحا أحمر كان يلفه حول عنقه ، وكورها جميعا ، ثم ألقى بها فى حجر العجوز ، وهو يقول بصوت كان يحتبس تدريجا : « أليك ! .. اننى أقدمها جميعا لك ! » . فقالت العجوز لدوتلوف ، الذى أقبل من عربته : « لماذا كل هذا ؟ .. أنظر طيبة هذا الفتى ! » . **وكان « أليخا » قد سكن تماما ، وبدا مسلوب الحواس ، ولاح كأنه يوشك أن ينام . وأخذ ينكس رأسه رويدا ، وهو يتمتم : « انما أنا ذاهب للجندية من أجلك .. من أجلك أنا ذاهب للهلاك ! هذا هو السبب فى اننى أعطيك هذه الهدايا ! » .. وصاح واحد من وسط الجمع : « أعتقد أن له هو الآخر أما ! يا له من ساذج ! وا أسفاه عليه ! »** . فرفع « أليخا » رأسه ، وقال : « ان لى أما .. ولى اب كذلك ، وقد تخلى عنى الجميع » . ثم تحول الى أم ايليشا قائلا : « اسمعى أيتها العجوز ، لقد منحتك هدايا . أنصتى لى بحق المسيح ! ..

تمهـــــيد

• فى أوائل القرن التاسع عشر ، عندما لم تكن ثمة بعد سكك حديدية ، وولا طرق مرصوفة ، ولا اضاءة بالغاز ، ولا شموع من « الستيرين » (١) ، ولا مركبات منخفضة ذات وسائد مجهزة بزنبركات ، ولا أثاث بدون طلاء لامع ، ولا شباب مغرور ذو عوينات (نظارات) ، ولا فيلسوفات من دعاة التحرر ، ولا أى من « غادات الكاميليا » الفاتنات اللاتى يوجدن فى أيامنا بكثرة .. فى تلك الايام الساذجة ، عندما كان المرء – اذا سافر من موسكو الى بطرسبورج فى مركبة مغلقة ، أو عربة مجهزة بملء مطبخ من المؤن المعدة – يقضى ثمانية أيام فى طريق لينة الارض ، أو متربة ، أو موحلة ، معتمدا على شرائح اللحم المقلوة ، وعلى الكعك العادى ، وعلى اجراس الزحافات .. وعندما كان من الضرورى أصلاح فتائل الشموع المصنوعة من الشحم ، والتى كانت تلتف حولها الجماعات العائلية ، مؤلفة من عشرين وثلاثين شخصا ، فى ليالى الخريف الطويلة .. وعندما كانت قاعات الرقص تضاء بثريات الشمع الشحمى أو الشمع المصنوع من عنبر الحوت .. وعندما كانت قطع الاثاث ترتب فى نظام هندسى دقيق .. وعندما كان آباؤنا لا يزالون شبانا ، لا يكتفون باثبات ذلك بمجرد غياب التغضنات والشعر الاشيب ، وانما بخوض المبارزات من أجل امرأة ، وبالاندفاع من الركن المقابل من حجرة ما لالتقاط منديل ضئيل الحجم أسقط عمدا أو عفوا .. وعندما كانت أمهاتنا يرتدين أثوابا مرتفعة خط

فارسان .. وعذراء !



الوسط ، وأكواما هائلة منتفخة ، ويتخذن القرارات فى الشؤون العائلية عن طريق سحب القرعة (الاقتراع بالورق المطوى) !..

وعندما كانت « غادات الكاميليا » الفاتنات يختبئن من ضوء النهار فى مساكن الماسونية، و« المارتانية » ، و« التوجينبوند » (٢)، فى تلك الايام الطيبة .. أيام الميلوردوفيتشيين (٣) ، والدافيدوفيين (٤) ، والبوشكينيين (٥)

فى تلك الايام ، عقد اجتماع فى مدينة (ك ...) التابعة المحكومة ، حضره أصحاب الاراضى ، وأجريت فيه انتخابات الاعيان (٦)

. . . .

ايضاحات وتعليقات على ما ورد فى التمهيد

(١) الستيرين مادة كيمياوية استخدمت فى صناعة الشموع بدلا من الشحم.

(٢) كانت الماسونية الحرة جماعة سرية فى روسيا ، غرضها الأصلى الاصلاح الخلقى على أسس من المساواة والأخوة العامة . وقد بدأت كحركة دينية ، ثم انقلبت الى حركة سرية ، واضطهدت فى أوائل القرن التاسع عشر. وكانت « المارتانية » جماعة من الماسونيين الروس ، انتسبوا الى الفيلسوف الصوفى الفرنسى « لوى كلود سان مارتان » . أما « التوجينبوند » فكانت جمعية وطنية ألمانية ، اتخذت مثلا فى روسيا للشباب المتحمس ، ولعبت دورا رئيسيا فى التهيئة لحرب سنة ١٨١٣

(٣) نسبة الى « م. هـ. ميلورادوفيتش » الذى ابلى بلاء حسنا فى الحرب ضد نابليون ، وصار حاكما عاما لبطرسبورج ، واغتيل عندما حاول قمع « فتنة ديسمبر » سنة ١٨٢٥

(٤) نسبة الى « د. ف. دافيدوف » ، وكان شاعرا ذا شهرة شعبية ، وزعيما لفرق العصابات فى حرب سنة ١٨١٢

(٥) نسبة الى « ا. س. بوشكين » أعظم شاعر روسى اذ ذاك .

(٦) انتخابات كانت تجرى بين الأعيان ، من أصحاب الألقاب ، والأغنياء ، وأصحاب الأراضى



— « ١ » —

• — لا بأس .. فان قاعة الجلوس (الصالون) تغنى !

قال هذه الكلمات ضابط شاب فى معطف من الفراء ، وقلنسوة كتيبة الفرسان الخفيفة ، وقد غادر لفوره زحافة خط البريد ، وهم بأن يدخل أحسن فندق فى مدينة (ك ...) . وقال خادم الفندق ، الذى استطاع ان يعلم من تابع الضابط ان اسمه « الكونت توربين » ، ومن ثم فقد راح يخاطبه بـ « صاحب السعادة » : « لقد حضر الاجتماع عدد هائل يا صاحب السعادة . على أن مالكة أراضى (أفريموفو) قالت إنها راحلة الليلة ، ومعها بناتها ، ومن ثم فان الحجرة رقم ١١ ستكون تحت أمركم بمجرد رحيلهن !.» . وراح يخطو بخفة أمام « الكونت » وهو لا يكف عن التلفت حوله .

وفى قاعة الجلوس العامة ، والى منضدة صغيرة — تحت صورة مغبرة بالحجم الطبيعى للامبراطور الكساندر الاول — جلس عدد من الرجال ، يشربون «الشمبانيا» ، ولعلهم كانوا من اعيان المنطقة .. بينما جلس فى الطرف الآخر من القاعة، بعض الرحالة .. تجار فى معاطف زرقاء ، مبطنة بالفراء ! .

ودخل الفارس القاعة مناديا « بلوخر » .. وهو كلب مغبر اللون ، هائل الحجم ، أحضره معه . وخلع « الكونت » معطفه الذى كانت ياقته لا تزال مكسوة بالصقيع الابيض ، وصاح يطلب « فودكا » ، وجلس الي المائدة فى سترته القوزاقية

الحريرية الزرقاء ، واندمج فى حديث مع السادة الموجودين . **وسرعان ما اجتذبتهم اليه طلعة القادم المليحة الصريحة ، فقدموا اليه قدحا من « الشمبانيا » . واحتسى الكونت قدحا من « الفودكا » - باديء ذى بدء - ثم طلب زجاجة أخرى من « الشمبانيا » ، ليكرم معارفه الجدد** . وأقبل سائق الزحافة ليسأل الكونت مكافأة (بقشيشا) . فصاح الكونت : « ساشكا ! اعطه شيئا ! »

وخرج السائق مع « ساشكا » ، ولكنه عاد ثانية والنقود فى راحته ، وهو يقول : « انظر يا صاحب السعادة .. ألم أبذل قصارى جهدى من اجل فخامتكم ؟ .. ألم تعدنى بنصف روبل ؟ .. ولكنه لم يعطنى سوى ربع روبل ! »

- اعطه « روبل » يا ساشكا !

فغض « ساشكا » بصره ، ونظر الى قدمى السائق ، ثم قال بصوت منخفض : « يكفيه ما أخذ ! .. ثم انه لم تعد معى نقود ! » . وجذب الكونت من حافظة نقوده ورقتين ماليتين من فئة الخمسة روبلات ، كانتا كل ما احتوته الحافظة ، فأعطى احداهما للسائق الذى قبل يده وانصرف .

وقال الكونت : « لقد استنزفت كل ما كان معى ! .. هذه الروبلات الخمسة هى آخر ما معى ! » . فقال أحد النبلاء : « هكذا عادة ضباط كتيبة الفرسان الخفيفة يا كونت ! » . وكان يبدو من شاربيه ، وصوته ، وبعض الحركات المتحررة من ساقيه ، انه كان من الفرسان المتقاعدين . وما لبث أن تساءل : « أتراك ستقيم هنا بعض الوقت يا كونت ؟ »

- لا بد لى من الحصول على بعض المال . وما كنت لانزل هنا اطلاقا ، لولا هذا .. ومع ذلك ، فلا غرف يمكن الحصول عليها فى هذا النزل اللعين .. الا فليتخطفهم الشيطان !

فقال الضابط الفارس المتقاعد : « الا اسمح لى ياكونت .. هلا شاطرتنى غرفتى ؟ .. ان غرفتى هى رقم ٧ ، فاذا لم

يسؤك هذا ، فلك ان تشاطرنيها الليلة ..ثم ، الا تمكث معنا يومين ؟ .. ومن المصادفات ان « ماريشال طبقة النبلاء » يقيم الليلة حفلة راقصة . ولسوف تزيده سعادة اذا أنت ذهبت ؟ »

وقال آخر ، وكان شابا وسيما : « أجل يا كونت ، الا أمكث معنا ! .. من المؤكد أن ليس هناك من داع لتعجل الرحيل ! انك لتعلم انها لا تحدث الا مرة كل ثلاث سنوات .. اعنى الانتخابات . وجدير بك أن تلقى نظرة على سيداتنا الشابات .. – على الاقل – ياكونت ! » . فنهض الكونت قائلا : « ساشكا ، أعد ثيابا داخلية نظيفة ، فانني ذاهب الى الحمام (١) . وربما القيت نظرة على حفلة الماريشال بعد ذلك »

ثم نادى الساقى وهمس اليه بكلمات ، اجاب عنها هذا ، وهو يبتسم : « ان هذا أمر يمكن تدبيره ! » (٢) . وخرج الساقى .. وخرج الكونت . وما لبث أن صاح من الردهة : « اذن فسآمر بنقل حقيبتى الى حجرتك ايها الزميل العزيز ! » . فصاح ضابط الفرسان المتقاعد : « أرجو ان تفعل ، فلسوف يسعدنى هذا كل الاسعاد ! » . وهرع الى الباب مردفا : « الحجرة رقم ٧ .. لا تنس ! »

* * *

وعندما لم يعد وقع خطى الكونت مسموعا ، عاد الضابط الفارس المتقاعد الى مكانه ، فجلس بجوار موظف حكومى كان بين الحضور ، وحملق فى وجهه مباشرة ، وقال وعيناه

---

(١) كانت الحمامات فى روسيا ، على نمط ما نعرفه اليوم بـ « الحمام التركى » .. مؤسسات عامة يذهب اليها المرء ، حيث يتعرض للبخار لطرد العرق .

(٢) كان من المألوف أن يقترن الحمام بامرأة ، وهذا ما اتفق عليه الكونت مع ساقى الفندق

تبتسمان : « انه نفس الرجل ، كما ترى ! »

ـ كلا !

ـ أؤكد لك انه هو ! .. نفس ضابط كتيبة الفرسان الخفيفة ، البارع فى المبارزة .. توربين الشهير ! .. ولا بد انه عرفنى .. اراهنك ـ على اى مبلغ شئت ـ أنه عرفنى. وكيف لا ؟ .. لقد قضينا فىاللهو معا ثلاثةاسابيع متواصلة، عندما كنت فى (لبيديانى) ،حيث نعمنا بألعابالفروسية (١). وكان ثمة شىء واحد ، وفق فيه كل منا .. هو وأنا .. انه لشاب بديع . اليس كذلك ؟

ـ أنه لشاب رائع .. وان اخلاقه لتشرح الصدر ! فهو لا يبدى ذرة من .. ماذا يسمونه ؟

وقال الشاب الوسيم : « ما أسرع ما توثق الود بيننا ، وزالت الكلفة .. انه لم يتجاوز الخامسة والعشرين .. اتراه تجاوزها ؟ »

ـ آه ، كلا .. انه يبدو هكذا ، ولكنه فوق هذه السن . ان على المرء انيعرفه عنكثب ، ليدركهذا الامر ، كما تعلم.. من الذى سلب « ميجونوفا » مجده ؟ .. انه هو ! وهوالذى قتل «سابلين» . وهو كذلك الذى أمسك بساقى «ماتنئيف» وطوح به من النافذة .. وهو الذى ربح ثلاثمائة ألف روبل من الامير نيستوروف .. **انه لشيطان مريد ، جسور فى كل شىء : مقامر ، ومبارز ، وفاتن يغوى الحسان .. انه لدرة فى كتيبة الفرسان الخفيفة .. لؤلؤة حقيقية !** .. ان الشائعات التى تحوم حولنا لاتقاس بالحقيقية فى شىء .. اذا قدر للمرء ان يعرف فرسان الكتيبة الخفيفة على حقيقتهم ! .. آه ، تلك كانت أوقات وانقضت !

---

(١) لبيديانى بلدة فى مقاطعة (تامبوف) ، اشتهرت باسواق الخيل ومهرجانات الفروسية

وراح الفارس المتقاعد يروى لمحدثه عن فترة اللهو قضاها مع الكونت فى (لبيديانى) ، لم يحظ بمثلهـــا ، بل وما كان بوسعه أن يحظى بمثلها قط .

ومع ذلك فما كان من الممكن أن تكون قد حدثت .. أولا ، لانه لم يكن قد رأى الكونت قبل ذلك اليوم ، وقد ترك الجيش قبل أن يلتحق به الكونت بعامين .. وثانيا ، لان الفارس المتقاعد لم يخدم فى فرقة الفرسان اطلاقا ، وانمــا ظل أربع سنوات فى أدنى مراتب الناشئين فى كتيبة (بليفسكى) ، وقد تقاعد بمجرد أن قدر له ان يحظى برتبة الضابط .. بيد انه ورث ــ منذ عشر سنوات ــ بعض المال ، وزار (لبيديانى) فعلا ، حيث بدد سبعمائة روبل مع بعض ضباط كانوا قـد ذهبوا الى هناك لشراء خيل .. بل أنه ذهب الى أبعـــد من هذا ، فأمر بأن تصنع له بزة رسمية على نمط الزى الخاص بفرسان « الاوغلان » ، ذات وشى برتقالى فى صدرها ، معتزما أن يلتحق بكتيبة من كتائب « الاوغلان » . وقد ظلت هـذه الرغبة فى الالتحاق بالفرسان ، والاسابيع الثلاثة التى قضاها مع الضباط الفرسان فى لبيديانى من أسعد ذكريات حياته وأكثرها تألقا. **ومن ثم فقد حول الرغبة ــ فى بادىء الامر ــ الى حقيقة ، ثم الى ذكرى واقعية ، وتعود أن يعتقد اعتقادا وطيدا بماضيه كضابط من الفرسان .. وكلها أشياء لم تحل دون أن يكون من أكثر الرجال مكانة ، من حيث اللطف والامانة !**

وقال : « أجل ، أن أولئك الذين لم يقدر لهم أن يخدموا فى سلاح الفرسان ، لا يستطيعون أن يفهمونا اطلاقا ! »

وجلس فى مقعده منفرج الساقين ، وكأنه على صهوة جواد ، ودفع فكه السفلى فى زهو ، وشرع يقول بصـــوت منخفض وقور : « انك لتركب على رأس فصيلتك ، لا جوادا من الجياد العادية ، وانما شيطانا يتجسد حصانا يقفز متوثبا تحتــك ، فلا تملك سوى أن تجلس مستهترا ، مستـخفا .. ويركب

قائد الفصيلة مستعرضا فرسانه ، فيقول : « اننا لا نستطيع أن نستغنى عنك ايها الملازم .. تفضل بقيادة الفصيلة فى طابور استعراضى » .. فتقول : « حسنا ! » .. وهكذا تروح تلف وتدور ، وتصيح فى زملائك ذوى الشوارب .. آه ، ليتخطفها الشيطان .. تلك الايام ! »

* * *

وعاد الكونت من الحمام شديد الحمرة ، مبتل الشعر ، فمضى مباشرة الى الحجرة رقم ٧ ، حيث كان الفارس المتقاعد جالسا فى ثوب الغرفة (الروب دى شامبر) ، وهو يدخن غليونه ، يفكر فى سرور - وان لم يخل من التوجس - فى السعادة التى حلت به ، اذ شاطر « توربين » الشهير غرفة .. وكان يقول لنفسه : « ولكن ، هب انه يمسك بى فجأة ، ويجردنى من ثيابى ، ويسوقنى الى أبواب المدينة ، ويلقى بى فى الجليد .. أو يجللنى بالقار .. أو يكتفى بأن .. » . ثم يستدرك ليسرى عن نفسه : « ولكن ، لا .. انه لا يرتضى لنفسه أن يفعل هذا بزميل »

وفى تلك اللحظة ، صاح الكونت ، وهو يلج الغرفة : « ساشكا .. اطعم بلوخر ! »

وأقبل « ساشكا » الذى كان قد تناول زجاجة من « الفودكا » لينعش نفسه من عناء الرحلة ، فراح يترنح بما لا يدع شكا فى أنه قد ثمل . وصاح الكونت : « عجبا ، أتثمل منذ الآن ؟ ! .. أكنت تشرب أيها الوغد ! .. هيا اطعم بلوخر ! » . فأجاب ساشكا وهو يربت ظهر الكلب : **« انه لن يموت جوعا على أية حال .. الا انظر كيف انه ناعم ! »**

- اخرس ! .. اخرج واطعمه !

- **انك تهتم بأن يتغذى الكلب .. اما حين يشرب الرجل قدحا ، فانك تؤنبه وتزجره !**

فصرخ الكونت بصوت ارتجله زجاج النوافذ .. بل وداخل الخوف – من جرائه – قلب الفارس المتقاعد ، بعض الشيء : « هاى ! .. لسوف أسوطك ! » . فدمدم ساشكا : **« كان خليقا بك أن تسأل عما اذا كان ساشكا قد ظفر بلقمة فى يومه ! .. أجل ، اضربنى ما دمت تفكر فى الكلب أكثر مما تفكر فى رجل ! »** . ولكنه – عند هذا الحد من دمدمته – تلقى لكمة فظيعة أصابت وجهه ، من قبضة الكونت ، فوقع ، وارتطم رأسه بحافة الجدار .. وأمسك بأنفه وهو يهرب من الحجرة ، ليرتمى على مقعد فى الردهة .

وأخذ ساشكا يزمجر ويئن ، مرددا : **« لقد حطم أسنانى ! »** .. وباحدى يديه راح يمسح أنفه الذى تفصد الدم منه ، بينما كان يحك – بيده الاخرى – ظهر « بلوخر » الذى كان يلعق جسده بلسانه . واستطرد ساشكا يحدث الكلب : **« لقد حطم أسنانى يا بلوخى ، ولكنه – رغم ذلك – سيدى الكونت ، وانى لاخوض النار من أجله .. أجل ! فهو .. هو كونتى . أتفهم يا بلوخى ؟ .. أتريد عشاءك ؟ هه ؟ »**

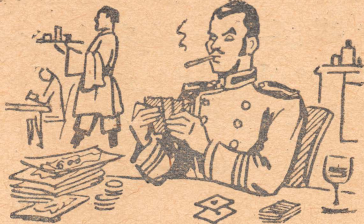
وبعد أن ظل مستلقيا ساكنا لبرهة ، نهض فأطعم الكلب ، ثم سعى الى خدمة سيده الكونت ، وقد أفاق تقريبا من تأثير الشراب ، فتهيأ ليقدم له الشاى .

وكان الفارس المتقاعد يقول فى تلطف وتقرب ، وهو يقف أمام الكونت الذى استلقى فى سرير الرجل ، ومد ساقيه الى الجدار : « الحق اننى سأشعر بجرح لكرامتى . فأنت ترى اننى عسكرى قديم ، و .. زميل ، اذا جاز لى أن أقول ذلك . فلماذا تقترض من أى امرىء آخر ، اذا كان يسرنى أن أقرضك مائتى روبل ؟ .. ان المبلغ ليس معى بأكمله الآن ، وانما معى منه مائة روبل .. على اننى سأحضر الباقى اليوم .. لسوف تجرح شعورى حقا يا كونت ، اذا أنت أبيت ! »

وقال الكونت ، وقد أدرك لفوره نوع العلاقات التى كان

لا بد من أن تقوم بينهما ، فدق بيده كتف الفارس : **« شكرا ، ايها الصديق الحميم ! شكرا ! .. ليكن لك ما شئت اذن ، وسنذهب الى حفلة الرقص ، اذا لم يكن من ذلك بد . ولكن ، ماذا نفعل الآن ؟.. حدثنى عما أوتيتم فى بلدتكم هذه .. أى نوع من الحسان ؟ وأى رجال أهل لان يكونوا زملاء فى اللهو ؟ وأية مقامرات تعقد ؟ »**

فأخذ ضابط الفرسان يبين له أن الحفل سيكون غاصا بكثيرات من المخلوقات البديعة ، وان « كولكوف » ـ الذى أعيد انتخابه قائدا للبوليس ـ كان خير زميل فى اللهو ، وان كانت تعوزه روح ضباط الفرسان الحقة .. كان رجلا رائعا، فيما عدا ذلك ، حقا .. كذلك كانت فرقة الموسيقى الغجرى « ايليوشين » فى المدينة تقيم حفلاتها الغنائية ـ منذ بدأت الانتخابات ـ بقيادة « ستيشكا » ، وان كل امرىء كان يعتزم الذهاب لسماع اغانيها ، بعد الانصراف من دار الماريشال، فى تلك الليلة .. ومضى قائلا : « وهناك كثير من العاب المقامرة كذلك .. لسوف يلعب « لوخنوف » الورق ، وقد أوتى نقودا كثيرة . وهو يقيم هنا خلال رحلته .. وقد خسر « ايلين » ـ وهو حامل العلم فى سرية من فرسان «الاوغلان»، ويشغل الحجرة رقم ٨ ـ مبلغا كبيرا أثناء اللعب معه . ولقد شرعا فى اللعب فى هذه الحجرة بالذات ، وأصبحا يلعبان كل ليلة . ويالايلين هذا من شاب بديع ! .. أؤكد لك يا كونت انه ليس مقترا او بخيلا ، بل انه ليتخلى عن آخر قميص على جسده ، راضيا ! » . فقال الكونت : « حسنا ، اذن فلنذهب الى حجرته ، ولنر أى نوع من القوم أولئك الذين يلعبون هناك !» . وقال الآخر : « اجل ، هيا .. لسوف تتملكهم فرحة الشيطان نفسه ! »



« ٢ »

• لم يكن قد مضى وقت طويل على استيقاظ « ايلين » ، حامل العلم فى كتيبة فرسان « الاوغلان » . فقد جلس – فى الليلة السابقة – الى أوراق اللعب فى الساعة الثامنة مساء ، وراح يخسر باطراد لخمس عشرة ساعة بأكملها .. أى الى الساعة الحادية عشرة من الصباح التالى . ولقد خسر مبلغا كبيرا ، ولكنه لم يعرف مدى ضخامته تماما . **فقد كان معه حوالى ثلاثة آلاف روبل من نقوده الخاصة ، وخمسة عشر ألفا من الروبلات ، من أموال التـــاج التى امتزجت بأمواله الخاصة منذ مدة طويلة ، حتى أصبح يخشى أن يحسب ما معه ، حتى لا تتأكد مخاوفه من أن قسطا من أموال التاج قد تبدد !**

وكان النهار قد انتصف تقريبا ، عندما استسلم للنعاس ، فحظى بذلك النوم العميق ، الخالى من الاحلام ، الذى لا ينعم به سوى الشبان الصغار فى السن ، عقب أن يمنوا بخسارة فادحة . وما أن استيقظ فى الساعة السادسة من المساء – فى عين الوقت الذى وصل فيه الكونت توربين الى الفنـدق – وأبصر الارض حوله وقد تناثرت عليها أوراق اللعب ، وبقايا أقلام الطباشير ، ورأى الموائد فى وسط الحجرة مجللة بعلامات الطباشير ، حتى تذكر – فى جزع – لعب الليـلة الماضيـة ،

والورقة الاخيرة ـ وكانت « فاليه » ـ التى خسر عليها خمسمائة روبل .. علىأنه لم يكن قد اقتنع بعد تمام الاقتناع بكل هذا ، فأخرج نقوده من تحت الوسادة ، وشرع يعدها .. وتبين بينهـا بعض أوراق مالية تنقلت من يد الى أخـرى ، فتـذكر كل تطورات اللعب .. **ولم يكن قـد تبقى معه شيء من الثـلاثة آلاف روبل التى كانت من ماله الخاص ، كما أن حوالى ألفين وخمسمائة روبل من أموال الحـكومة كانت قد ولت .. فلقد قضى « إيلين » أربع ليال متوالية ، فى اللعب !**

كان قد أقبل من موسكو ، حيث عهد اليه بذلك المبلغ من أموال التاج ، فلما بلغ (ك ...) عطله المشرف على مركز البريد (١) بحجـة أنه لم تكن هناك جيـاد . ولكن السبب الحقيقى تمثل فى انالمشرف كانعلى اتفاق معصاحب الفندق على أن يعطل المسافرين يوما عن مواصلة أسفارهم ! .. ولقد سر فارس « الاوغلان » ، الذى كان شابا فى غضارة الصبا ، تلقى من والديه ـ فى موسكو ـ ثلاثة آلاف روبل ليجهز نفسه للالتحاق بكتيبته .. سر بقضاء بضعة أيام فى بلدة (ك ...) ابان الانتخابات ، أملا فى أن يمتع نفسه الى أقصى حد . وكان يعرف سيدا من أصحاب الارض ، ذا أسرة ، فراح يفكر فى زيارته ، وفى مغازلة بناته .. **واذا بالفارس المتقاعـد يتعرف اليه ، فى تلك الاثناء ، ثم يقدمه ـ دون ما سـوء نية ـ الى معارفه فى قاعة الجلوس العامة ، أو القاعة العامة فى الفندق ، فى المساء ذاته .. وكان هؤلاء المعارف هم « لوخنوف » وغيره من المقامرين** . ومنذ ذلك الحين ، عكف ضابط « الاوغلان » على لعب الورق ، ولم يعد يسأل مركز البريد عن جيـاد .. وأصبح أقل رغبة فى الذهاب لزيارة صاحب الارض الذى كان

(١) كان البريد ينقل اذ ذاك فى عربات وزحافات خاصة ، يسمح للمسافرين بأن يسافروا فيها ، أو بأن يستأجروا الجياد من مركز الى آخر

يعرفه .. بل أنه لم يبرح حجرته اربعة أيام بطولها !

* * *

واذ ارتدى ثيابهواحتسى الشاى ،سار الى النافذة . وشعر بميل الى أن يخرج ويتمشى ويتخلص من الافكار التى راحت تطارده ، فارتدى معطفه وخرج الى الطريق . وكانت الشمس قد توارت خلف المنازل البيضاء وسقوفها الحمراء ، وأخذت الظلمة تزحف .. وكان الجو دافئا بالنسبة لما هو مألوف فى الشتاء ، ومع ذلك فقد كانت كسف عريضة من الثلج تتساقط فى بطء الى الطريق الموحلة .. وفجأة ، غشى الشاب أسى لايطاق ، اذ تذكر أنه نام طيلة النهار الذىاشرف على نهايته.

وقال لنفسه : « ان هذا اليوم ، الذى يحتضر الآن ، لا يمكن أن يسترد ثانية!» .. ثم قال لنفسه فجأة : « لقد دمرت شبابى!» ..لميقلها لانهفكر حقا فىأنهقد دمر شبابه ـ فالواقع أن هذا لم يخطر بباله اطلاقا ـ وانما قالها لانها عرضت لذهنه مصادفة ! .. وعاد يسائل نفسه : « ما الذى ينبغى أن أفعله الآن ؟ .. أأقترض من شخص ما ، وأبادر الى الرحيل ؟ » .. ومرت به فى تلكالاثناء سيدة كانت تسير على الرصيف ، فقال لنفسه لسبب لم يدره : « ها هى ذى امرأة غبية ! » . ثم عاد يقول : « ما من أحد هنا اقترضمنه .. لقد دمرت شبابى !»

وبلغ السوق ، فاذا بتاجر يقف لدى باب حانوته ـ فىمعطف من فراء الثعلب ـ يجتذب العملاء .. ومضى الشاب يقول لنفسه : « لو لم أسحب تلك الثمانية ، لكنتقد استطعت أن أن أعوض خسائرى ! » .. وتبعته متسولة عجوز ، لا تكف عن الغمغمة .. وظل هو يردد : « ما من أحد أقترض منه ! » .. ومر به رجل فى معطف من جلد الدب ، يسوق عربة .. وكان ثمة شرطى يقف فى المركز المعين له .. وراح الشاب يقول لنفسه : « أى عمل غير عادى أستطيع أن آتيه ؟ أأطلق النار

عليهم ؟ لا ، أن هـذا غباء .. لقـد دمرت شبابي ! .. آه ، ها هي بعض سروج بديعة لاعناق الخيل ، وركابات ، معلقة هناك ! آه ، لو كان بوسـعى أن أنطلق فى عربة تجـرها ثلاثة جياد .. واها للحسان هنـاك ! .. لسوف أعود . وسيأتى « لوخنوف » عما قليل . ونلعب ! »

وعاد الى الفندق ، فأخذ يحصي نقوده من جديد .. لا ، لم يكن قد أخطأ فى شيء — فى المرة الاولى — فلا يزال ينقص نقود التاج ألفان وخمسمائة روبل .. وقال لنفسه : « **سأرمى خمسة وعشرين روبل ، ثم أطلب كشف الورق .. سأضاعفها الى سبعة أمثالها ، ثم الى خمسة عشر مثلا ، ثم ثلاثين ، ثم ستين .. ثلاثة آلاف روبل . واذ ذاك سأبتاع أطواق الجياد ، وارحل .. لن يدعنى الوغد أفلت ! .. لقد دمرت شبابى ! »**

وهذا ما كان يدور فى رأس فارس « الاوغلان » عندما دخل عليه « لوخنوف » الحجرة ، وسأله وهو يرفع — فى تباطؤ — العوينتين الذهبيتين عن أنفه النحيل ، ويمسـحهما بمنديل حريرى أحمر ، فى عناية : « هل استيقظت منذ أمد طويل يا ميخائيل فاسيليتش ؟ »

— لا ، بل اننى لم أستيقظ الا من أمد قصير .. لقد نمت نوما عميقا ، على غير عادتى !

— لقد وصل أحد ضباط كتيبة الفرسان الخفيفة ، على ما أعتقد .. وقد نزل على حجرة زافالشيفسكى . هل سمعت به ؟

— لا ، لم أسمع .. ولكن ، كيف تعلل عدم وصول أحد الى هنا حتى الآن ؟

— لا بد أنهم ذهبوا الى دار برياخين .. ولن يلبثوا أن يأتوا الى هنا فورا .

وهذا ما حدث فعلا ، فبعد قليل وفد على الحجرة أحد ضباط الحامية — وكان قد اعتاد أن يلازم «لوخنوف» دائما — وتاجر يونانى له أنف ضخم أسمر معقوف وعينان سوداوان

غائرتان ، ورجل سمين منتفخ من أصحاب الارض ، وصاحب مصنع للتقطير اعتاد أن يلعب فى كل الامسيات ، وأن يراهن بمبالغ رمزية ، تتمثل دائما فى نصف روبل فى كل مرة ..
ورغب الجميع فى أن يبدأوا اللعب بأسرع ما يمكن ، ولكن المقامرين الرئيسيين لم يشيروا الى الموضوع بشىء ، لا سيما لوخنوف الذى راح يروى – فى صوت هادىء للغاية – قصة سرقة وقعت فى (موسكو) . وأخذ يقول: «تصوروا.. مدينة مثل موسكو، العاصمة التاريخية ، والمركز الرئيسى للدولة .. فيها رجال يتنكرون فى زى شياطين ، وينطلقون فى أرجائها مع قطاع الطرق ، يرهبون الاغبياء ويسرقون المارة .. هذه هى النهاية ! .. فيم اذن وجود الشرطة ؟ .. هذا هو السؤال ! »

وأنصت فارس « الاوغلان » الى قصة اللصوص بانتباه . ولكنه ما لبث – عندما ساد الصمت برهة – أن نهض وأمر بهدوء بشراء ورق للعب . وكان صاحب الارض البدين هو أول المتكلمين ، اذ تساءل : « وبعد يا سادة .. فيم تبديد الوقت الثمين ؟ اذا كنا نريد العمل ، فلنبدأ ! » .. وقال اليونانى : « أجل ، فأنت قد انصرفت بكومة من أنصاف الروبلات ليلة أمس ، ولهذا فقد أحببت العملية ! » .. وقال ضابط الحامية : « أعتقد أننا يجب أن نبدأ ! »

ونظر « ايلين » الى « لوخنوف » ، فسدد لوخنوف بصره اليه – فى هدوء – وهو يستأنف رواية قصته عن اللصوص الذين تزيوا بزى الشياطين ، واصطنعوا لانفسهم مخالب . وسأل فارس الاوغلان صاحبه : « هل تتولى (البنك) ؟ »

– ألا ترى أن الوقت جد مبكر ؟

فصاح فارس الاوغلان ، وقد تضرج وجهه لسبب غير معروف : « مرحى ! .. آتونى بشىء للعشاء ، فما تناولت بعد شيئا ، أيها السادة ! .. زجاجة من الشمبانيا ، وبعض مجموعات من أوراق اللعب ! »

وفى تلك اللحظة ، ولج الكونت وزافالشيفسكى الحجرة . وظهر أن « توربين » و « ايلين » كانا يتبعان فرقة واحدة ، فمال كل منهما الى الآخر فورا ، وتقارعا الكؤوس ، واحتسيا الشمبانيا معا ، وتوثقت بينهما الالفة والمودة فى خمس دقائق ! .. ولاح أن الكونت قد أحب « ايلين » كثيرا ، فقد راح ينظر اليه مبتسما ، ويداعبه مازحا بشأن صغر سنه . فقد قال : « هاكم أوغلانى من الصنف الصحيح ! .. يا لشاربيه ! .. عجبا ، أى شاربين هذان ! »

وكان ما لدى ايلين من شاربين ، لا يتجاوز خطا خفيفا ، من زغب أبيض ! .. وعاد الكونت يقول : « أحسبك ستلعب ؟ .. حسنا ، أتمنى لك حظا يا ايلين! » . ثم أردف وهو يبتسم : « ما أخالك الا أستاذا فى اللعب ! » . فقال لوخنوف ، وهو يمزق غلاف علبة ضمت اثنتى عشرة مجموعة من ورق اللعب : « أجل .. ولسوف يبدأون اللعب ، وستنضم أنت الآخر يا كونت .. أليس كذلك ؟ »

ـ لا ، ليس اليـوم ، فانى قمين بأن أجردكم جميعا من نقودكم اذا لعبت .. اننى حين أبدأ فى « الاهتمام » الصادق باللعب ، فان (البنك) يشرع فى التداعى! .. لقد نظفوا جيوبى فى احدى المحطات القريبة من (فولوتشوك) ، فقد التقيت هناك بشاب من فرقة المشـــاة ، يزين أصابعه بخواتم .. وأحسب أنه غشاش .. وقد استطاع أن يجردنى تماما من نقودى !

فسأله ايلين : « ولماذا أطلت المكث فى تلك المحطة ؟ »

ـ انما جلست هناك أربعا وعشرين ساعة . ولن أنسى قط تلك المحطة اللعينة !.. ولن ينسانى المشرف عليها ، هو الآخر ..

ـ وكيف ذلك ؟

ـ لقد وصلت فى مركبتى الى هناك ، كما هو معروف . واذا بالمشرف على المحطة يندفع لاستقبالى ـ وقد بدا كقاطع

الطريق - وبادرنى قائلا : « لا جياد ! » . وجدير بى أن أخبركم - عند هذه النقطة - ان من عادتى اذا لم أجد جيادا ، أن لا أخلع معطفى المصنوع من الفراء ، وأن أذهب الى غرفة المشرف .. أجل ، الى غرفته الخاصة ، وليس الى الغرفة العامة .. وأمرت بأن تفتح جميع النـوافذ والابواب ، متعللا بأن جو الغرفة كان مشبعا بالدخان .. أجل ، هذا ما فعلته هناك . وأنتم تذكرون أى صقيع نزل علينا فى الشهر الماضى .. كانت درجة الحرارة حوالى العشرين درجة ! (١) .. وشرع المشرف يجادلنى ، فلكمت رأسه . وكانت ثمة امرأة عجوز ، وبنات ، ونسوة أخريات ، اشتركن جميعا فى اثارة الشغب والتقطن أوعيتهن وأوانيهن وقد عولن على أن يندفعن صوب القرية . فسرت الى الباب ، وقلت : « آتونى بجياد ، أرحل للفورى . فان لم تمكنونى ، فلن يخرج منكم أحد ، وسأدع التيار المنساب من النوافذ يجمد الدم فى عروقكم ! »

وصاح مالك الارض البدين ، وهو يتقلب فى مقعده لفرط الضحك : « انها لخطة جهنمية رائعة ! .. انها الطريقة التى يقضون بها على الصراصير بالتجمد ... »

- ولكننى لم أكن حذرا فى انتباهى ، فاستطاع المشرف ان يخرج من المبنى مع النسوة ، ولم تبق سوى امرأة عجوز ، جلست على الفرن رهينة .. وأخذت تعطس وتتلو صلواتها . وما لبثنا أن شرعنا نتفاوض بعد ذلك ، فأقبل المشرف وأخذ يغرينى - عن بعد - بأن أخلى سبيل المرأة العجوز . ولكنى أطلقت عليه « بلوخر » قليلا .. و « بلوخر » رائع فى مداعبة المشرفين على محطات البريد ! .. ومع ذلك ، فان الوغد ظل يأبى أن يمكننى من الحصول على الجياد قبل صـــباح اليوم

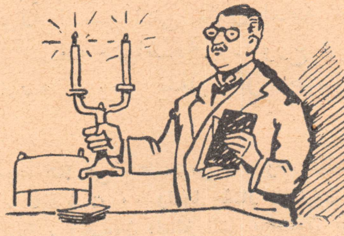
---

(١) ٢٠ درجة بمقياس ريامور ، وهى تعادل ٢٥ درجـة مئوية . ويلاحظ أن درجة الحرارة العادية للانسان حوالى ٣٠ درجة ريامور ، أى ٣٧ مئوية .

التالى .. وفى تلك الاثناء ، أقبل ذلك الشاب التابع للمشاة ، فانضممت اليه فى حجرة أخرى ، وشرعنا نلعب ... هل رأيتم بلوخر ؟

ورفع عقيرته بالنداء : « بلوخر ! » ، واردفه بصفير . فأقبل « بلوخر » مهرعا .. وتلطف اللاعبون فأبدوا نحوه بعض الاهتمام ، وان كان من الجلى أنهم كانوا راغبين فى الانصراف الى مسائل أخرى غير هذه .. وما لبث توربين أن قال : « ولكن ، لماذا لا تلعبون يا سادة ؟.. أرجو أن لاتدعونى أحول بينكم وبين اللعب ، فأنا ثرثار ، كما ترون .. ان اللعب لعب ، سواء شاء المرء أو لم يشأ ! »

- « ٣ » -



• **قرب** « لوخنوف » شمعتين من مجلسه ، وأخرج حافظة نقود كبيرة ، بنية اللون ، مليئة بالاوراق المالية ، ففتحها على المنضدة بتؤدة ـ وكأنه يؤدى بعض الطقوس ـ وتناول منها ورقتين من فئة المائة روبل ، فوضعهما تحت أوراق اللعب . وقال وهو يسوى من وضع عوينتيه ، ويفتح مجموعة من أوراق اللعب : « مائتان للبنك .. تماما كأمس ! » . فقال ايلين وهو ماض فى حديثه مع توربين ، دون أن ينظر الى لوخنوف : « حسنا جدا ! »

وبدأ اللعب (١) . واخذ لوخنوف يوزع الاوراق فى دقة الآلهة ، متوقفا من آن لآخر عن تعمد ، ليكتب رقما ، أوليوجه من فوق حافتى عوينتيه نظرة صارمة ، وهو يقول فى صوت منخفض ، ملىء بالنبرات : ((ناول !)) . وكان صاحب الارض البدين هو أعلى الجميع صوتا فى كلامه ، وهو يجادل نفسه جهارا ، ثم يرطب أصابعه الممتلئة الطرية ، عندما يثنى ركن ورقة . وكان ضابط الحامية يسجل فى صمت ودقة المبالغ التى يراهن بها على ورقته ، ويثنى أطرافا صغيرة من الاركان، تحت المنضدة . أما اليونانى فكان يجلس بجوار المشرف على (البنك) ، يراقب اللعب بانتباه - بعينيه الغائرتين - وهو يبدو كمن يترقب شيئا . وكان « زافالشيفسكى » يقف بجوار المائدة ، ثم لا يلبث أن يتململ فى وقفته فجأة ، ويتناول من جيب سرواله (بنطلونه) ورقة مالية حمراء أو زرقاء (٢) ، فيضعها على ورقة اللعب التى تكون أمامه ، ثم يدق عليها بكفه ، قائلا : « سبعة متواضعة .. وزع لى ! » . ويروح يعض طرفى شاربيه ، وهو ينقل ثقل جسمه من قدم الى

---

(١) اللعبة المقصودة هنا هى « الشتوس » ، وقد كانت رائجة فى روسيا. وعفى عليها الزمن ، فانقرضت .. وفيها يختار اللاعبون لأنفسهم أوراقا من مجموعات على المائدة ، ويضعون المبالغ التى يراهنون بها على أوراقهم أو تحتها . ويحتفظ المشرف على « البنك » بمجموعة كاملة من الأوراق ، يوزع منها على الجالسين الى اليمين والجالسين الى اليسار ، على التوالى . فالأوراق التى توزع الى اليمين يكون كسبها له ، والتى توزع الى اليسار ، يكون كسبها اللاعب . ومن مصطلحاتها « ناول ! » ، لتذكير اللاعبين بتسليم المبالغ التى يكونون مدينين بها للبنك ، و « مفردات » أى مراهنات فردية . ويضاعف اللاعب رهانه مرتين أو ثلاثا بأن يثنى أركان الورقة التى فى يده ليكشفها ، اذ تكون موضوعة وظهرها الى أعلى .. و « التمرير » يضاعف الرهان ستة أمثاله .

(٢) كانت الأوراق ذات الخمسة روبلات زرقاء .. وذات العشرة حمراء.

قدم ، ولا يكف عن التململ الى أن توزع عليه ورقة أخرى ..

وراح « ايلين » يأكل شرائح من لحم البقر والخيار المملح ، وضعت على أريكة من شعر الخيل ، ثم أسرع فمسح يديه في سترته ، وأخذ يلقى ورقة بعد أخرى . **أما « توربين » الذى كان جالسا ـ فى بادىء الامر ـ على الاريكة ، فانه سرعان ما أدرك تطورات الموقف . ولم يكن « لوخنوف » ينظر الى « ايلين » أو يخاطبه ، بيد أن عوينتيه كأنتا تتحولان نحو يدى الشاب من آن الى آخر ، وتستقر نظراته عليهما لحظة .. ولكن معظم أوراق « ايلين » كانت خاسرة !**

وما لبث « لوخنوف » أن قال ، مشيرا الى ورقة ألقاها صاحب الارض البدين ، الذى كان يقامر بأنصاف الروبلات : « آه ، اننى أود أن أضرب هذه الورقة » . فقال المالك : « لك أن تضرب ورقة ايلين ، ودعك منى ! » .. وفعلا كانت أوراق ايلين أكثر خسارة من أوراق الآخرين ، حتى أنه كان يمزق كل ورقة خاسرة ـ تحت المائدة ـ وهو منفعل ، ثم يختار ورقة أخرى بأصابع مرتجفة . ونهض « توربين » عن الاريكة ، وسأل اليونانى أن يدعه يجلس مكانه الى جوار المشرف على (البنك) . فانتقل اليونانى الى مكان آخر ، وشغل الكونت مقعده ، وبدأ يراقب يدى « لوخنوف » بامعان ، لا يحرك عينيه عنهما .

وفجأة ، قال الكونت بصوته العادى ، الذى طغى على جميع الاصوات دون قصد منه : **« ايلين ! .. لماذا تلزم طريقة جامدة فى اللعب ؟ .. انك لا تعرف كيف تلعب »**

ـ كل الطرق سواء فى اللعب

ـ ولكنك تخسر بهذه الطريقة . دعنى ألعب بدلا منك !

ـ لا ، أرجو أن تسمح لى .. اننى دائما ما ألعب لنفسى ، فالعب لنفسك اذا شئت .

ـ قلت من قبل أننى لن ألعب لحسابى ، ولكنى أود أن ألعب

لحسابك ، فانى مستاء لانك تخسر !
ـ أرى أن هذا حظى .. قدر مكتوب على !

★★★

وصمت الكونت ، ولكنه مال على المائدة معتمدا على مرفقيه ، وعاد يتأمل يدى المشرف على (البنك) بامعان . وفجأة ، قال بصوت عال ، وهو يطيل الكلمة : « فظيع ! » . فتطلع اليه «لوخنوف» ، واذا به يردد بصوت أكثر ارتفاعا ، وهو يحدق فى عينى « لوخنوف » مباشرة : « فظيع ! .. فظيع جدا ! »

واستمر اللعب .. ومرة أخرى ، صاح توربين ، وقد ضرب « لوخنوف » ورقة كان « ايلين » قد قامر عليها بمبلغ كبير : « ليس هذا من الصواب فى شىء ! » .. فتساءل المشرف على (البنك) فى عــدم اكتراث مهــذب : « ما الذى لا يروق لك يا كونت ؟ »

ـ هذا ! .. انك تدع ايلين يكسب مراهناته المفردة ، ثم تغلبه فى المراهنات المضاعفة .. هذا هو موطن السوء فى الامر !

وحرك « لوخنوف » حاجبيه وكتفيه حركة خفيفة ، ايماء الى أنه كان ينصح بالتسليم للحظ والقدر فى كل شىء ، وواصل اللعب . فصاح الكونت : « بلوخر ! » . ونهض مرسلا صفيرا استدعى به الكلب ، ثم أردف بسرعة : « عليك به ! »

وارتطم ظهر « بلوخر » بالاريكة وهو يثب من تحتها ، فكاد يقلب ضابط الحامية ، وهرع نحو مولاه مزمجرا ، ثم راح يتلفت ناظرا الى كل امرىء ، وهو يهز ذيله ، وكأنه يتساءل: « منذا الذى يسىء التصرف هنا ! .. هه ؟ »

وألقى « لوخنوف » بالاوراق التى كانت فى يده ، وأزاح مقعده جانبا ، وقال : « ليس بوسع المرء أن يلعب بهذا الشكل اننى أكره الكلاب .. أى نوع من اللعب يصبح ، اذا ما أحضرت الى هنا فرقة من كلاب الصيد ؟ » . فغمغم ضابط الحامية :

« لا سيما اذا كانت كهذا الكلب » .. والتفت لوخنوف الى مضيفهم قائلا : « وبعد .. هل سنلعب يا ميخائيل فاسيليتش أو ترانا لن نلعب ؟ » . فالتفت ايلين الى توربين قائلا : « أرجو أن لا تتدخل بيننا يا كونت ! » . فقال توربين وهو يمسك بذراع ايلين ويذهب به الى وراء حاجز خشبى فى الحجرة : « تعال معى لدقيقة ! »

وكانت كلمات الكونت ـ التى قالها بصوته المعهود ـ مسموعة بجلاء من خلف الحاجز ، فقد كانت طبقة صوته تسرى عبر ثلاث حجرات دائما :

ـ **أأنت مغفل ، هه ؟ الا ترى أن ذلك السيد ذا العوينتين غشاش من الدرجة الاولى ؟**

ـ دعك من هذا ، كفى ! .. ما هذا الذى تقول ؟

ـ **لا مجال لـ « كفى » فى هذا الامر ! .. اننى أناشدك أن تكف عن اللعب . ان الامر لا يهمنى فى شىء ، ولو أننا كنا فى ظروف أخرى ، لاستنزفت أموالك بنفسى ، ولكننى ـ لسبب لا أدريه ـ آسف اذ أراك تجرد من ريشك . ولعلك تحمل شيئا من أموال التاج كذلك ؟**

ـ لا ... لماذا تتوهم امورا كهذه ؟

ـ **آه ، يا فتاى ! .. لقد كنت أنا الآخر مثلك ، ومن ثم فاننى أعرف كل حيل أولئك الغشاشين . اننى أؤكد لك أن الرجل ذا العوينتين غشاش ، فكف عن اللعب ! اننى أناشدك كزميل فى السلاح !**

ـ ليكن ذلك اذن ، فقط سأفرغ من هذا الدور وحده .

ـ **اننى أدرى ما وراء « دور واحد » . حسنا ، لسوف نرى !**

وعادا .. وفى هذا الدور الواحـــد ، ألقى ايلين بكثير من الاوراق ، راهن عليها بكثير من النقود ، حتى أنه عندما خسر فقد مبلغا باهظا . واذ ذاك ، وضع توربين يديه فى وسط المائدة ، وصاح : « الآن ، كف عن اللعب ، وتعال ! » .. فقال

ايلين فى انفعال ، وهو يعبث ببعض أوراق مطوية ، دون أن ينظر الى توربين : « لا ، لست استطيع . دعنى وشأنى ! »

ـ حسنا ، اذهب الى الشيطان ، اذن ! استمر فى الخسارة المؤكدة ، اذا كان هذا يروق لك . لقد حان لى أن أنصرف . فلنذهب الى حفلة « المارشال » يا زالفالشيفسكى !

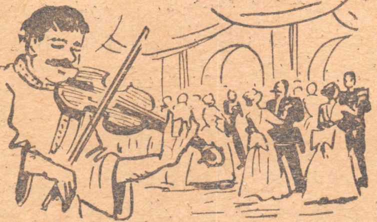
وانصرفا . وظل الذين مكثوا صامتين ، ولم يعد لوخنوف يوزع أوراقا الى أن غاب وقع أقدامهما ، وخفت وقع مخالب « بلوخر » على أرض الردهة . واذ ذاك قال مالك الارض ، وهو يضحك : « يا له من رجل ، كأنه الشيطان ! »

فعقب ضابط الحامية ، وهو لا يزال يهمس وينطق الكلمات فى عجلة : « حسنا .. انه لن يتدخل فى اللعب ثانية ! »

وعادوا يستأنفون اللعب .

ـ« ٤ »ـ

• **وما أن** صدرت اشارة معينة ، حتى عزفت الفرقة الموسيقية ، المؤلفة من بعض عبيد المارشال ـ وقد وقفوا فى مخزن المؤن (الكرار) بعد أن أخلى مما كان به ، لهذه المناسبة ، وشمروا عن أكمامهم استعدادا ـ اللحن البولندى القديم « الكسندر وليزابيث » .. وتحت الاضواء المشرقة الناعمة ـ الصادرة من الشموع المصنوعة من الشحم ـ تقدم حاكم عام من عهد « كاترين » ، تزين صدره نجمة ، وقد تأبط ذراع زوجة المارشال النحيلة الهزيلة .. فشرع الباقون من علية القوم ينسابون رويدا ـ مع زميلاتهم ـ على الارض الخشبية المصقولة ، فى قاعة الرقص الكبيرة ، فى تجمعات عديدة ومتباينة .. وهنا دخل « زالفالشيفسكي » مرتديا جوربين طويلين ، وحذاءين طويلين كذلك ، وسترة زرقاء ذات ذيل طويل رفيع وياقة واسعة من اللباد ، وقد تصاعد منه عبير قوى .. عبير



عطر الياسمين الهندى الذى نثر بغزارة على صدر سترته ، ومنديله ، وشاربيه .

أما الضابط المليح ، المنتمى الى كتيبة الفرسان الخفيفة ، والذى أقبل معه ، فكان يرتدى سروالا (بنطلون) ذا لون أزرق خفيف ، من سراويل ركوب الخيل ، وقد أحكم حول جسمه احكاما تاما ، وسترة قرمزية موشاة بالذهب ، ثبت الى صدرها صليب فلاديمير ، ووسام سنة ١٨١٢ (١) . وما كان الكونت بالرجل الطويل ، ولكن جسمه كان بديع البنيان بدرجة تلفت الانظار . **وكانت عيناه — اللتان امتازتا بزرقة صافية وبريق شديد — وشعره البنى القاتم الشديد التجعد ، تضفى طابعا رائعا على جماله** . وكان مقدمه الى الحفلة الراقصة متوقعا ، اذ أن الشاب المليح الذى رآه فى الفندق ، كان قد هيأ « المارشال » لذلك . وكان النبأ قد أحدث آثارا عديدة ، لم تكن — فى أغلبها — سارة !.. **فقد كان رأى الرجال ، والسيدات المسنات ، يتمثل فى : « ليس من المستبعد أن يعرضنا هذا الشاب للسخرية ! » .. أما السيدات اللائى لم يتجاوزن الشباب — متزوجات أو غير متزوجات — فان ما جال بخواطرهن ، لم يخرج عن : « ماذا يكون لو انه هرب بى ؟ » !**

وما ان انتهى لحن الرقصة البولندية ، وانحنى كل راقص

---

(١) ميدالية كانت تمنح لمن أبلى فى الدفاع عن روسيا ضد نابليون .

لمن راقصته فبادلته بدورها الانحناء ، حتى افترقوا فتقاربت النســـاء فى فريق ، والتم الرجال فى فريق آخر .. واذ ذاك ، قدم « زافالشيفسكى » الكونت الى ربة القصر ، وهو فخور ، مغتبط .. وشعرت زوجة المارشال بقشعريرة تسرى فى أعماقها ، خشية أن يوليها هذا الفارس الشـــاب معاملة فاضحة أمام الجميع ، فأشاحت فى ترفع وازورار ، وهى تقول : « يسرنى كل السرور أن أراك ، وآمل أن تنعم بالرقص ! » . ثم رمقته بنظرة متريبة ، وكأنها تقول : « تذكر انك اذا جرحت شعور امرأة ، فسيثبت لى هذا أنك شقى زنيم ! »

على ان الكونت سرعان ما هزم مخاوفها ورأيها السيء عنه بلطفه ، ومسلكه الذى نم عن فطنة ورعاية ، ومظهره الوسيم الطروب ، ومن ثم فلم تنقض دقائق خمس ، حتى كان التعبير الذى ارتسم على وجـه زوجة المارشال ينبىء القوم : **« اننى خبيرة بترويض الســادة الذين من هذا القبيل ، فقـد ادرك لفوره من التى يعاملها ، ومن ثم فسوف يظل يبدى لى مسلكا رائعا طيلة السهرة ! »** . وفوق ذلك ، فان حاكم البلدة ــ الذى كان على معرفة بوالد الكونت ــ سعى اليه ، فى تلك اللحظة ، وانتحى به جانبا ، وهو فى بشاشة بالغة ، وراح يتحدث معه ، مما زاد من طمأنينة المجتمع الريفى الموجود ، ورفع من تقدير القوم للكونت .

* * *

وما لبث زافالشيفسكى ان قدم الكونت ــ بعد ذلك ــ الى اخته .. وكانت أرملة شابة سمينة فى التفاف ، لم تفارق عيناها السوداوان الواسعتان الـكونت منذ اللحظة التى ولج فيها القاعة . وسألها الكونت أن تراقصه « الفالس » الذى كانت الفرقة الموسيقية قد شرعت تعزفه ، واذ ذاك تبددت البقية الباقية من الآراء التى كانت قـد خامرت القوم ، حين

رأوا طريقته البارعة فى الرقص !

وقالت سيدة بدينـــة ، من صاحبات الارض ، وهى ترقب ساقيه فى سروال الركوب الازرق ، وقد راحتـا تتنقلان على أرض الحجرة فى رشاقة وخفة : « يا له من راقص بديع ! » . وأخذت تحسب حركات قدميه فى سريرتها : «واحدة ، اثنتان، ثلاث .. واحدة ، اثنتان ، ثلاث .. رائع ! » .. وقال آخر ، وكان زائرا للمدينة لا يعده مجتمعها المحلى من علية القوم : « أنظر كيف يمضى .. جيج ، جيج ، جيج ! .. كيف يتفادى أن يرتطم مهمازاه معا ؟ .. انه لرائع ، حاذق ! »

وبهر رقص الكونت أعين الانظار ، حتى طغى على تألق خير ثلاثة راقصين فى الاقليم ، وهم : ياور الحاكم ، الطويل الاشقر الشعر ، الذى امتاز بسرعته فى الرقص ، وبأنه كان يشد زميلته الى صدره .. والفارس المتقاعد ، الذى اشتهر بحركاته المترنحة الرشيقة فى رقصة « الفالس » ، وبالدقات المتوالية الخفيفة التى كان يوقعها على الارض بكعبيه .. وشخص من المدنيين ، كان كل امرىء يقول أنه لم يكن نبيها جدا ، ولكنه كان راقصا من الدرجة الاولى ، وكان روح كل حفلة راقصة ! .. والواقع أن هذا الشخص كان يسأل كل السيدات أن يراقصنه، كلا بدورها ، بترتيب مجلسها (١) ، ولم يكن يتوقف قط ، اللهم الا فى فترات عابرة ، ليجفف العرق عن وجهه ــ الذى كان يحتفظ ببشاشته رغم علامات الارهاق ــ بمنديل مندى من الكتان الناعم .

لقد طغى الكونت على تألقهم جميعا ، ورقص مع أرقى ثلاث سيدات : السيدة الطويلة ، الغنيـة ، المليحة ، الغبيـة ! .. والسيدة المتوسطة الطول، النحيلة ، التى لم تكن بارعة الحسن

---

(١) كانت العادة أن لا يراقص الرجل سيدة رقصة بأكملها ، بل يدور بها بضع جولات ، ثم يقودها الى مقعدها ، وينحنى لها .. ثم ينشد سواها

ولكنها كانت بديعة الملبس .. والسيدة التى كانت قلة فى الجسم ، خالية من الحسن ، ولكنها كانت حاذقة فى الرقص! .. ورقص توربين مع اخريات كذلك .. مع جميع الحسان ، وقد كن كثيرات هناك .. **ولكن أخت زافالشيفسكى – الارملة الشابة – كانت خير من رقن له من النساء . فرقص معها رقصة من نوع « الكدريل » ، واخرى ايقوسية ، وثالثة من رقصات « مازوركا » ..** وعندما جلسا معا – خلال « الكدريل » – شرع يغدق عليها مجاملاته ، فشبهها بفينوس وديانا ، وبالوردة ، وبنوع آخر من الزهور . ولكن كل هذه المجاملات لم تؤد الا الى أن كانت الارملة تحنى عنقها البض ، وتنكس عينيها فتنظر الى ثوبها « الموسلين » الابيض ، أو تنقل مروحتها من يد الى يد . ولكنها عندما كانت تقول : « لا تغرق يا كونت ، فما أراك الا تمزح ! » – وما الى ذلك من كلمات – كانت تقولها فى بساطة ساذجة ، وخفر مثير ، بصوتها الذى كان ينبعث من اعماق الحلق قليلا ، **حتى لقد كان الناظر اليها يراها زهرة – فى الواقع – وليست امرأة .. وزهرة ليست من النوع المألوف ، وانما من تلك الزهور البرية الفخمة ، العديمة العبير ، ذات اللون الابيض المشرب بحمرة وردية .. زهرة من هذا النوع ، نمت وحيدة ، وسط سيل من الجليد ، فى مكان ناء سحيق !**

هذا المزيج من السذاجة وعدم مشابهة النسوة المألوفات ، مع نضارة جمالها ، أحدث فى نفس الكونت أثرا غريبا ، حتى لقد تملكته الرغبة مرارا – أثناء فترات الصمت ، وهو يتأمل عينيها والتفاف عنقها البديع وذراعيها الجميلتين – فى ان يحتويها بين ذراعيه ، ويغرقها بقبلاته .. ولقد راودته هذه الرغبة بقوة ، حتى لقد اضطر الى ان يبذل مجهودا جديا فى مقاومتها ! .. ولاحظت الارملة – فى اغتباط – الاثر الذى احدثته فى نفسه ، بيد ان شيئا فى سلوك الكونت بدأ يوقع

الرهبة فى نفسها ويثيرها - فى آن واحد - مع ان الضابط الفارس الشاب كان ، بالرغم من لطفه الفتان ، يبدى لها من الاحترام ما قد يعتبر - فى ايامنا هذه - ممجوجا ! .. فقد هرع ليجتلب لها شرابا من عصير اللوز ، والتقط منديلها ، واختطف لها مقعدا من يد شاب من الاعيان - مصاب بالدرن الخنزيرى - كان يتراقص حولها ليظفر بها سريعا .. وهكذا.

وعندما لاحظ أن المجاملات التى اصطلح عليها مجتمع زمنهما كانت قليلة التأثير على السيدة ، حاول ان يطربها بأن راح يروى لها قصصا مضحكة، ويؤكد لها انه كان على استعداد لان يقف على رأسه ، أو أن يصيح كالديك ، أو أن يقفز من النافذة ، أو ان يغوص فى الماء خلال ثغرة فى الجليد ، اذا هى أمرته بأن يفعل شيئا من ذلك . وأسفرت هذه الطريقة عن نجاح ، فقد أشرق محيا الارملة ، وانطلقت فى سيل من الضحكات ذات الرنين العذب ، كاشفة عن اسنان بيضاء جميلة .. ورضيت كل الرضى عن فارسها . وأخذ الكونت يزداد حبا لها دقيقة بعد اخرى ، فلم تنته رقصة « الكدريل » حتى كان مداها بهواها حقا ! .. وعندما تقدم اليها المعجب المفتون - ابن الثمانية عشر عاما - الذى طال به الوقوف فى انتظارها (وهو عين الشاب المدرن الذى اختطف منه توربين المقعد . وقد كان ابن أغنى مالك للارض فى المنطقة) تلقته الارملة فى فتور بالغ ، ولم تبد عشر ما كانت قد خبرته من انفعال فى صحبة الكونت! .. وقالت له ، وهى لا تنفك تنظر الى « توربين » ، وتقدر - دون ان تفطن - عدد الياردات من الخيط الذهبى المجدول ، الذى تطلبه وشى سترته : « أنك كريم ! الم تكن قد وعدتنى بأن تأتى لتصطحبنى الى الحفلة ، وان تحضر لى بعض الحلوى » .

فأجاب الفتى الذى كان ذا صوت رفيع حاد ، رغم طول قامته : « لقد ذهبت اليك يا آنا فيدوروفنا ، ولكنك كنت قد خرجت. وقد تركت قسطا من أفخر الحلوى لك ! »

ـ انك تجيد انتحال المعاذير دائما !.. لست أريد حلواك ..

فقال : ((أرى أنك قد تغيرت نحوى يا آنا فيدوروفنا ، وانى لاعرف السبب . ولكنك لست على صواب)) ، ولم يقو على أن يتم حديثه ، اذ ان الانفعال الذى جاش فى اعماقه ، جعل شفتيه تختلجان بسرعة ودرجة عجيبتين . ولم تنصت اليه ((آنا فيدوروفنا)) ، بل راحت تتبع توربين بعينيها .

وأقبل رب البيت ـ المارشال الكهل البدين ، الفخم المنظر، العديم الاسنان ـ فتقدم من الكونت ، وتأبط ذراعه ، ودعاه الى حجرة مكتبه ليدخنا ويشربا كأسا . وما أن بارح توربين القاعة ، حتى أحست ((آنا فيدوروفنا)) أنه لم يعد لها ما تفعله هناك ، فبارحت القاعة الى غرفة الزينة ، متأبطة ذراع صديقة لها .. عذراء مسنة ، بارزة العظام ! .. وسألتها العذراء : ((أظريف هو ؟)) . فأجابتها آنا فيدوروفنا ، وهى تسير الى المرآة فتتأمل صورتها : ((انما يضايقنى ظرفه !)) .. **وأشرق وجهها ، وضحكت عيناها ، بل وتضرج وجهها . ثم راحت تطوف بالحجرة ـ فجأة ـ على قدم واحدة ، مقلدة راقصات ((الباليه)) اللائى رأتهن أثناء الانتخابات ..** ثم أطلقت ضحكها الذى كان ينبعث من أعماق حلقها ، ولكنه كان طروبا عذبا ، وأثنت ركبتيها ، ثم وثبت وهى تقول : ((تصورى أى رجل هو ! .. لقد ذهب به الامر الى درجة أن سألنى تذكارا . ولكنه لن يظفر بـ .. شىء .. ما !)) . وكأنما كانت تتغنى بالكلمتين الاخيرتين !

* * *

وكانت فى غرفة المكتب ـ حيث اصطحب المارشال توربين ـ زجاجات من مختلف أنواع الفودكا ، والمشروبات الروحية الحلوة المذاق ، والشمبانيا ، فضلا عن الشطائر والمشهيات . وكان الاعيان الذين راحوا يتمشون فى الحجرة ، أو جلسوا

وسط سحب من دخان التبغ ، يتحدثون عن الانتخابات . فكان قائد الشرطة الذى انتخب حديثا يقول : « أما وقد شرفه مجتمع أعياننا المبجل بانتخابه ، فما كان له — بأى حال من الاحوال — أن يتجاوز حده ، متحديا المجتمع بأسره ... » . على أن دخول الكونت قطع الحديث ، اذ رغب كل امرىء فى أن يتعرف اليه ، وظل قائد الشرطة — بوجه خاص — يضغط يد الكونت طويلا ، ويسأله ملحفا أن لا يرفض أن يرافقه الى المطعم الجديد الذى كان قد دعا السادة اليه عقب الرقص ، وحيث كان الغجر يغنون . فوعده الكونت بأن يلبى الدعوة ، وشرب معه بضع كؤوس من الشمبانيا !

وقال الكونت وهو يهم بمبارحة الحجرة : « ولكن ، لم لا ترقصون يا سادة ؟ » . فرد قائد الشرطة ضاحكا : « لسنا راقصين ، بل الخمر أحب الينا يا كونت .. ثم أننى رأيت كل هؤلاء الشابات منذ حداثتهن يا كونت ! .. على أننى أستطيع أن أؤدى خطوات الرقصة الايقوسية من آن الى آخر ! » . فقال توربين : « اذن فتعال وارقص دورا ، فان هذا كفيل بأن يبهجنا قبل أن نذهب ونسمع الغجر ! » .

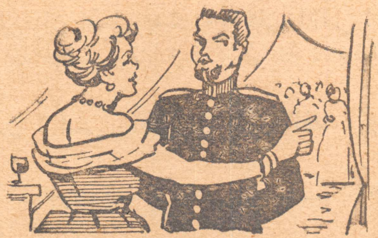
وهم ثلاثة أو أربعة من النبلاء الذين كانوا يشربون الخمر فى حجرة المكتب — منذ بداية الحفلة — أن يتبعوا الكونت الى قاعة الرقص ، عندما استوقفهم الشاب ذو الوجه المدرن . وتعرض للكونت وقد غاض لونه ، وراح يحبس دمعه بعناء ، وهو يقول : « أتظن أن بوسعك أن ترتطم بالناس المحيطين بك ، وكأنك فى سوق عامة ، لمجرد أنك كونت ؟ » .. وأخذ يتنفس بعناء ، وهو يردف : « هذه قلة أدب .. » . ومن جديد ، هبست شفتاه المرتجفتان الكلمات ، بالرغم مما كان يبذل من جهد . فصاح توربين ، وهو يعبس فجأة : « ماذا ؟ .. ماذا أيها الولد المدلل ؟ ! » . وأمسك بذراعيه ، فراح يعصرهما حتى تدافع الدم الى رأس الشاب من الخوف ، أكثر مما كان

من الاستياء .. وعاد الكونت يصيح : « اتريد النزال ؟ .. اننى رهن أمرك ! »

وما أن أفلت توربين ذراعى الشاب ، حتى تلقفه اثنان من النبلاء ، وراحا يجرانه الى الباب الخلفى ، وهما يقولان له « أفقدت رشدك ؟ .. لا بد أنك ثمل ! .. ماذا يحدث لو قلنا لابيك ! » . فصاح الشاب بصوته الرفيع : « لا ، لست ثملا ، ولكنه ارتطم بى ولم يعتذر ! .. انه خنزير ! » . ولكنهما لم يصغيا اليه ، وسرعان ما حمل الى داره ، بينما كان قائد الشرطة وزافالشيفسكى يعتذران الى الكونت قائلين : « لا تستأ يا كونت ، فهو ليس سوى صبى صغير . انه لايزال يضرب من أبيه ، فهو لم يتجاوز السادسة عشرة .. ما الذى أصابه ؟ .. وكيف يفعل هذا ، وأبوه رجل محترم ؟ » .. فقال الكونت : « لا بأس ، ليذهب الى الشيطان ! » .. وعاد الى قاعة الرقص حيث راقص الارملة الحسناء وهو فى مرحه السابق ، ثم دوت ضحكته فى أرجاء الحجرة ، عندما زلق قائد الشرطة ـ وهو يحاول الرقص ـ فهوى بكل طوله على الارض ، وسط الراقصين !

ـ« ٥ »ـ

• وفى أثناء وجود الكونت فى حجرة المكتب ، كانت « آنا فيدوروفنا » قد سعت الى أخيها ، وسألته وهى تتظاهر بعدم الافراط فى الاهتمام : « من كان ذلك الضابط ـ من الفرسان ـ الذى راقصنى ، يا أخى ؟ » . فبين الفارس المتقاعد لاخته ـ بكل ما أوتى من بيان ـ عظمة ذلك الضابط التابع لكتيبة الفرسان الخفيفة ، وأنبأها ـ فى الوقت ذاته ـ بأن الكونت مامكث فى البلدة الا لان نقوده سرقت منه فى الطريق ، وانه قد أقرضه مائة روبل ، بيد أن هذا المبلغ لم يكن كافيا .. فهل لاخته أن



تقرض الكونت مائتى روبل أخرى ؟ .. على أن زافالشيفسكى سألها أن لا تروى ذلك لاحد ما ، مهما يكن الامر ، لا سيما للكونت نفسه . فوعدت « آنا فيدوروفنا » بأن ترسل المبلغ لاخيها فى اليوم ذاته ، ليبقى الامر سرا . بيد أنها شعرت ـ أثناء الرقصة الايقوسية ـ بشوق جارف الى أن تعرض بنفسها على الكونت أى مبلغ يشاء . وفكرت طويلا ، وقد تضرج وجهها ، ولكنها نبشت الموضوع فى النهاية ـ وبجهد بالغ ـ على هذا النحو : « **أنبأنى أخى بأن سوء الطالع حل بك فى الطريق يا كونت ، وانك لا تحمل الآن نقودا . فاذا كنت بحاجة الى شىء منها ، فهلا تقبله منى ؟ .. ان هذا كفيل بأن يسرنى ! »**

على أنها لم تكد تقول هذا ، حتى تولاها خوف مبهم ، وتضرج وجهها . وغاض من وجه الكونت كل ابتهاج فى الحال ، وقال فى جفاء : « ان أخاك أحمق ! .. انك لتعرفين أن الرجال يتبارزون ، اذا اهان أحدهم الآخر ، أما عندما تهين امرأة رجلا ، فماذا ترينه يفعل ؟ » . واشتد احمرار وجه «آنا فيدوروفنا» المسكينة وعنقها ، لفرط ارتباكها . **وغضت بصرها ، ولم** تنبس ببنت شفة . **فقال الكونت فى صوت خفيض ، وهو يميل على أذنها : « انه يقبلها أمام الملأ ! » . واردف هامسا ، بعد صمت طويل ، وهو يشفق على زميلته من الارتباك :**

« فاسمحي لي بأن اقبل يدك .. على الاقل ! »

وارسلت آنا فيدوروفنا زفرة طويلة ، وقالت : « ولكن ، ليس الآن ! »

ـ متى اذن ؟ انني راحل في بكور الغد ، وأنت مدينة لى بقبلة !

فقالت آنا فيدوروفنا ، وهى تبتسم : « اذن ، فالامر مستحيل ! »

ـ لن أطالبك بأكثر من أن تتيحي لى لقاءك الليلة لاقبل يدك . ولن يعييني انتهاز فرصة للقاء !

فتساءلت : « وكيف ؟ » . فأجاب : « ليس هذا شأنك ، فكل شيء ممكن ، في سبيل أن أراك .. فهل نحن على اتفاق ؟ » .. وأجابت : « على اتفاق ! » . وهنا كانت الرقصة قد انتهت ، فرقصا بعدها « المازوركا » ، وأبدى الكونت براعة فائقة في اختطاف المناديل ، والركوع على ركبة ، وصك مهمازيه ـ الواحد بالآخر ـ على طريقة لا يجيدها الراقصون فى غير (وارسو) ، حتى أن المسنين من القوم ، تركوا جميعا العابهم ، وتقاطروا على قاعة الرقص ليشهدوا الكونت .. واعترف الفارس المتقاعد ـ وهو أحسن راقصيهم ـ بأن نجمه أفل الى جانب تألق الكونت ! .. وما لبثوا أن تناولوا العشاء ، ثم رقصوا رقصة « الجد » ، وأخذ الحفل ينفض بعد ذلك .

***

ولم يكن الكونت قد حول عينيه عن الارملة الصغيرة ، فما كان قوله عن استعداده لان يغوص خلال ثغرة بين الجليد من أجلها ، محض مجاملة أو تظاهر ! .. **وسواء كان الامر نزوة ، أو غراما ، أو عنادا ، فان كل قوى الكونت العقلية ، تركزت ـ فى تلك الامسية ـ على رغبة واحدة .. أن يلتقى بالسيدة ، وأن يطارحها الغرام !** .. وما ان لاحظ ان « آنا فيدوروفنا »

كانت تستأذن مضيفتها فى الانصراف ، حتى هرع الى غرفة رئيس الخدم ، ثم جرى - بدون معطفه المصنوع من الفراء - الى فناء القصر ، فاتجه صوب المكان الذى وقفت فيه العربات ، وصاح : « مركبة آنا فيدوروفنا زايتسيفا ! » .. واذا بعربة عالية ، مغلقة ، ذات أربعة مقاعد ، تتحرك مقبلة صوب المدخل ، ومصابيحها متقدة . فصاح بالحوذى : « قف ! » . وأسرع صوب المركبة ، وهو يخوض فى الثلج حتى ركبتيه !

وسأله الحوذى : « ماذا تريد ؟ » . فأجاب الكونت وهو يفتح باب المركبة ، ويحاول الصعود اليها وهى سائرة : « أريد أن أجلس بداخل المركبة . قف ! .. اننى آمرك ، أيها الاحمق! » . فصاح الحوذى فى مساعده : « قف يا فاسكا ! » .. وجذب أعنة الجياد ، ثم قال للكونت : « ماذا تبغى من الصعود الى مركبات الغير ؟ .. ان هذه مركبة مولاتى « آنا فيدوروفنا » ، وليست مركبة فخامتك! » . فقال الكونت: « صه ، أيها الغبى! .. هاك روبل وانزل فاغلق الباب ! » . ولما لم يحر الحوذى حراكا ، رفع الكونت سلم العربة بنفسه ، وخفض زجاج النافذة ، وتحايل على اغلاق الباب . وكانت العربة ككل العربات القديمة - لا سيما تلك التى تستعمل فيها أشرطة من القصب الاصفر - معبقة برائحة فجة ، كرائحة الوبر المحترق . وكانت ساقا الكونت قد ابتلتا بالثلج حتى الركبتين ، فشعر بأنه مقرور ، اذ كان نعلاه خفيفين ، وسروال الركوب منتفخا ، ومن ثم فقد نفذ برد الشتاء الى جسمه كله . وكان الحوذى يزمجر ، وقد بدا أنه يتهيأ للهبوط من مكانه ، ولكن الكونت لم يسمع ولم يشعر بشىء .. كان وجهه يتأجج ، وقلبه يخفق سريعا .. وفى غمرة انفعاله العصبى ، أمسك بشريط النافذة الاصفر ، ومال الى الداخل - حتى لا يرى خلالها - وقد انصرف بكل كيانه الى الترقب ! .. ولم يطل هذا الترقب ،

فقد انبعث نداء من المدخل : « مركبة زايتسيفا ! » ، فهز الحوذي أعنة الجياد ، وتمايل هيكل العربة على زنبركاته المرتفعة ، وتتابعت نوافذ الدار المضيئة ، والمركبة تمر بها .

وهمس الكونت للحوذى ، وهو يطل عليه من النافذة الامامية : « تذكر أننى سأسوطك اذا قلت لرئيس الخدم أننى هنا . أما اذا عقلت لسانك ، فستظفر بعشرة روبلات أخرى! » .

وما أن أغلق النافذة ، حتى ارتج هيكل العربة بشدة ، ثم وقفت . **وانكمش الكونت وازداد التصاقا بالركن ، وقد أمسك أنفاسه ، وأغمض عينيه ، وقد اشتد به الخوف من أن يبدد شيء ما ذلك الترقب الذى كان يؤجج عواطفه .. وما لبث باب العربة أن فتح ، فانخفض السلم درجة بعد أخرى، فى جلبة . وسمع الكونت حفيف ثوب امرأة ، ثم شم عبير الياسمين يملأ جو المركبة فيطغى على الرائحة المجوجة التى كانت تشيع فيه ..** وصعدت الدرج قدمان خفيفتان ، سريعتان ، ثم ارتمت « آنا فيدوروفنا » فى صمت الى جواره ، وقد احتك ذيل معطفها بساقه .. وكانت أنفاسها متهدجة ! **وليس بوسع امرىء ــ حتى هى ــ أن يجزم بما اذا كانت قد رأته ، أو أنها لم تره .. ولكنها أبدت ارتياحا ضئيلا عندما تناول يدها ،** وقال : « الآن بوسعى أن أقبل يدك الصغيرة ! » .. ولم تحر جوابا ، ولكنها أسلمته ذراعها ، فراح يغمر الذراع بقبلاته ، الى ما فوق قفازها .

وتحركت العربة ، فقال : « قولى شيئا !.. أغاضبة أنت ؟ »

فازداد ت انكماشا فى ركنها ، وهى صامتة ، على أن شيئا ما لم يلبث أن حملها على أن تنفجر بالبكاء فجأة ، وتركت رأسها يهوى على صدره ، من تلقاء نفسها ! !



— « ٦ » —

• **كان** قائد الشرطة المنتخب حديثا ، وضيوفه — الفارس المتقاعد وغيره من علية القوم — قد قضوا وقتا طويلا فى الاصغاء الى أغانى الغجر ، وفى معاقرة الشراب ، فى المطعم الجديد ، عندما لحق بهم الكونت ، وقد ارتدى معطفا مبطنا بفراء الدب، كان يوما لزوج « آنا فيدوروفنا » المتوفى . وقال له نورى (غجرى) ذو عينين شديدتى السواد ، وحولاوين ، وقد سارع الى استقباله لدى المدخل ، والى معاونته على خلع المعطف ، وهو يكشف عن أسنانه البيضاء : « الحق أننا كنا ننتظرك بفارغ الصبر ، يا صاحب السعادة ، فنحن لم نرك منذ سوق (لبيديانى) .. ان ستيشكا لشديدة التلهف الى رؤيتك ! »

وكانت « ستيشكا » نورية شابة ، رشيقة ، مياسة القوام ، يتالق وجهها بلون كلون الطوب الاحمر ، وقد أوتيت عينين عميقتين ، براقتين ، تظللهما أهداب طويلة . وقد هرعت هى الاخرى لاستقباله ، متمتمة ، وهى تبتسم فى طرب : « آه ، يا كونتى الصغير ! .. يا حبيبى ! يا جوهرة ! .. يا للغبطة ! »

.. وجرى ايليوشكا نفسه — زعيم الفرقة — لتحيته ، وقفزت العجائز والزوجات والعذارى فأحطن بالضيف، بعضهن يزعمن أنه « أشبين » لهن، والبعض يزعمن أنه قدعقد وشاج الاخوة معهن .

وقبل «توربين» شفاه الشابات ، بينما قبلت العجائز والرجال كتفه أو يده . وابتهج علية القوم بوصول ضيفهم ، لا سيما وأن الشراب كان قد بلغ ذروته ، وبدأت بهجته تخبو ، كما بدأ كل امرىء يشعر بالاكتفاء .. ففقدت الخمر مفعولها المثير للاعصاب ، وأصبحت مجرد عبء يثقل المعدة . وكان كل امرىء قد أفرغ كل ما فى جعبته من تهريج ، وشرع يسأم صحبة الآخرين .. وكانت الاغانى قد ألقيت جميعا ، واختلطت فى رأس كل فرد ، مخلفة ضجة وانحلالا .. ولم يعد كل أمر غريب أو متهور يأتيه أى امرىء بذى قيمة ، بل بدأ يلوح لكل امرىء أن ليس ثمة شىء مستحب أو مطرب فيما كان يصدر .. وشرع قائد الشرطة ، الذى استلقى على الارض عند قدمى امرأة عجوز — فى حال مثيرة للدهشة — يحرك ساقيه فى الهواء ، صارخا : **« شامبانيا ! .. لقد أقبل الكونت ! .. شامبانيا ! .. لقد جاء ! .. هيا ، شامبانيا ! .. سأملأ حوض الاستحمام بالشمبانيا وأستحم بها ! .. أتها السادة النبلاء ، اننى أحب مجتمع طبقتنا الراقية العريقة .. غننا يا ستيشكا ! »**

وكان الفارس المتقاعد قد ثمل هو الآخر ، ولكن .. بشكل آخر . فقد جلس على أريكة فى ركن من المكان ، ملتصقا بنورية حسناء طويلة ، تدعى « ليوباشا » . وقد راح يطرف بأهدابه — وهو يشعر بغشاوة على عينيه — ويهز رأسه ، ويهمس مكررا كلامه مرارا ، متوسلا اليها أن تهرب معه الى أى مكان . وكانت « ليوباشا » تنصت اليه مبتسمة ، وكأن ما كان يقوله قد راق لها . ومع ذلك فقد بدا عليها شىء من الاسى ، وهى تنظر — من آن الى آخر — نحو زوجها « ساشكا » الاحول ، الذى كان يقف خلف المقعد المواجه لها .. ثم مالت على الفارس المتقاعد ، وهمست فى أذنه تسأله — ردا على اعلانه الحب — أن يبتاع لها شيئا من العطر والاشرطة .. فى الخفاء !

وصاح الفارس المتقاعد ، عندما دخل الكونت : « مرحى ! »

.. وكان الشاب الوسيم يذرع القاعة ذهابا وايابا بخطوات كان يعانى جهدا لكى تكون ثابتة ، وعلى سيمائه آثار الضيق والهم ، وهو يترنم بلحن من أوبرا « السيراجليو » . وكان ثمة جد كهل - استدرجه الحاح علية القوم عليه كى يأتى لسماع الفجر ، مؤكدين له أن الحفل بدونه يفقد قيمته - فاستلقى على أريكة لازمها منذ قدم ، دون أن يحفل به أحد . وكان ثمة موظف بين الجمع ، خلع سترته ذات الذيل الطويل ، وجلس فوق المائدة - رافعا قدميه اليها - وقد نشر شعره ، وأظهر بذلك أنه قد ثمل تماما . وما أن دخل الكونت المكان ، حتى فتح الموظف صدر قميصه ، وتزحزح الى وسط المائدة !

وقصارى القول أن وصول توربين أنعش مجلس الشراب ، وتجمعت النوريات ثانية ، بعد أن كن يجسن خلال الحجرة ، وجلسن فى دائرة .. وأجلس الكونت المغنية الاولى «ستيشكا» على ركبتيه ، وأمر بمزيد من الشمبانيا . وجاء « ايليوشكا » فوقف أمام ستيشكا حاملا جيتاره ، وبدأ الرقص على أغانى النور : « عندما تنطلق فى الطريق ، أيها الضابط الفارس ، أتراك تسمع .. أتراك تعلم ؟ » ، وما الى ذلك .. وكان غناء ستيشكا رائعا .. كان الصوت المرن الرنان - الذى انساب من أعماق صدرها - وابتسامتها المرافقة للغناء ، وعيناها الضاحكتان الصارختان بالعواطف المشبوبة ، وقدمها التى كانت تتحرك - دون وعى - حركات رتيبة متسقة مع الايقاع ، وصرخاتها الجامحة كلما بدأ المرددون (الكورس) يرددون مقاطع الغناء .. كل هذه كانت تمس وترا قويا فى القلب ، ولكنه نادرا ما يمس ! **.. كان من الجلى أن النورية لم تكن تعيش الا فى جو أغنيتها .. وكان ايليوشكا يعزف لها على الجيتار ، وظهره ، وساقاه ، وابتسامته ، وكل كيانه يعبر عن انسجام مع الاغنية .. وقد راح يرقب الفتاة فى شغف ، ويرفع رأسه ويخفضها وقد استغرق فى الاغنية بكل انتباهه ، وكأنه**

يستمع اليها لاول مرة . وما لبث – عندما بلغ آخر الانغام المشجية – أن اعتدل فجأة ، وكأنه يشعر بأنه أسمى من كل امرىء فى الدنيا ، وألقى جيتاره عند قدميه فى زهو واعتداد ، وركلها ، ودق الارض بقدمه ، وطوح شعره الى الوراء ، وتلفت الى الفرقة الموسيقية وهو عابس . وبدأ كل جسمه – من العنق حتى الكعبين – يرقص بكل عضل فيه .. وانطلق فى الجو عشرون صوتا عاليا ، قويا ، حاول كل منها أن يبعث هتافا أشد وأعجب من الاصوات الاخرى . وأخذت العجائز يقمن ويهبطن على مقاعدهن ، ملوحات بمناديلهن ، كاشفات عن أسنانهن ، تنافس كل منهن الاخريات فى صيحاتهن المنغومة ، ذات الايقاع . وأخذ أصحاب الاصوات المنخفضة المليئة يمدون أعناقهم ، وقد مالوا برؤوسهم جانبا ، وهم يهتفون ، بينما كانوا وقوفا وراء المقاعد !

وعندما عادت « ستيشكا » ترفع عقيرتها بالغناء ، حمل ايليوشكا جيتاره الى قربها ، وكأنه كان يرغب فى مساعدتها ، وصاح الشاب النبيل الوسيم قائلا أنهم بدأوا «البيمول» (١) . وعندما حمى وطيس الرقص ، وتقدمت « دنياشا » تتلوى أمام الكونت ، وتنساب مقتربة منه ، وكتفاها وصدرها تهتز ، وثب « توربن » ، فخلع سترته ، وراح – فى قميصه الاحمر – يخطو معها بخفة ، خطوات دقيقة ، متزنة ، محدثا بساقيه حركات أخذ الغجر يبتسمون لها باعجاب ، وهم يتبادلون النظرات ! .. وجلس قائد الشرطة منتفخا كالديك الرومى ، يدق صدره بقبضته ، ويصيح : « فيفا ! » . ثم لمح ساقى الكونت ، فشرع يعبر عن اعجابه قائلا أنه لم يتبق له من ألفى روبل سوى خمسمائة ، وأنه لعلى استعداد لان يفعل بها ما يشاء الكونت ! .. واستيقظ رب الاسرة الكهل ، ورغب فى

---

(١) طبقة من طبقات النغم الموسيقى .

الانصراف ، ولكن أحدا لم يسمح له .. وبدأ الشاب الوسيم يغرى احدى النوريات بأن تراقصه « الفالس » . أما الفارس المتقاعد ، فقد شاء أن يبين مدى مودته للكونت ، فنهض واحتضنه ، قائلا : « آه ، يا صديقى العزيز .. لماذا تركتنا ، هه ؟ » . وصمت الكونت ، وقد بدا أنه كان يفكر فى ناحية أخرى ، بينما استطرد الرجل : « ترى أين ذهبت ؟ .. آه ، أيها الكونت الخبيث ، اننى لاعرف أين ذهبت ! »

ولامر ما ، ساءت هذه الالفة توربين ، فنظر الى وجه الفارس المتقاعد فى صمت ، دون أن يبتسم ، ثم رماه فجأة بسبة فظيعة ، جافية ، تألم لها الفارس ، وظل برهة عاجزا عن أن يقرر ما اذا كان يعتبر الاهانة مزاحا أو جدا ! .. وما لبث أن قرر أن يحملها على محمل المـــزاح ، فابتســـم ، وعاد الى غجريته ، مؤكدا لها انه لن يلبث أن يتزوج منها ، بعد عيد الفصح ! .. وردد الغجر أغنية بعد أغنية ، ورقصوا ثانية ، ثم هتفوا للضيوف ، وكل واحد من هؤلاء ســـادر فى ايهام نفسه بأنه كان يستمتع بما يرى ويسمع . ولم يكن للشمبانيا حد أو نهاية . وقد شرب الكونت كثيرا ، فأخذت غشاوة الخمر تتكاثف أمام عينيه ، ولكنه لم يفقد اتزانه قط ، بل أنه راح يرقص أحسن من ذى قبل ، ويتكلم بصوت ثابت النبرات ، بل وانضم الى (الكورس) فراح يردد مقاطع الغنـــاء باتقان ، عنـــدما غنت ستيشكا أغنية « أرق عواطف الصداقة » . وفى خلال الرقصة ، أقبل صاحب المطعم فسأل الضيوف أن يعودوا الى دورهم اذ كانت الســـاعة تقترب من الثالثة صباحا . **واذا « توربين » يمسك به من قفاه ، ويأمره بأن يرقص الرقصة الروسية . وأبى الرجل ، فاختطف زجاجة شمبانيا هدده بها ، حتى اضطره الى أن يقف على رأسه ، وامره بأن يظل فى هذا الوضع بين ضحكات الجميع ، ثم راح يفرغ الشمبانيا فوقه !**

وبدأ الفجر يتسلل ، فاذا الجميع شاحبو الوجه ، منهوكو

القوى ، ما عدا الكونت ، الذى لم يلبث أن قال وهو ينهض فجأة : « حسنا ، لا بد لى من الرحيل الى موسكو .. هيا ، جميعا ، تعالوا فشيعونى .. وسنتناول معا بعض الشاى !» .. ووافق الجميع اللهم الا رب الاسرة الكهل ، الذى بقى مستغرقا فى نعاسه ، بينما تزاحم الكل فى ثلاث زحافات كانت تقف بالباب ، وانطلقوا صوب الفندق

- « ٧ » -



• صاح الكونت وهو يدخل قاعة الجلوس فى فندقه ، متبوعا بضيوفه والغجر : « أعدوا الجياد ! .. ساشكا ! .. ليس ساشكا الغجرى ، وانما ساشكا تابعى .. قل للمشرف على مركز البريد اننى سأسوطه اذا أعطانى جيادا سيئة ! وهات شايا لنا .. تول تقديم الشاى يا زافالشيفسكى ، فاننى ذاهب لألقى نظرة على أيلين ، وارى كيف حاله » .. ومضى فى الردهة ، نحو غرفة الفارس الاوغلانى . وكان « أيلين » قد فرغ لتوه من اللعب ، وخسر آخر « كوبك » فى جيبه ، فانكفأ على الاريكة ، وراح يجذب شعرة أثر شعرة - من غطائها المصنوع من شعر الخيل - فيرفعها الى فمه ، ويعضها حتى يشطرها ، ثم يبصقها ! .. وعلى المائدة - التى تناثرت فوقها أوراق اللعب - كانت ثمة شمعتان تناضلان

ضوء النهار ، الذى بدأ يتسلل خلال النافذة ، وقد احترقت احداهما حتى الورق الذى كان فى التجويف الذى اقيمت فيه.

ولم تكن فى رأس « ايلين » فكرة واحدة ، فقد لفت حواسه غشاوة كثيفة من شهوة المقامرة .. **حتى الندم ، لم يكن يشعر به . وبذل محاولة واحدة ليفكر فيما ينبغى ان يفعل ، وكيف يرحل وهو مفلس ، وكيف يسدد الخمسة عشر ألفا من روبلات التاج ، وما الذى يحتمل أن يقوله قائد كتيبته ، وما الذى قد تقوله أمه وزملاؤه** .. وشعر بجزع واشمئزاز من نفسه ، حتى انه ــ رغبة فى نسيان نفسه ــ نهض ، وراح يذرع الحجرة ، محاولا أن لا تهبط قدمه فى خطواته ، الا حيث تلتحم أخشاب الارض ، وبدأ ــ من جديد ــ يتذكر بجلاء كل دقيقة من دقائق اللعب .. تمثل بجلاء كيف بدأ يكسب نقوده من جديد ، وكيف سحب «تسعة» ووضع « الروا السباتى» على ألفى روبل . ووزع المشرف على (البنك) الورق ، فنال اليمين « دام » ، ونال اليسار « آس » .. ثم « روا كبه » الى اليمين ، فاذا كل شىء يضيع . ولو قدر لليمين أن ينال « ستة » ــ مثلا ــ وان ينال اليسار « الروا الكبة » ، لقدر له أن يكسب ، وللعب مرة أخرى على ان يكسب الضعف أو ينسحب من اللعب ، ولربح خمسة عشر الف روبل ، ولاستطاع أن يبتاع من قائد كتيبتــه جوادا « رهوانا » ، وزوجا آخر من الجياد ، ومركبة خفيفة « فايتون » . ثم ، ماذا بعد ؟ .. كان كل شىء يصبح بديعا ، رائعا ! .. وعاد الشاب ينبطح على الاريكة ، يمضغ شعر الخيل ! .. وراح يسائل نفسه : « لماذا تراهم يغنــون فى الحجرة رقم ٧ ؟ لا بد أن ثمة شرابا عند توربين . أأذهب وأسكر ؟ »

* * *

وفى تلك اللحظــة دخل الكونت ، فصــاح : « ماذا ايهــا

الزميل ؟ هل جردت من كل مالك ؟ » . فقال ايلين لنفسه : « سأتظاهر بالنوم ، والا فسوف اضطر الى أن أتحدث اليه، مع أنني اريد ان انام ! » . بيد ان توربين تقدم منه ، وربت رأسه قائلا : « حسنا يا صديقى العزيز ، هل جردت من كل مالك ؟ .. هل خسرت كل شيء ؟ .. انبئنى ! »

ولم يحر « ايلين » جوابا ، فجذب الكونت ذراعه . وإذ ذاك تمتم « ايلين » — فى صوت ناعس ، غير مكترث ، مثقل بالهم — دون أن يبدل من وضـــعه : « خسرت .. ولكن ، ما شانك انت ؟ » . فصاح الكونت : « كل شيء ؟ » . وكان الجواب : « اجل .. وما فى ذلك ؟ .. كل شيء ، ففيم يهمك الامر ؟ » . فقال الكونت وهو يميل الى الترفق ، تحت تأثير الخمر التى شربها ، وقد ظل يربت شعر ايلين : **« اسمع ، صارحنى بالحقيقة كزميل لك .. لقد تملكنى ميل اليك ، فقــل لى الحق . اذا كنت قد خسرت نقودا تمت للتــاج ، فسأنقذك من مأزقك ، فأن الفرصة سرعان ما تفلت .. أكان معك نقود للتاج ؟ » . فقفز ايلين ناهضا ، وقال : « حسنا ، اذن .. اذا شئت ان اخبرك ، فلا تتحـدث الى ، لاننى .. ارجوك ، لا تكلمنى .. ان الحل الوحيد هو ان اطلق الرصاص على نفسى ! »**

وكان يأسه صادقا .. وهوى رأسه على راحتيه ، وانفجر باكيا ، رغم انه كان — قبل لحظة — يفكر فى الخيل بهدوء .. وقال الكونت : « يا له من مسلك بديع ، كمسلك البنات !.. اين الرجل الذى لم يفعـل ما فعلته انت ؟ .. انهـا ليست نكبة بالغة ، ولعلنا نستطيع اصلاح الامر . انتظرنى هنا ! »

وغادر الكونت الحجرة ، فسأل خدم الفندق : « أين حجرة السيد لوخنوف ؟ » . وتطوع خادم بمرافقته اليها . ودخلها الكونت ، رغم ان تابع لوخنوف الخاص أخبره بأن مولاه قد عاد لتوه ، وكان يخلع ثيابه .. **ووجده الكونت جالسا الي**

منضدة — وهو فى ثوب الغرفة (الروب دى‌شامبر) — وقد راح يحصى عدة حزم من الاوراق المالية كانت ملقاة امامه .
وكانت على المنضدة زجاجة من « روم » الراين ، الذى كان جد مولع به ، فكان يسمح به لنفسه — بعد الكسب — على سبيل المتعة ! .. وتطلع « لوخنوف » فى فتور وعبوس — خلال عوينتيه — الى الكونت ، وكأنه لم يعرفه . فقال‌هذا ، وهو يخطو الى المنضدة فى‌اصرار : « احسبك لاتعرفنى ! » . فأبدى « لوخنوف » ما ينم عن‌معرفة ، وسأله : « وما الذى تبتغيه ؟ » . فأجاب توربين وهو يجلس‌على الاريكة : «أحب أن ألعب معك » . فهتف الرجـل : « الآن ؟ » . وأجـاب زائره : « اجل »

— يسرنى أن ألعب معك فى وقت آخر يا كونت : أما الآن، فاننى متعب ، وسـآوى الى فراشى . هل لك فى قدح من الخمر ؟ .. انه نبيذ مشهور !

— ولكننى أريد أن العب قليلا .. الآن !

— لست اعتزم اللعب الليلة .. ربما رغب بعض السادة الآخرين ، أما انا ، فلست اريد .. ارجو أن تعذرنى ياكونت!

— اذن ، فأنت تأبى ؟

وهز « لوخنوف » كتفيه ، ليعبر عن اسـفه لعجزه عن التصرف بما يرضى رغبة الكونت . بينما عاد هذا يتساءل : « أتأبى ، مهما تكن الاحوال ؟ » . ولم يتلق جوابا ، سوى الهزة نفسها . فقال : « ولكننى ارجو هذا ، بوجه‌خاص .. فهل تلعب ؟ » .. وكان الجواب صمتا . فعاد يتسـاءل : « هل تلعب ؟ .. فكر ! » . ولم يجب الآخر بغير الصمت ونظرة سريعة — من‌فوق حافتى‌عوينتيه — الى‌وجه الكونت، الذى بدأ يتجهم. فصاح هذا بصوت‌عال ، وهو يدق‌المنضدة بقبضته ، فيقلب الزجاجة ، ويريق الخمر : **« هل تلعب؟.. أنت تعرف انك لم تـكسب عن حق .. هـل تلعب ؟ اننى**

اسألك للمرة الثالثة ! » . فأجاب لوخنوف ، دون ان يتطلع اليه : « قلت انني لن العب . انه لامر عجيب حقا ، ياكونت. ثم انه ليس من اللائق اطلاقا ان تأتي ، فتسلط سكينا على حلق رجل ! »

واعقب ذلك صمت اشتد فيه شحوب الكونت . وفجأة، هوت على رأس «لوخنوف» ضربة ، اذهلت حواسه ، فوقع على الاريكة محاولا ان يمسك بالنقود ، واطلق صرخة مرتاعه مدوية ، ما كان أحد ليتوقعها من رجل في مثل هدوئه ورصانته . **وجمع توربين ما كان على المنضدة من نقود ، ودفع الخادم ـ الذى جرى لمعونة سيده ـ عن طريقه ، وبارح الحجرة في خطوات سريعة . حتى اذا بلغ الباب ، التفت الى لوخنوف قائلا : « اذا شئت ترضية ، فانا في خدمتك ! »..** وكان كل ما سمع في الحجرة هو : « لص ! .. سارق ! .. سأستعدي القانون عليك ! »

ولم يكن « ايلين » قد حفل بوعد الكونت بأن يساعده ، فظل راقدا على الاريكة في حجرته ـ كما كان من قبل ـ وهو يجهش ببكاء يائس .. ولم يبارحه ادراك حقيقة ماحدث له.. الادراك الذى استطاعت ملاطفات الكونت وعطفه أن تكشف عنه من بين المشاعر والافكار والذكريات المتشابكة ، التى كانت تملا رأسه ونفسه .. **لقد ضاع كل شيء تماما ـ شبابه الغنى بالامل ، وشرفه ، واحترام المجتمع ، واحلام الحب والصداقة !** .. وبدأ نبع دموعه يفيض ويغدق باطراد ، واخذت فكرة الانتحار تزداد الحاحا عليه ، ولم تعد تملا نفسه اشمئزازا وجزعا .

واذ ذاك ، سمع خطوات الكونت الثابتة .. وكانت آثار الغضب لا تزال بادية على وجه توربين ، كما كانت يداه تهتزان قليلا ، ولكن عينيه كانتا تفيضان بطرب رحيم ، وبرضى عن النفس .. وقال وهو يلقي على المائدة عدة حزم من

الاوراق المالية : « هاك .. لقد اكتسبناها ثانية ! .. تأكد من ان جميع نقودك هنا ، ثم اسرع وتعال الى قاعة الجلوس !» .. ثم أردف : « فانني راحل لتوى »

وكأنما لم يلمح الفرح ، والعرفان ، والانفعال البالغ ، على وجه ايلين ، فبارح الحجرة وهو يردد بالصفير لحنا من الحان الفجر !

— « ٨ » —



• اقبل ساشكا — وقد أحاط خصره بحزام عريض — فأعلن أن الجياد معدة ، ولكنه أصر على وجوب استرداد معطف الكونت — الذي قال أن ياقته الفرائية كانت تساوى ثلاثمائة روبل — وعلى اعادة المعطف الازرق الباهت ، الذى كان الكونت يرتديه ، الى الشقى الذى تركه وأخذ معطف الكونت بدلا منه ، فى قصر المارشال .. وما درى حقيقة الامر ، ولكن الكونت قال له أن لا حاجة هناك الى البحث عن المعطف ، ثم سار الى حجرته ليستبدل ثيابه • بينما استولى الفواق (الزغطة) على الفارس المتقاعد ، وهو يجلس الى جوار فتاته النورية .. وصاح قائد الشرطة يطلب « فودكا » ، ودعا الجميع الى أن يرافقوه ليتناولوا الفطور معه ، ممنيا أياهم بأن زوجته

سترقص ولا بد مع الفجر . وكان الشاب النبيل الوسيم ، مستغرقا فى حديث جاد مع « ايليوشكا » ، ليبين له أن ثمة رحا حقة فى أنغام البيانو ، وأنه من غير المستحب توقيع الأنغام المنخفضة العميقة على الجيتار . أما الموظف ، فقد جلس واجما فى أحد الاركان ، يشرب الشاى ، وقد بدا — فى ضوء النهار — مستحييا من سكره وتأثير الخمر عليه . وكان الغجر يتناقشون فيما بينهم — بلغتهم القومية — بصدد الهتاف ثانية لضيوفهم — على ما اعتادوا اذا أرادوا أن يختتموا غناءهم ورقصهم — فكانت ستيشكا تعارض ، قائلة أن « أنباروردى » — وهى فى اللغة النورية ترادف « كونت » أو « أميرا » ، أو على الادق : سيدا عظيما — خليق بأن يغضب لذلك . وكانت آخر جمرات العبث تخمد فى نفوس الجميع ، بوجه عام !

وقال الكونت وهو يلج قاعة الجلوس — فى ثياب السفر — وقد تجدد نشاطه ومرحه ، وبدا أجمل من ذى قبل : « حسننا ، لنسمع أغنية وداع ، ثم ينطلق كل منا فى طريقه ! » . فكون الغجر حلقتهم من جديد ، وكانوا على وشك أن يبدأوا الغناء ، حين دخل « ايلين » ، وفى يده حزمة من الاوراق المالية ، وانتحى بالكونت جانبا ، وقال : « لم يكن معى من نقود التاج سوى خمسة عشر ألف روبل ، ولكنك أعطيتنى ستة عشر ألفا وثلاثمائة .. فهاك المبلغ الزائد ! »

— هذا بديع ، هاته !

وأعطاه « ايلين » النقود ، ونظر اليه فى استحياء ، ثم فتح شفتيه ليقول شيئا ، ولكنه لم يتكلم ، بل تضرج وجهه ، وتبادرت الدموع الى عينيه ، وامسك بيد الكونت وأخذ يشد عليها . فقال هذا : « عليك بالرحيل ! .. اسمع يا ايليوشكا ! هاك بعض المال لكم ، على أن ترافقونى بالاغانى الى خارج البلدة ! » .. وطوح بالالف وثلاثمائة روبل — التى أحضرها اليه

ايلين ــ فاستقرت على الجيتار . ومع ذلك ، فقد نسي الكونت أن يرد المائة روبل التى كان قد اقترضها من الفارس المتقاعد فى اليوم السابق !

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة ، وقد أشرقت الشمس فوق سطوح المنازل ، وبدأ الناس يروحون ويغدون فى الطرقات ، وقد فتح أصحاب الحوانيت أبوابهم منذ فترة ، وانطلقت عربات وجهاء القوم وكبار الموظفين تجوس خلال الطرقات . وأقبلت السيارات على السوق .. وقصارى القول ، كان النشاط قد دب فى المدينـــة ، حين خرج الفجر ــ بكامل فرقتهم ــ وقائد الشرطـة ، والفـارس المتقاعد ، والنبيـل الوسيم ، وايلين ، والكونت ــ فى المعطف الازرق المبطن بفراء الدب ــ الى باب الفندق .. وكان النهار مشمسا ، وقد أخذ الجليد فى الذوبان . وأقبلت على الباب ثلاث زحافات كبيرة ــ من زحافات البريد ــ تجر كلا منها ثلاثة من الخيل عقدت ذيولهـا .. وصـعد الى الزحافة الاولى : الكونت وايلين ، وستيشكا ، وايليوشكا ، وساشكا تابع الكونت . وكان «بلوخر» يهز ذيله ، وينبح فى الجياد . وصعد بقية السادة الى الزحافتين الاخريين ، ومعهم سائر الفجر نساء ورجالا . وما أن انطلقت الزحافات ، حتى بدأ الفجر يعزفون ويغنـون .. واختلط غناؤهم باجراس الزحافات ، فكانت المركبات الاخرى تندفع نحو الارصفة ، مفسحة الطريق للموكب ، الذى اندفع خلال البلدة ، ميمما شطر ابوابها الخارجية .. ولم تبد الدهشة على أصحاب الحوانيت والمارة الذين لم يكونوا يعرفون القوم ــ فما بالك بمن كانوا يعرفونهم ! ــ اذ رأوا هؤلاء الوجهاء يجوسون خلال الطرقات فى وضح النهار ، مع النوريات ، ومع السكارى من رجال الفجر ، وهم يغنون .

وعندما اجتازوا أبواب المدينة ، توقفت الزحافات ، وشرع كل امرىء يودع الكونت . واستولى حزن مفاجىء شديد على

« ايلين » – الذى كان قد أسرف فى الشراب ، وقاد الزحافة بنفسه – فراح يلحف على الكونت أن يبقى ليوم آخر . حتى اذا وجد أن الامر غير ممكن ، اندفع فجأة الى صديقه الجديد ، فقبله ، ووعده – ودموعه تجرى – بأن ينتقل الى كتيبة الفرسان الخفيفة ، التى كان الكونت فيها ، بمجرد عودته الى قيادته . وكان الكونت شديد المرح فوق عادته ، فدفع الفارس المتقاعد – الذى ازدادت ألفته فى الصباح – وألقى به فى بركة من الجليد الذائب .. وأطلق « بلوخر » على قائد الشرطة ، واحتوى « ستيشكا » بين ذراعيه ، وود أن يحملها معه الى (موسكو) . ثم قفز أخيرا الى الزحافة ، وأجلس بلوخر الى جواره . وقفز « ساشكا » الى جانب السائق ، بعد أن كرر رجاءه للفارس المتقاعد كى يستعيد معطف الكونت ويرسله اليه .. وصاح الكونت : « انطلق ! » ، ثم خلع قلنسوته ولوح بها فوق رأسه ، وأرسل صفيرا يستحث به الجياد ، كما يفعل حوذية محفات البريد ، فانطلقت الزحافات .

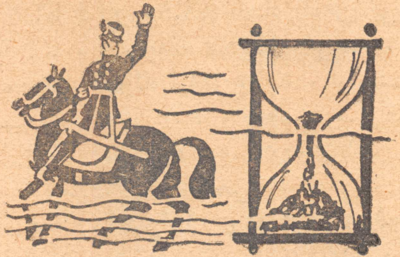
وكان السهل مغطى بالجليد ، وليس فيه من المناظر مايدفع السأم ، وقد تعرجت خلاله طريق قذرة يميل لون أديمها الى الصفرة . وكانت أشعة الشمس المشرقة – التى راحت تنعكس على الجليد الذائب ، فى بريق يعابث العيون فى دلال – ذات دفء مستعذب ، يسرى فى وجه المرء وظهره . وأخذ البخار يتصاعد كثيفا من الجياد التى بعث الجهد فى أجسادها دفءا .. وراحت أجراس المحفة تصلصل فى مرح . وكان ثمة فلاح يقود محفة مثقلة بالاحمال ، فأسرع يدفعها بعيدا عن الطريق ، وهو ينثر الماء أثناء خوضه برك الجليد الذائب بحذاءيه المصنوعين من لحاء الشجر .. وفى محفة أخرى – مثقلة بالاحمال – جلست فلاحة سمينة ، ذات وجه أحمر ، وقد دست طفلا رضيعا فى صدر معطفها المصنوع من جلد الغنم ، وراحت تستحث جوادا أبيض ، هزيل الذيل ، مكدودا ..

وخطرت ((آنا فيدوروفنا)) فجأة بذهن الكونت ، فصاح : ((ارجع ثانية !)) . ولم يفقه الحوذى غرضه ، فعاد يصيح : ((عد ثانية .. الى المدينة ! أسرع !)) . واجتازت الزحافة أبواب المدينة من جديد ، واندفعت مسرعة الى الابواب الخشبية لدار ((آنا فيدوروفنا)) . وطوى الكونت سلم الدار ، واجتاز البهو ، ومرق خلال حجرة الجلوس ، حتى اذا وجد الارملة لا تزال نائمة ، احتواها بين ذراعيه ، ورفعها عن السرير ، وقبل عينيها الناعستين ، ثم هرع عائدا . ولعقت ((آنا فيدوروفنا)) شفتيها ، وهى وسنانة ، وتمتمت : ((ما الذى جرى ؟)) .. وكان الكونت قد قفز الى محفته ، وصاح فى السائق ، فانطلقت به المحفة .. وغادر بلدة (ك ...) الى الابد ، وقد خلا فكره من كل شىء عن ((لوخنوف)) ، والارملة ، و ((ستيشكا)) ، ولم يعد يشغله سوى .. ارتقاب ما كان ينتظره فى (موسكو)

. . . . . .
. . . . . .

« ٩ »

• وانقضى أكثر من عشرين عاما ، سالت خلالها مياه كثيرة ، ومات خلالها اناس كثيرون ، كما ولد خلق أكثر .. وشب كثيرون واكتهل كثيرون .. وولد مزيد من الآراء الجديدة ، ثم ذوى ومات .. وفنى الكثير من القديم الذى كان جميلا ، والكثير من القديم الذى كان رديئا .. ونما كثير مما كان جميلا وحديثا ، كما ظهر فى دنيا الله أكثر منه مما كان فجا ، وفظيعا ، وجديدا .. وكان ((الكونت فيدور توربين)) قد قتل منذ أمد طويل ، فى مبارزة مع رجل اجنبى كان الكونت قد جلده بسوط الخيل فى عرض الطريق



وصار ابنه ـ الذى كان يشبهه فى تركيبه البدنى ، كماتشبه قطرة الماء أختها ـ شابا مليحا فى الثالثة والعشرين من عمره ، يخدم فى فرقة « الحرس الفرسان » . على ان « توربين » الصغير لم يحرز اقل شبه بأبيه ، فى الناحية الخلقية ، فلم يكن به ظل من النزوات الوقحة ، المشبوبة ، بل المنحطة ـ ان شئت الصراحة ـ التى امتاز بها الجيل المنقرض . ولكنه ورث ـ الى جانب الذكاء ، والثقافة ، والفطرة الموهوبة ـ حبا للثراء والرفاهية ، ونظرة عملية الى الرجال والاعمال .. وكان التعقل والحكمة هما أكثر صفاته المميزة . وقد مضى الكونت الشاب قدما فى السلك العسكرى ، فكان « ملازما أول » وهو فى الثالثة والعشرين . حتى اذا بدأت الحرب ، هداه فكره الى أن ترقيته تصبح اكثر احتمالا ، اذا هو انتقل الى الجيش العامل ، ومن ثم فقد التحق برتبة « كابتن » باحدى كتائب الفرسان الخفيفة ، وسرعان ما أصبح قائد فصيلة .

وفى مايو سنة ١٨٤٨ ، كانت كتيبة الفرسان « ... » تتحرك خلال اقليم (ك ...) فى حملة ، وقد صدرت الاوامر للفصيلة التى كان يقودها الكونت توربين الشاب ـ بالذات ـ أن تقضى ليلتها فى قرية (موروزوفكا) ، التى كانت من أملاك « آنا فيدوروفنا » .. وكانت « آنا فيدوروفنا »

لاتزال على قيد الحياة ، ولكنها كانت قد بعدت عن الشباب كثيرا ، حتى انها لم تعد ترى نفسها شابة ، وهو أمر يصعب على أية امرأة أن تعترف به ! .. وكانت قد اصبحت مفرطة السمنة ، مما يقال انه يجعل المرأة تبدو أصغر سنا . ومع ذلك فقد تخللت سمنتها البضة تغضنات عميقة ، ناعمة ! .. ولم تعد تذهب الى البلدة قط ، فقد أصبح الصعود الى عربتها جهدا مضنيا لها .. بيد انها ظلت رقيقة القلب ، غبية كعهدها من قبل .. فقد بات من الممكن للمرء أن يقول الحق ، بعد اذ لم يعد جمالها يستهوى المرء !

وكانت ابنتها « ليزا » .. التى بلغت الثالثة والعشرين من عمرها — تعيش معها ، وهى حسناء ريفية روسية .. كما كان اخوها — صاحبنا الفارس المتقاعد — يقيم معهما بعد اذ بدد ثروته الصغيرة ، عن طيب خاطر ، فوجد فى دار آنا فيدوروفنا » مقاما فى كهولته . وكان شعره قد أصبح أشيب ، وقد غاصت شفته العليا وتجعدت ، وان ظل الشاربان اللذان كانا يعلوانها يلقيان عناية ، ويصبغان باللون الاسود .. ولقد انحنى ظهره ، ولم تقتصر التغضنات والتجاعيد على جبينه وخديه ، وانما شملت أنفه وعنقه كذلك .. غير أن مسلك الفرسان ظل باديا فى حركات ساقيه الكليلتين الموجوعتين!

وجلست الاسرة وأهل البيت — فى ذلك اليوم — فى حجرة الجلوس الصغيرة ، ذات الباب المفضى الى الشرفة ، وذات النوافذ المطلة على الحديقة العتيقة — المنسقة على شكل نجمة — وأشجار الموالح فيها . وكانت « آنا فيدوروفنا » الشيباء ، تجلس على الاريكة فى سترة بنفسجية اللون ، وقد أخذت ترتب أوراق اللعب على منضدة مستديرة من خشب « الموجنى » .. اما أخوها المسن ، فقد استقر — فى سروال (بنطلون) أبيض نظيف ، وسترة زرقاء — الى جوار النافذة ، وقد راح يجدل حبلا من القطن الابيض بمعونة شوكة

خشبية .. وهى ملهاة علمته اياها ابنة اخته ، فاحبهاكثيرا لانه لم يعد يقوى على شىء آخر ، كما ان عينيه كانتا قد ضعفتا فلم تعودا تمكنانه من قراءة الصحف ، وهى هوايته المفضلة . وكانت « بيموشكا » – وصيفة آنا فيدوروفنا – تجلس الى جواره تستذكر درسا ، و « ليزا » تساعدها ، وتنسج – فى الوقت ذاته – جوربين من صوف الماعز لخالها ، بابرتين من الخشب . وكانت أشعة الشمس الجانحة للمغيب ، تتسلل – كعادتها فى مثل هذه الساعة – خلال أشجار الموالح ، وتلقى أضواء خفيفة على النافذة القصوى وما الى جوارها . وكان الهدوء يسيطر على الحديقة والحجرة ، حتى لقد كان بوسع المرء أن يسمع حفيف جناحى عصفور خارج النافذة ، وزفرات آنا فيدوروفنا ، وأنين الرجل المسن وهو يرفع ساقا ليسندها الى الساق الاخرى .

وقالت آنا فيدوروفنا ، وهى تستريح من ترتيب أوراق اللعب : « كيف يسير النسيج ؟ .. أرينى ياليزا ، فانى أنسى دائما ! » .. وسارت اليها « ليزا » – دون أن تكف عن حبك الصوف – وألقت نظرة على أوراق اللعب ، وقالت : « لقد افسدت نظامها ياأماه !» . وعكفت على ترتيبها وهى تقول : « هكذا يجب أن تكون ، ولن يعرقل هذا استطلاعك الحظ خلالها ! » . فقالت الام : « لا بأس ، لا بأس ، أيتها الهرة الماكرة ! ولكن ، أليس هذا وقت الشاى ؟ » . فقالت الفتاة : « لقد أمرت بايقاد نار الغلاية (الساموار) ، وسأرى ماذا تم . أتريدين أن تتناولى الشاى هنا ؟ .. هيا يا بيموشكا ، أسرعى وافرغى من درسك ! » . وأسرعت « ليزا » الى الباب ، فصاح خالها ، وهو ينعم النظر فى شوكته الخشبية : « ليزا .. ليزى ! أعتقد أننى افلت غرزة ، فالتقطيها لى يا عزيزتى ! »

— سآتى حالا .. يجب أولا أن أعطيهم قمعا من السكر ليكسروه !

وصدقت فى وعدها ، فما لبثت أن عادت مهرعة بعد ثلاث دقائق ، وقرصت أذن خالها ، قائلة وهى تضحك : « هذا جزاء افلات الفرز ! » . فقال خالها : « حسنا ، حسنا ، لا بأس .. أصلحيها .. هناك عقدة صغيرة ! » . فتناولت « ليزا » الشوكة ، وسحبت دبوسا من شعرها ، الذى عبث به النسيم قليلا ، اذ انساب خلال النافذة — والتقطت به الفرزة ، وأصلحت الخيط ، ثم ردت الشوكة الى خالها ، قائلة له ، وهى تقدم له خدها الوردى ، بينما كانت تعيد الدبوس الى شعرها : « الآن ، أعطنى قبلة مقابل مافعلت . ستظفر ببعض « الروم » مع الشاى اليوم ، فهو يوم الجمعة كما تعلم ! » . وسارت الى حجرة الشاى ، ثم صاحت من هناك بصوتها الصافى : « تعال وانظر يا خالى ، ان الفرسان قادمون ! » .. فخفت « آنا فيدوروفنا » مع أخيها الى حجرة الشاى — التى كانت نوافذها تطل على القرية — لترى الفرسان . ولم يكن ما بدا خلال النوافذ كثيرا ، بل تمثل كله فى حشد يسير وسط غلالة من الغبار . فقال الرجل المسن لاخته : « من المؤسف أن تكون حجراتنا صغيرة يا أختاه ، وان الجناح الجديد لم يكتمل بناؤه ، والا لاستطعنا أن ندعو الضباط . فان ضباط الفرسان الخفيفة من أبدع الشباب وأبهجهم ، وكانت رؤيتهم كفيلة بأن تشرح الصدر ! » . فقالت آنا فيدوروفنا : « كم كنت أسر بهذا ياشقيقى ، ولكنك تعرف اننا لم نؤت غرفا كافية . فهناك مخدعى ، وحجرة ليزا ، وحجرة الجلوس ، وهذه الحجرة ، وحجرتك .. وهذا كل ما هناك ! .. فأين ترانا كنا ننزلهم ؟ .. لقد نظف كوخ شيخ القرية لايوائهم ، ويقول ميخائيل ماتفييف انه أصبح تام النظافة! »

ـ كان انزالهم هنا كفيلا بأن يمكننا من أن نختار زوجا منهم لك ياليزى .. فارس بديع من الكتيبة الخفيفة !

ـ لست أريد فارسا من الكتيبة الخفيفة ، وأفضل عليه فارسا من « الاوغلان » .. ألم تكن أنت من « الاوغلان » ياخالى ؟ .. لاشأن لى بفرسان الفرقة الخفيفة ، اذ يقال أنهم جميعا مفسودون !

واحمر وجهها قليلا ، واطلقت ضحكة كأنغام الموسيقى . ثم أردفت : « هاهى ذى اوستيوشكا تقبل مهرعة ، فلنسألها عما رأت » . وسألتها آنا فيدوروفنا أن تدعو اوستيوشكا ، فلما أقبلت هذه ، بادرتها قائلة : « لاقبل لك بأن تنصرفى الى عملك ، فليس بوسعك أن تستغنى عن الجرى لترى الجنود .. اين نزل الضباط ؟ » . فأجابت الخادم : « فى بيت ايرومكين يا مولاتى . أنهما ضابطان .. ما أملحهما ! .. يقال أن أحدهما كونت ! » . فسألتها آنا فيدوروفنا : « وما اسمه ؟ » . وأجابت الفتاة : « كازاروف ، او توربينوف .. يؤسفنى ان نسيت ! »

ـ ما أغباك ! .. أليس بوسعك أن تنبئينا بشىء ذى قيمة . كان خليقا بك أن تعرفى الاسم على الاقل !

ـ حسنا سأجرى الى هناك ثانية .

ـ أعرف أنك ماهرة فى هذا .. لا ، دعى دانييل يذهب! .. قل له يا أخى أن يسأل عما اذا كان الضابطان فى حاجة الى شىء ، فمن الواجب اظهار بعض المجاملة لهما ، على أية حال . دعه يقول أن سيدة الضيعة أوفدته للسؤال عنهما !

وجلس الشقيقان المسنان فى حجرة الشاى ، بينما ذهبت « ليزا » الى غرفة الخدم لتضع السكر الذى تم تكسيره فى الصندوق . وكانت اوستيوشكا هناك تحدث

الخدم عن الفرسان ، فما ان رأتها حتى همست : « يالهـذا الكونت من رجل مليح يامولاتى الحبيبة !.. ملاك ذوحاجبين أسودين . ولو قدر لك زوج مثله، لكنتما زوجين متلائمين » وابتسمت الخـادمات الاخريات محبـذات ، بينمـا تنهدت المربية العجوز ، وهى تقوم ببعض التطريز الى جوار النافذة ، وراحت تدعو الله هامسة ، بينما قالت ليزا لاوستيوشكا : « اذن فقد أحببت الفرسان ! .. ماأبرعك فى رواية مارأيت! .. اذهبى واحضرى شيئا من عصير « الآس البرى » ، لنعد للفرسان شيئـا يشربونه ! » . وانصرفت حاملة صـندوق السكر ، وهى تضحك . ولكنها راحت تقول لنفسها : « ليتنى أرى حقا ذلك الضـابط الفارس .. أهو أسمر أم أشقر ؟ وما أحسبه الا كان يسر بالتعرف الينـا .. ولو أنه رحـل ، فان يقـدر له أبدا أن يعرف أننى كنت هنا ، واننى فـكرت فيه . وكم من أمثاله مروا على مقربة منى ؟ .. منذ الذى يرانى هنا سـوى خالى ؟.. مامن أحـد يغتبط اذا مارأى الطريقة التى أعقص بها شعرى ، أو الثياب التى أرتديها ! »».

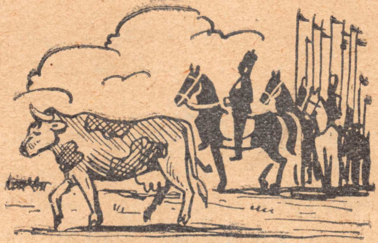
وتنهدت وهى تتأمل ذراعها البضة الممتلئة ، ثم عادت تفكر: « أحسبه طويلا ، واسع العينين ، ذا شاربين صغيرين ! .. وها أنذى هنا ، قد جاوزت الثانية والعشرين ، دون أن يقع أحد فى حبى ، اللهم الا ايفان ايباتيش الذى شوه الجدرى شكله .. بل اننى كنت منذ أربع سـنوات أجمل ممـا أنا اليوم .. وهكذا تمر أيام شبابى دون أن أشرح صدر احد . اواه ، يالى من فتاة قروية مسكينة .. مسكينة ! »

وايقظ القروية المسكينة من أحلامها صوت أمها يناديهـا لتصب الشاى فى الاقداح ، فرفعت رأسها مجفلة ، وأسرعت الى حجرة الشاى .. وكثيرا ما تأتى خير النتائج عفوا ، بينما تأتى اسوا النتائج كلما ازداد المرء جدا . وفى الريف قل أن

يعنى الناس بتعليم أولادهم ، ومن ثم فهم يتيحون لهم — دون أن يفطنوا — تعليما بديعا . وقد كانت هذه حال « ليزا » . اذ أن « آنا فيدوروفنا » — بذكائها المحدود ، واهمالها الفطرى — لم تتح لها تعليما .. أى أنها لم تعلمها الموسيقى ، ولا اللغة الفرنسية العظيمة النفع للفتاة .. ولكنها وقد أنجبتها عفوا — من زوجها الراحل — طفلة موفورة الصحة والجمال ، فقد هيأت لها مرضعة ومربية ، وألبستها خير الثياب القطنية الموشاة بالزخارف ، وأحذية من جلد الماعز واعتادت أن ترسلها لتتنزه فى الخلاء وتجمع النباتات الفطرية والتوت البرى .. واستأجرت لها تلميذة من مدرسة الدير لتعلمها القراءة والكتابة والحساب .. **حتى اذا انقضى ستة عشر عاما ، وجدت فى « ليزا » صديقة ، وأنيسة رحيمة القلب دائمة الانشراح ، وربة بيت نشيطة . ولما كانت « آنا فيدوروفنا » كريمة النفس ، فانها دائما ما كانت تأوى فى البيت بعض الاطفال لتربيتهم .. سواء كانوا من أبناء العبيد، او من اللقطاء** . وقد بلغت « ليزا » العاشرة ، بدأت تعنى بهم ، فتعلمهم ، وتلبسهم ثيابهم ، وتصحبهم الى الكنيسة ، وتكبحهم اذا أسرفوا فى اللعب المرهق . وعندما كبرت ، ظهر على مسرح حياتها الخال الرقيق القلب ، الموجوع الساقين ، الذى كان بحاجة الى من يعامله كطفل .. ثم أصبح الخدم والفلاحون يأتون للسيدة الصغيرة بمطالبهم العديدة ، وبأوجاعهم التى كانت الفتاة تعالجها بحب البيلسان والنعناع والكافور .. وكانت هناك شؤون التدبير المنزلى التى ألقيت على عاتقيها من تلقاء ذاتها .

وما لبثت أن أستيقظ فى اعماقها حنين لم يلق رضاء .. حنين الى الحب ، لم يجد منفذا له الا فى الطبيعة والدين .

فأصبحت ليزا أنثى نشيطة ، طيبة ، بشوشة ، معتمدة على نفسها ، طاهرة ، عميقة التدين .. ومن الصحيح أنها كانت تتألم - بعض الشيء - من جراء غرور أنوثتها ، اذا ما رأت جاراتها يقفن بجوارها فى الكنيسة ، مرتديات أحدث أنواع القبعات المجتلبة من بلدة (ك...) . وكانت تستاء أحيانا من نزوات أمها العجوز وزمجرتها ، الى درجة البكاء .. وكانت تراودها - كذلك - أحلام الحب ، فى أكثر صورة سذاجة واضحاكا . ولكن هذه الاحلام كانت تتبدد فى نشاطها النافع الذى تحول الى ضرورة . فلما بلغت الثانية والعشرين من عمرها ، لم يكن قد تبقى فى نفسها الصافية المطمئنة - نفس العذراء التى نمت بدنيا ونفسيا على أجمل صورة - أى أثر للندم أو الحسرة .. وكانت « ليزا » متوسطة الطول ، أقرب الى السمنة منها الى النحول ، ذات عينين فى لون ثمار البندق ، ليستا بالواسعتين ، وقد خلق جفناهما السفليان مكحولين قليلا . كما كان لها شعر طويل الغدائر ، ذو لون بنى فاتح . وكانت تسير فى خطوات واسعة ، وهى تتمايل قليلا كالبطة .. كما يقولون ! أما وجهها ، فكان يبدو - عندما تكون مشغولة ، وغير منفعلة - وكأنه يقول لكل من ينظر اليه : « من المبهج أن يعيش المرء فى الدنيا ، عندما يكون له من يوليه الحب ، وعندما يكون له ضمير صاف ! » .. حتى فى لحظات الاستياء ، أو الحيرة ، أو الجزع ، أو الحزن كانت تتجلى فى عينيها - بالرغم منها ، وبالرغم من الدموع التى تملأ عينيها وحاجبها الايسر العابس وشفتيها المزمومتين - نفس صريحة ، لم يفسدها عقل معوج .. كانت روحها الصافية تشع من غمازتى خديها ، ومن ركنى فمها ، ومن العينين المضيئتين اللتين اعتادتا الابتسام والرضى بالحياة !



— « ١٠ » —

• كان الجو لايزال حارا، رغم أن الشمس جنحت الى المغيب عندما دخلت الفصيلة قرية (موروزوفكا) .. وعدت أمام الفرسان — فى طريق القرية المتربة — بقرة جامحة شردت عن قطيعها ، فراحت تقف وتتلفت من آن الى آخر ، وهى ترسل خوارا ، دون أن يخطر لها ببال اطلاقا ، أن خير ماتفعله هو أن تتنحى عن الطريق . واحتشد الفلاحون — شيوخا ونساء وأطفالا ، وخدما من دار سيدة الضيعة — على جانبى الطريق ، وراحوا يتأملون الفرسان فى فضول ، بينما كان هؤلاء يمسكون بأعنة جيادهم — التي كانت تدق الارض، وتصهل أحيانا — وسط عاصفة كثيفة من الغبار . والى يمين الفصيلة ، كان ثمة ضابطان استويا — فى غير اكتراث — على صهوتى جوادين أسودين بديعين . وكان أحدهما هو « الكونت توربين » ، القائد . أما الآخر ، فكان شابا فى غضارة الصبا ، رقى حديثا من مرتبة الطلبة الى مرتبة الضباط، ويدعى « بولوزوف » .

ومن أحسن كوخ فى القرية ، خرج فارس فى سترة بيضاء من التيل ، فرفع قلنسوته ، وسار الى الضابط . فسأله الكونت : « أين المقر الذى خصص لنا ؟ » . فقال « جاويش

التعيينات» المشرف على مقام الفصيلة ، وقد شد جسمه كله: **« لقد نظف كوخ شيخ القرية لسعادتكما . وقد أردت أن أنزلكما فى دار سيدة الضيعة ، ولكنهم يقولون أن ليست هناك حجرات . ان صاحبة الزمام لئيمة ! »** . فقال الكونت وهو يترجل أمام كوخ شيخ القرية ، ويشد ساقيه : « لا بأس !.. وهل وصلت مركبتى الخفيفة ؟ » . فأجاب « جاويش التعيينات » ، مشيرا بقلنسوته الى الهيكل الجلدى لعربة ظهرت لدى المدخل الخارجى للكوخ ، واندفعت الى بابه الداخلى الذى اصطف عنده أعضاء أسرة شيخ القرية ليتأملوا الضابط: «ها هى ذى قد وصلت لتوها يا صاحب السعادة » . ودفع عجوزا من الواقفات ، وهو يفتح بنشاط باب الكوخ الذى نظف حديثا ، ويخطو جانبا ليفسح المدخل للكونت

وكان الكوخ كبيرا ، واسعا ، ولكنه لم يكن نظيفا للغاية . وكان الوصيف الالمانى – الذى كان يبدو فى لباس السيد الراقى – يقف فى الداخل ، يرتب الثياب فى حقيبة كبيرة ، بعد أن أقام سريرا حديديا ، وهيأ الفراش . **وهتف الكونت فى استياء : « أف ! .. يا له من مسكن قذر ! أليس بوسعكم أن تعثروا على شىء أفضل ، فى منزل أحد السادة ، ياديادينكو ؟ »** . فأجاب جاويش التعيينات : « اذا رغبت ياصاحب السعادة فسأحاول مرة أخرى فى بيت سيدة الضيعة . ولكنه لايبدو أفضل من الكوخ كثيرا » . فقال الكونت : « لا بأس .. انصرف ! » . واستلقى على الفراش ، وقد عقد ذراعيه تحت رأسه . وما لبث أن صاح بوصيفه : « جوهان ! .. لقد تركت جزءا عاليا فى الفراش .. كيف لا تتقن اعداد الفراش كما ينبغى ؟ » . فأسرع جوهان كى يسويه ، ولكن الكونت قال : « لا ، دعه الآن » . وأردف فى لهجة تنم عن عدم الرضى : « ولكن ، أين ثوب الغرفة ؟ » . فناوله الوصيف « الروب دى شامبر » . فتأمله الكونت –

قبل أن يرتديه ـ وقال : « لقد توقعت هذا .. ان البقعة لم تنظف بعد . أفهناك خادم أسوأ منك ؟ » . وشد الثوب من يد الخادم ، وارتداه قائلا : « قل لى : أتتعمد هذا الاهمال ؟ .. هل الشاى معد ؟ » . فقال جوهان : « لم يكن لدى وقت لاعداده » . فهتف الكونت : « يا لك من بليد ! »

وتناول الكونت بعد ذلك رواية فرنسية وضعت خصيصا الى جوار فراشه ، فراح يطالع فيها بعض الوقت ، فى صمت ، بينما خرج « جوهان » الى الردهة ليعد الغلاية . ولاح جليا أن الكونت كان سىء المزاج ، ولعل ذلك كان راجعا الى التعب ، والغبار الذى ران على وجهه ، والثياب المشدودة حول جسمه ، والمعدة الخاوية . فما لبث ان صاح ثانية : « جوهان ! احضر لى حسابا عن الروبلات العشرة . ما الذى اشتريته من البلدة ؟ » . وتأمل الحساب الذى قدم اليه ، وأدلى ببعض ملاحظات نمت عن عدم اقتناع بالاثمان الباهظة ، ثم قال : « قدم بعض الروم مع الشاى » . فقال جوهان : « اننى لم أشتر (روم) ! » . فصاح الكونت : « هذا بديع ! .. كم من مرة نبهتك الى وجوب وجود الروم ؟ »

ـ لم يكن معى كفاية من النقود

ـ اذن ، فلماذا لم يشتر بولوزوف قدرا منه ؟ .. كان يجب أن تحصل من خادمه على بعض النقود للروم !

ـ لست أدرى .. لقد ابتاع الشاى والسكر

ـ ياغبى ! .. اخرج ! .. انك الانسان الوحيد الذى يعرف كيف يجعلنى أفقد صبرى .. انك تعرف اننى أتناول دائما الروم مع الشاى فى الرحلات !

وكان حامل العلم « بولوزوف » قد أشرف على استقرار الفصيلة ، فأقبل بوجه مرح . وقال : « كيف الحال يا توربين ؟ .. يبدو أن المكان هنا لطيف . ولكنى أصارحك بأننى جد متعب ، فقد كان الجو حارا » . فصاح الكونت : « لطيف ؟ !

.. كوخ رطب قذر .. ولا (روم) بفضل سيادتك ، فان خادمك الغبى لم يشتر شيئا ، وكذلك هذا الغبى ! .. كان جدير بك أن تتذكر ، على الاقل ! » .. وخرج حامل العلم الى الردهة ، حيث راح يهمس لتابعه : « ولكن ، لماذا نشترى نحن كل شيء ؟ .. كأنما أنا المسئول عن دفع ثمن كل شيء ، فى حين أن وصيفه الالمانى لا يفعل شيئا سوى أن يدخن غليونه ! » .. وكان الكونت قد تسلم - فى تلك الاثناء - خطابين من وصيفه ، قرأ الاول ثم كوره وألقى به على الارض .. **وبدا أن الخطاب الآخر لم يخل من شيء لذ له ، اذ ابتسم وهو يقرأه ، فسأله بولوزوف ، وقد عاد الى الحجرة وشرع يعد لنفسه مرقدا على بضعة ألواح خشبية : « ممن هذا ؟ » . فأجاب الكونت مبتهجا ، وهو يسلمه الخطاب : « من مينا .. أتريد أن تراه ؟ .. يا لها من امرأة لطيفة ! .. الحق أنها أفضل بكثير من شابات طبقتنا الراقية** .. أنظر مدى ما فى هذا الخطاب من مشاعر وذكاء ! .. ليس به من عيب سوى أنها تطلب نقودا ! » . فقال الضابط : « أجل ، هذا عيب ! »

- من الصحيح أننى وعدتها ببعض المال ، ولكن هذه الحملة فاجأتنا ، كما أن .. ومع ذلك ، فسأرسل لها مبلغا ، اذا ظللت فى قيادة هذه الفصيلة ثلاثة أشهر أخرى . انها تستحقه ، فهى فاتنة !

وكان يراقب وجه بولوزوف وهو يقرأ الخطاب ، فما لبث هذا أن قال : « انه فظيع من الناحية النحوية ، ولكنه لطيف جدا ، ويلوح أنها تحبك حقا ! » . فقال الكونت : « اممم ! .. أظنها كذلك ! لا يخلص فى الحب سوى هذا الصنف من النساء ، اذا ما أحبت الواحدة منهن حقا ! » . فسأله الضابط الشاب : « وممن كان الخطاب الآخر ؟ » . **وأجاب الكونت وقد بدا مستاء : « آه ، ذاك .. هناك رجل ، وغد سخيف ، كسب منى فى المقامرة ، فهو يذكرنى بالدين للمرة الثالثة .. ولست**

أملك أن أدفعه فى الوقت الحاضر ! »

وسادهما الصمت برهة ، كان حامل العلم ـ الذى بدا خاضعا لتأثير الكونت وسلطانه ـ يلقى نظرات على أسارير توربين الوسيمة ، المكفهرة .. وما لبث هذا أن قال ، وهو يحتسى الشاى : « ولكن، أتعرف أن الامر قد يتحسن تحسنا جوهريا .. فلو أننا حصلنا على ترقية ـ بحكم الاقدمية ـ فى هذه السنة ، واشتركنا ـ الى جانب ذلك ـ فى بعض العمليات ، فانني قد أسبق فى الترقية من يتقدموننى فى الحرس » . وكان الحديث لايزال يدور حول هذا الموضوع ، عندما أقبل الشيخ « دانييل » ، وأبلغهما رسالة آنا فيدوروفنا ، ثم أردف من تلقاء نفسه : « وقد كلفت كذلك بأن أسأل عما اذا كنت ابن الكونت فيدور ايفانيتش توربين ؟ » .. وكان يعرف اسم الكونت ، ويذكر زيارته لبلدة (ك ...) . وعقب قائلا : « لقد كانت مولاتنا آنا فيدوروفنا على تعارف وثيق به ! » . فأجاب الكونت : **« لقد كان أبى .. وقل لمولاتك اننى جد ممتن لها ، ولسنا نريد شيئا ، ولكن .. قل اننا كلفناك بأن تسأل عما اذا كان من الممكن أن نظفر بغرفة أنظف من هذه ، فى أى مكان .. فى منزل الضيعة ، أو أى مكان ! »**

وقال له بولوزوف ، بعد انصراف دانييل : « لماذا فعلت ذلك ؟ ماذا يهمنا ؟ ـ اننا لن نمكث سوى ليلة واحدة .. وقد يضايقون أنفسهم من أجلنا » . فصاح الكونت : « يا لتفكيرك ! اعتقد أننا أخذنا حظنا من الاقامة فى الاكواخ القذرة ! .. من السهل أن يرى المرء انك لست عمليا . لماذا لا نقتنص الفرصة عندما يكون ذلك فى وسعنا ، فنعيش كالآدميين ، ولو لليلة واحدة ؟ .. انهم ـ على العكس ـ سيسرون جدا بأن يستضيفونا .. وأسوأ ما فى الامر ، ان تكون هذه السيدة قد عرفت أبى حقا ! » . وابتسم كاشفا عن أسنانه اللامعة ، وهو يقول : **« اننى أشعر دائما بالخجل**

من المرحوم أبى ، ففى كل مكان قصة فاضحة ، أو دين لم يسدده . ولهذا أكره أن التقى بمعارفه . على ان هذا كان سائدا فى ايامه)) . فقال بولوزوف : ((هل أخبرتك يوما بقصة قائد لواء ((اوغلانى)) يدعى ((ايلين)) ، التقيت به مرة ؟ .. لقد كان تواقا لان يراك ، فهو يحب أباك كل الحب!))

ـ اعتقد أنه امعة ! .. ولكن أسوأ ما فى الامر هم هؤلاء الاكابر الذين يؤكدون لى انهم كانوا يعرفون أبى ، ثم يروون عنه ـ وهم يتظاهرون بالتفكه ـ قصصا تجعلنى أخجل !.. من الحقيقى انه كان ذا طبيعة جامحة ، وكان يأتى ـ احيانا ـ أعمالا غير لطيفة . ولكن هذا كان مسلكا شائعا فى أيامه . ولو كان فى ايامنا ، لكان من المحتمل ان يصبح رجلا ناجحا كل النجاح ، فمن الانصاف ان نعترف بأنه كان ذا مواهب خارقة!

وان هو الا ربع ساعة ، حتى عاد الخادم برجاء من مالكة الضيعة ، أن يتكرم الضابطان فيقضيا الليلة فى دارها .

((١١))

• ما ان سمعت ((انا فيدوروفنا)) ان ضابط فصيلة الفرسان الخفيفة كان ابن الكونت فيدور توربين ، حتى استخفها الطرب ، وراحت تقول : ((واعجبا ! .. يا للفتى الحبيب ! .. اهرع يا دانيل ، فقل ان مولاتك تدعوهما الى دارها !)) . وقفزت مسرعة الى غرفة الخدم ، وهى تصيح : ((ليزى ! .. اوستيوشكا ! يجب أعداد حجرتك يا ليزا ، وبوسعك أن تنتقلى الى غرفة خالك . وما أرى لديك مانعا يا أخى من أن تنام الليلة فى حجرة الجلوس .. لليلة واحدة!))

ـ لست احفل يا اختاه ، فبوسعى ان أنام على الارض !

وقالت آنا فيدوروفنا ، وهى تروح وتغدو : ((لا بد من أن يكون جميلا ، اذا صح أنه يشبه اباه . لكم اتمنى ان أراه ،



هذا العزيز ! .. يجب أن تتأمليه جيدا ياليزا ، فلقد كان ابوه جميلا .. الى اين تأخذين هذه المنضدة ؟ .. دعيها هنا ، واحضرى سريرين .. خذى واحدا من حجرة رئيس الخدم ، واحضرى الشمعدان البلورى .. وضعى شمعا من النوع الجيد ! » .. واخيرا ، تم اعداد كل شىء ، ونسقت « ليزا » الحجرة للضابطين وفق هواها ، رغم تدخل أمها ، فنثرت على الفراشين أغطية نظيفة معطرة ، ووضعت شموعا وقنينة ماء على منضدة قريبة منهما ، ونقلت سريرها الى حجرة خالها . وهدأت آنا فيدوروفنا بعض الشىء ، فجلست فى مقعدها ، وعادت الى أوراق اللعب ، ولكنها بدلا من أن تستقرئها الحظ ، اسلمت رأسها الى راحتها ، وقد أسندت مرفقها الى المنضدة ، واستسلمت للتفكير ، وهى تهمس لنفسها :

« آه ، ياللزمن ! .. ما أسرع مايطير ! ألم يكن ذلك منذ أمد بعيد ؟ ومع ذلك فانى اكاد أتمثله الآن ! .. كان ارعن ! » . وتبادرت الدموع الى عينيها ، واستطردت تحدث نفسها : « وها هى ذى ليزى الآن .. ولكنها ليست كما كنت فى سنها .. انها فتاة بديعة ، ولكنها ليست كما كنت .. »

ثم رفعت صوتها قائلة : « ليزا .. يجب ان ترتدى ثوبك « الموسلين » الليلة ! » . فقالت الفتاة وهى لاتتمالك نفسها ،

لمجرد التفكير فى انها ستلتقى بالضابطين : «لماذا ياأماه ؟ ماأراك ستدعينهما للجلوس معنا ؟.. يحسن أن لاتفعلى ياماما !».. والحق أن رغبتها فى رؤيتهما كانت أقل من توجسها من الانفعال الطروب الذى تصورت أنه يرتقبها . ولكن آنا فيدوروفنا قالت وهى تربت راسها : « ربما رغبا هما فى ان يتعرفا الينا ياليزى ! » . وقالت لنفسها : « لا ، ان شعرها ليس كشعرى حين كنت فى سنها .. اواه يا ليزى ، لكم أتمنى لو أنك ..».

وكانت تتمنى مخلصة شيئا ما لابنتها . ولكنها لم تملك ان تتصور ان يكون هذا الشىء زواجا من « كونت » ، ولم تكن ترغب لابنتها علاقات كتلك التى كانت بينها هى وبين الاب.. ومع ذلك فقد ظلت تتمنى فى لهفة شيئا ما ! .. ولعلها كانت تتوق الى ان تبعث فى نفس ابنتها ما خبرته هى مع الاب الذى مات !

وكان الفارس الكهل منفعلا هو الآخر ، لمقدم الكونت ، فحبس نفسه فى غرفته ، ثم خرج بعد ربع ساعة فى سترة مجرية ، وسروال (بنطلون) أزرق فاتح ، ودخل الحجرة التى اعدت للزائرين ، وقد غشيه سرور مستحيى كذلك الذى يغشى الفتاة حين ترتدى ثوب سهرة للمرة الاولى فى حياتها . ثم قال : « سأنظر كيف هم فرسان الفرقة الخفيفة اليوم يا أختاه ! .. لقد كان الكونت المرحوم فارسا حقا ، ومثلا للفرقة ! سنرى ! »

* * *

وصل الضابطان الى الحجرة التى افردت لهما ، عن طريق المدخل الخلفى . فهتف الكونت وهو يستلقى ـ بثيابه وحذاءيه ـ على السرير الذى اعد له : « هاك ! أرأيت ؟ .. أليس هذا أفضل من الكوخ بصراصيره ؟ » . فأجاب بولوزوف : « هذا أفضل طبعا ، ومع ذلك .. ان نصبح مدينين لصاحبة

الزمام .. » . فقاطعه الكونت صائحا : « هراء ! .. يجب أن يكون المرء عمليا في جميع الامور . انهم جد مسرورين ، وأؤكد لك .. آه ، اسمع يا .. اطلب شيئا نسدله على النافذة ، والا تعرضنا لتيار هوائى بالليل ! »

وفي تلك اللحظة ، اقبل الفارس الكهل ليتعرف الى الضابطين . ولم يغفل بالطبع ان يقول انه كان والكونت المرحوم زميلين — وان قالها وقد تضرج وجهه قليلا — وانه نعم بالحظوة لدى الكونت .. بل واضاف انه كان أسير فضله مرة أو اثنتين . ولكنه أغفل أن يذكر أى فضل ذلك .. أهو اغفال الكونت ان يرد له المائة روبل التى اقترضها ، أو هو تعمده أن يلقى به على الجليد الذائب ، أو هو سبابه اياه أمام جمع من الناس!..

وابدى الكونت الشاب ادبا جما للفارس الكهل ، وشكر له المأوى الذى اتيح له ولزميله . فقال الكهل : «يجب ان تلتمس لنا العذر ، ايها الكونت ، اذا لم يكن مأوى فخما ! » .. وكاد يلقبه بصاحب السعادة ، وقد نسى عهده بمحادثة ذوى المكانة .. واستطرد قائلا : « ان بيت أختى صغير ، ولكننا سنسدل على النافذة ستارا فى الحال ، وسيصبح كل شىء كما تروم » . وانحنى مغادرا الحجرة مسرعا ، لا ليأمر باحضار الستار ، وانما ليدلى بتقرير عن الضابطين .

وأقبلت « أوستيوشكا » الحسناء بشال سيدتها ، فسدت به النافذة ، وقالت ان السيدة امرتها بأن تسأل السيدين عما اذا كانا يرغبان فى تناول بعض الشاى .. وبدا أن الوسط المريح قد اثر على مزاج الكونت ، فابتسم فى طرب ، ومازح « اوستيوشكا » حتى اوشكت ان تقول انه سافل ، وسألها عما اذا كانت سيدتها الصغيرة جميلة ، وقال — ردا عن سؤالها أن كانا يريدان شايا — ان لها أن تحضر الشاى ، ولكن المهم هو ان تحضر شيئا من الفودكا ، وشيئا يؤكل ، اذا لم يكن عشاؤهما معدا .

وكان الخال متحمسا للكونت الشاب ، فراح يطنب فى امتداح ادبه ، وفى اطراء الجيل الجديد من الضباط ، قائلا انه أرفع من الجيل الماضى بدرجة لا تدع سبيلا للمقارنة . ولم توافقه « آنا فيدوروفنا » ، فما من رجل يستطيع أن يسمو على الكونت فيدور ايفانيتش توربين .. وأخيرا ، اتخذ غضبها مظهرا جديا ، وقالت فى جفاء : « ان من يغلبك أخيرا ، هو المفضل عندك يا أخى .. ان الناس أكثر مهارة اليوم طبعا ، ولكن الكونت فيدور ايفانيتش رقص بابداع ، وكان لطيفا الى درجة ان كل امرىء كان متهوسا من اجله ، مع انه لم يبد اهتماما بأحد سواى ! .. ومن ثم ترى انه كان هناك اناس لهم قدرهم ، فى الايام السالفة كذلك ! » . وهنا بلغها طلب الفودكا ، والمنعشات الخفيفة ، فقالت : « أرأيت يا اخى انك لا تتصرف قط التصرف الصحيح ؟ .. كان من الواجب ان تأمر بالعشاء ! .. مرى باعداده يا ليزا ! »

وهرعت « ليزا » الى المخزن لتحضر بعض الفطريات المخللة ، والزبد الطازج ، وأمرت الطاهية باعداد بعض الفطائر المحشوة . وقالت آنا فيدوروفنا : « هل لديك شىء من شراب الشيرى يا اخى ؟ » . فقال : « لا يا أختاه ، لم يكن لدى شىء منه اطلاقا ! .. انما الذى لدى « روم » يا آنا فيدوروفنا ! » . فهتفت : « او ليس الاثنان سواء ؟ .. أعطهما بعضه .. ولكن ، الا يكون من الافضل ان ندعوهما الى هنا يا اخى ؟ .. انك تعرف كيف تدعوهما ، وما أظنهما يستاءان ! » . فقال الفارس الكهل انه يشهد بأن الكونت الشاب ألطف من أن يرفض ، وأسرع ليدعوهما . فذهبت آنا فيدوروفنا الى حجرتها وارتدت ثوبا حريريا ، وقلنسوة جديدة . ولكن ليزا كانت فى شغل عن الثياب ، فلم تجد وقتا لتستبدل ثوبها القطنى الوردى ، ذا الكمين الفضفاضين . فضلا عن انها كانت فى اقصى درجات الانفعال ، وقد تولاها شعور بأن شيئا بديعا فى

ارتقابها ، وكأن ثمة غمامة داكنة تخيم على روحها ! .. لاح لها ان الكونت الفارس الجميل ، لا بد أن يكون مخلوقا جديدا، لا ندرك كنهه ، ولكنه .. جميل ! لا بد أن تكون أخلاقه ، وطباعه ، وحديثه ، من طراز غير عادى ، يختلف عن كل ما صادفت من قبل ! .. كل ما يخطر بباله أو على لسانه لا بد ان يكون حكيما ، صوابا .. وكل ما يفعل لا بد ان يكون مشرفا .. وكل مظهره لا بد ان يكون جميلا ! .. ابدا ماداخلها ريب فى ذلك . ولو انه طلب حماما من « البراندى » والعطور - لا مجرد بعض المنعشات - لما دهشت ، ولما لامته ، بل لاقتنعت اقتناعا راسخا ، بأن هذا هو الصواب ، وانه ضرورى !

ووافق الكونت لفوره عندما أنهى اليه الفارس الكهل رغبة اخته . فمسح شعره بالفرشاة ، وارتدى زيه الرسمى ، وأخذ علبة السيجار الذهبية . وقال لبولوزوف : « هيا ! » . فقال هذا : « من الخير ان لا نذهب فى الواقع ! » . ثم اردف بالفرنسية : « لسوف نكبدهم الكثير ، ليكرمونا » . ولكن الكونت اهاب به ، قائلا : « هراء ! .. لن يكونوا الا سعداء بنا » . ثم عقب بالفرنسية : « ولقد قمت ببعض تحريات ، فعلمت ان هنا ابنة جميلة .. فهيا ! » . وهنا قال الفارس الكهل بالفرنسية ، لمجرد اشعارهما بانه الآخر كان ملما باللغة ، وقد فهم ما قالاه : « معذرة ، أيها السيدان ! »

-« ١٢ »-

• تضرج وجه ليزا وغضت بصرها - وقد خشيت ان تنظر الى الضابطين - وتشاغلت بملء ابريق الشاى ، عندما دخل الضيفان الحجرة . أما آنا فيدوروفنا ، فكانت على النقيض ، اذ قفزت وبادرت الى الانحناء ، وشرعت تتحدث الى الكونت الشاب ، دون أن تحول بصرها عنه .. فقالت انه



كان ذا شبه فذ بأبيه ، وقدمت اليه ابنتها ، ثم راحت تقدم اليه الشاى ، والمربى ، والحلوى المصنوعة فى البيت . ولم يبد أحد اى اهتمام بحامل العلم ، لتواضع مظهره وحيائه ، فسر لذلك كل السرور ، اذ كان - لوجه الحقيقة - يحملق فى « ليزا » ، ويتمعن جمالها الذى أدهشه ، كما بدا واضحا . وكان الخال ينصت الى حديث اخته مع الكونت ، والكلمات تتزاحم على شفتيه ، متربصا فرصة يروى فيها ذكرياته فى الفروسية . وفى أثناء تناول الشاى ، اشعل الكونت سيجارا ، فلم تقو « ليزا » على ان تمنع نفسها من السعال . وكان كثير الكلام ، لطيفا ، راح - فى البداية - يروى اقاصيصه فى الفترات التى كانت تتخلل حديث آنا فيدوروفنا المتدفق ، ولكنه ما لبث - فى النهاية - أن انفرد وحده بالحديث .. **شىء واحد أذهل مستمعيه . ذلك انه كان يستخدم فى قصصه كلمات لم تكن تعتبر نابية فى الوسط الذى كان ينتمى اليه ، ولكنها كانت تبدو - فى الوسط الذى جلس فيه - جريئة اكثر مما ينبغى ، حتى لقد انزعجت لها آنا فيدوروفنا ، واشتد تضرج وجه ليزا .. ولكن الكونت لم يلاحظ ذلك ، وظل مطمئنا ، منطلقا ، متظرفا !**

وملأت « ليزا » الاقداح فى صمت ، ولم تسلمها الى يدى الزائرين ، وانما وضعتها على مائدة بالقرب منهما ، وهى بعد

لم تتغلب على انفعالها .، وقد راحت تصغى الى ما كان يبدر من الكونت . وما لبث حديثه ـ الذى لم يكن جد عميق بالنسبة لها ـ وتردده فى الكلام ، ان طمأن انفعالها رويدا . فهى لم تسمع منه الاشياء اللبقة البارعة التى توقعتها فى خيالها . **وعندما ملأت قدحه للمرة الثالثة بالشاى ، التقت عيناها المستحيبتان بعينيه ، فلم يغض بصره ، وانما ظل ينظر اليها فى هدوء ، وبابتسامة خفيفة .. فشعرت بشىء من المسلك العدائى نحوه ، وسرعان ما تبينت انه لم يكن يختلف فى شىء عن الناس الذين اعتادت ان تلقاهم ، بل ولم يكن ثمة ما يدعو لان تخشاه !** .. ومع ان اظافره كانت طويلة ونظيفة ، الا انه لم يؤت شيئا فذا من معالم الجمال . وطوت ليزا حلمها فجأة ـ وان لم تسلم من ألم داخلى ـ وازدادت هدوءا ، ولم يعد يمضها سوى النظرات الصامتة ، التى شعرت ان حامل العلم كان يوجهها اليها .. وقالت لنفسها : « لعل فتاى ليس ذاك الضابط ، وانما هذا ! »

ـ« ١٣ »ـ



• **دعت** السيدة العجوز ضيفيها ـ بعد الشاى ـ الى حجرة الجلوس . واستوت ثانية فى مقعدها المألوف ، وهى تتساءل : « ما أظنك تريد أن ترتاح يا كونت ؟ » . فلما تلقت جوابه

بالنفى ، قالت : « ترى ما الذى أستطيع أن أفعله لتسلية ضيفينا العزيزين ؟ .. أتلعب الورق يا كونت ؟ .. اذن ، فعليك يا شقيقى أن تهيىء لنا لعبة » . فقال الفارس: « انك تجيدين لعبة « الترجيح » (١) ، فلماذا لانلعبها جميعا ؟ .. أتلعب يا كونت ؟ .. وأنت الآخر ؟ » .. فأعرب الضابطان عن استعدادهما لان يفعلا كل ما يروق لمضيفيهم الكرماء !

وأحضرت « ليزا » مجموعة أوراق اللعب القديمة ، التى كانت تستخدمها لاستطلاع المستقبل ومعرفة متى يزول تورم وجه أمها ، أو متى يعود خالها — اذا ما ذهب الى البلدة — أو هل يزورهم أحد من الجيرة ، أو ما الى ذلك . وكانت هذه المجموعة أنظف من المجموعة التى كانت أمها تستخدمها لاستقراء الحظ . وتساءل خالها : « ولكن ، لعلكما لا تلعبان لقاء مراهنات صغيرة .. اننى ألعب مع آنا فيدوروفنا على أنصاف كوبكات .. ومع ذلك فهى تكسب كل أموالنا ! » . فقال الكونت : « أية مراهنات تروق لكم ، تسرنى ! » . فقالت آنا فيدوروفنا : « حسنا ، اذن .. فليكن الرهان « كوبك » ورقيا واحدا ، لمرة واحدة ، اكراما لضيفينا ! .. فلينازلونى أنا العجوز المسكينة ! » . وقالت فى سريرتها ، اذ استولى عليها فى شيخوختها شغف بسيط بالمقامرة : « لعلى أكسب منهما « روبل » ، أو حوالى الروبل ! »

وقال الكونت : « اذا شئتم علمتكم كيف تلعبون « البائس » ، فهى طريقة بديعة ! » . ورغب كل امرىء فى أن يتعلم الطريقة

---

(١) فى هذه اللعبة يتبارى اللاعبون فى اعلان الحيل التى تمكنوم أوراقهم من اتيانها . والذى يذكر أعلى رقم ، يختار مجموعة الورق التى يستخدمها ، ويؤدى الحيل التى أعلنها ، والا دفع الغرامة . واللاعب الذى يعلن انه « بائس » ، يعنى أن لا حيل لديه ، فاذا قام بحيلة ما ، دفع الغرامة . واصطلاح « آس وفاليه على بياض » معناه أن اللاعب يحمل اعلى ورقتين

الجديدة التى شاعت فى (بطرسبورج) . وزعم الخال أنه كان يعرفها ، ولكنه نسيها قليلا . بيد أن « آنا فيدوروفنا » لم تستطع أن تفهمها البتة ، رغم طول التكرار ، حتى اضطرت فى النهاية الى أن تبتسم وتهز رأسها وتقول أن كل شىء أصبح واضحا لها .. ولم يضحك أحد عندما أعلنت ـ خلال اللعب ـ أنها « بائس » ، مع أنها كانت تمسك فى يديها « آس وفاليه على بياض » ، وضاعت عليها ست حيل ! .. **وما لبثت أن ارتبكت ، وتبدت عليها الحيرة والتردد ، ثم قالت أنها لم تألف الطريقة الجديدة . ومع ذلك فقد ظل الكونت مصرا على الكسب منها ، رغم الغمزات التى راح زميله يزجيها اليه بقدمه ، تحت المائدة !**

وأحضرت « ليزا » مزيدا من الحلوى ، وثلاثة أنواع من المربى ، ونوعا خاصا من التفاح حفظته منذ الموسم السالف . ووقفت خلف أمها تراقب اللعب ، وتنظر الى الضابطين ـ من آن لآخر ـ مختلسة النظر ، بوجه خاص ، الى يدى الكونت البيضاوين ـ بأظافرهما الوردية المعنى بها ـ وقد راحتا تتداولان الاوراق برشاقة ومران وثقة ! .. ومرة أخرى ، خسرت آنا فيدوروفنا ، فاشتد استياؤها . وقالت ليزا تسرى عنها ، وتحاول أن تعينها على الموقف السخيف : « لا تكترثى يا أماه ، فلسوف تكسبين كل ما خسرت ! .. دعى خالى يغش ، فهو لن يلبث أن يفتضح ! » . فرمقت آنا فيدوروفنا ابنتها بنظرة مرتاعة، وهتفت : « ليتك تساعديننى، يا ليزا العزيزة ! » . فأجابت ليزا : « ولكننى لا أعرف هذه الطريقة ، أنا الاخرى ، وما أرى الا أنك ستخسرين مبلغا كبيرا ، ولن يتبقى شىء لثوب بيموشكا الجديد ! » . فقال حامل العلم ، وهو يتطلع الى ليزا ، تواقا الى مجاذبتها أطراف الحديث : « أجل، من السهل أن يخسر المرء ـ بهذه الطريقة ـ عشرة روبلات فضية ! »

وأمرت السيدة العجوز ببعض النبيذ الخفيف المصنوع فى البيت ، فشربت قدحين ، واشتد احمرار وجهها ، وبدا انها وطدت العزم على أن تتحمل أى حظ يصيبها . وافلتت خصلة من شعرها الاشيب ، فلم تحاول أن تردها الى مكانها . وما من شك فى أن المبلغ الذى خسرته بدا لها كما لو كان بالملايين ، فتحمست لاسترداده . وأخذ حامل العلم يكثر من دفع صاحبه بالقدم ، تحت المائدة .. وأخيرا ، انتهى اللعب ، بالرغم من محاولات آنا فيدوروفنا الخبيثة ، بتعمد الاخطاء فى الجمع ، كى تزيد من مرات كسبها . ومع ذلك فقد اشتد بها الجزع اذ بلغت خسائرها أكثر من اثنين وثلاثين من الروبلات الورقية .. ولم يحفل الكونت بجمع أرباحه بل نهض لفوره ، وسار الى النافذة التى كانت « ليزا » تقف عندها منهمكة فى تنسيق بعض المخللات للعشاء . وهناك فعل ما كان حامل العلم يحاول طيلة الامسية أن يفعله دون أن يفلح .. استطاع أن يجاذبها الحديث حول الجو ! وفى تلك الاثناء ، كان حامل العلم فى موقف محرج . فان آنا فيدوروفنا بدأت تفرج عن غضبها ، فى غياب الكونت ، وفى غياب ليزا بوجه خاص ، اذ كان وجودهما يسرى عنها !

وقال بولوزوف ، لمجرد أن يقول شيئا : « لقد كان من المعيب أن نكسب منك كل هذا ، فى الواقع .. انه لمخجل حقا ! » . فصاحت : « طبعا ، مادمتم تبتكرون طرقا جديدة لا أعرفها .. حسنا ، كم بلغ المجموع بالعملة الورقية ؟ » . فقال أخوها الذى أطربه ان كان رابحا : « اثنان وثلاثون روبل ورقى .. وربع ! هات النقود يا أختاه .. ادفعى ! » . فصاحت : « سأدفعها جميعا ، ولكنك لن تستدرجنى ثانية .. انه مبلغ لن استرده ماحييت ! » . ونهضت مسرعة الى حجرتها ، وهى تتمايل ، وعادت بالنقود . واستولى الخوف على « بولوزوف » خشية ان تعنف « آنا فيدوروفنا » معه

اذا تحدث اليها ، فتركها فى صمت وهدوء ، وانضم الى الكونت وليزا اللذين كانا يتكلمان عند النافذة

* * *

أخذت نسمات ليل شهر مايو العليلة تداعب ـ بين آن وآخر ـ لهب الشمعتين الكبيرتين اللتين قامتا على المائدة التى أعدت للعشاء ، فى حجرة الجلوس .. وكان النور يغمر الحديقة التى كانت النافذة تطل عليها ، ولكنه نور من نوع آخر .. نور القمر الذى أوشك أن يكتمل ، وقد راح يسبح فوق قمم أشجار الزيزفون السامقة ، وهو يضاعف من تألق السحب البيضاء التى كانت تضفى على وجهه غلالة رقيقة ، بين الحين والحين .. وكانت الضفادع تنق عاليا ، بجوار البركة التى خلع القمر على أحد جانبيها بريقا فضيا ، كان يتضح للانظار عبر الطريق المحفوفة بالاشجار .. وأخذت بعض الطيور ترفرف وئيدا ، أو تتواثب ، من غصن الى غصن ، فى مجموعة من أشجار البنفسج الشذية . التى كانت فروعها تتمايل فى دلال نحو النافذة .. **وقال الكونت لليزا ، وهو يجلس على حافة النافذة المنخفضة : « ياله من جو بديع ! .. أعتقد أنك تكثرين من الرياضة هنا ؟ »** . **فأجابت ليزا ، وهى لا تشعر بأى خجل من الحديث معه : « أجل . فحوالى السابعة من كل صباح ، أعنى بتفقد رغبات أمى فى الضيعة واصطحب بيموشكا ـ خادمة أمى الخاصة ـ فى نزهة على الاقدام »** . فقال وهو يثبت عوينة (مونوكل) على احدى عينيه ، وينقل بصره بين ليزا والحديقة : « ان الحياة فى الريف تشرح الصدر ! .. أولا تخرجين قط بالليل ، للنزهة على ضوء القمر ؟ »

ـ لا ، ولكنى اعتدت ـ قبل عامين ـ أن أتمشى مع خالى فى كل ليلة مقمرة . اذ كان يعانى من مرض غريب .. لم يكن

بوسعة أن ينام عندما يكون القمر بدرا ، اذ أن غرفته الصغيرة تطل على الحديقة مباشرة ! .. ومع أن نافذتها منخفضة ، الا أن ضوء القمر ينساب خلالها مباشرة !

وأومأت نحو غرفة خالها ، فقال الكونت : « عجيب .. لقد ظننتها غرفتك » . وكان جوابها : « لا ، فلن أنام فيهـا سوى الليلة .. فقدخصصت غرفتى لكما » . وهتفالكونت: « أحقا هذا ؟ .. ويلى ! لن أغفر لنفسى أن أزعجتك » . وترك العوينة تسقط على صدره ، اظهارا لاستيـائه ، وأردف : « لو اننى عرفت بأننى سأزعجكم .. » . فقالت : « لاازعاج هناك ، بل اننى ــ على النقيض ــ مسرورة ، فان حجرةخالى بديعة ، ومشرقة بالضوء ، ونافذتها منخفضة ، بحيثأستطيع أن أجلس فيها الى أن يواتينى النعـاس ، أو أن أهبط الى الحديقة فأتمشى قليلا ، قبل أن آوى الى فراشى » .

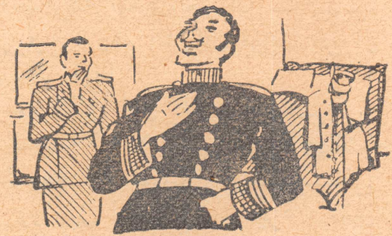
وقال الكونتلنفسه ، وهو يعيد العوينة الى عينه،ويتأملها « يا لها من فتاة رائعة ! » . وحاول أن يمس قدمها بقدمه ، وهو يتظاهر باصلاح جلسته على حافة النافذة .. « ومـا أبرعها اذ أطلعتنى على أننى أستطيع أن أراها من الحـديقة وهى تجلس فى النافذة ، اذا شئت ! » . وخيل اليه أنالنصر سهل ، ففقدت ليزا فى نظره بعض سحرها ، وما لبث ان قال، وهو يرسل البصر الى الطريق المحفوفة بالاشجار : « ومـا أبهج أن يقضى المرء ليلة كهذه فى الحديقة ، مع حبيب ! » . وارتبكت «ليزا» لهذه الكلمات، ولتكرر لمسات قدمه لقدمها. فقالت ــ دون تفكير ــ محاولة أن تخفى اضطرابها : « أجل، فان المشى تحت ضوء القمر جميل ! » . وبدأت تشعر بشىء من عدم الارتياح . وهمت أن تنصرف بوعاء « المخللات » ، عندما انضم اليهما حامل العلم ، فشعرت برغبة فى أن تتبين أى نوع من الرجال هو الآخر !

وقال الشاب : « ما أجملها من ليلة ! » . فقالت لنفسها : لاحديث لهما الا عن الطقس ! » . واستطرد بولوزوف : «وما أبدعه من منظر ! .. ولكنى أحسبك قد مللته !» . فتساءلت: **« ولماذا تحسب ذلك ؟ .. من المحتمل أن يمل المرء ثوبا أو غناء طال تعوده أياه ، ولكن .. كيف يمل المرء حديقة جميلة ، يولع بأن يتمشى خلالها .. لاسيما عندما يكون القمر مشرقا؟! .. ان البركة تبدو واضحة ، خلال نافذة خالى ، وسأملى النظر منها الليلة ! »** . فقال الكونت وقد ساءه أن حلل مقدم زميله دون أن يستوثق من موعد الليلة : « ولكنى لا أظن أن لديكم أية بلابل فى هذه المنطقة » . فقالت : « لا ، غير انه كانت هنا بعض البلابل منذ عام ، ولكن الصيادين وأجراس العربات أخافتها .. ولقد كنت — منذ عامين — أجلس مع خالى فى الدرب المغطى بفروع الشجر، فننصت اليها الساعتين أو أكثر ! »

وبعد العشاء — الذى راح الكونت خلاله يطرى الطعام ، ويقبل عليه ، مما بدد بعض ضيق رب البيت — تمنى الضابطان لمضيفيهما ليلة هانئة ، وذهبا الى حجرتهما . ولقد صافح الكونت الفارس الكهل ، وشد ماكانت دهشة آنا فيدوروفنا عندما صافحها هى الاخرى ، دون أن يقبل يدها .. كما صافح ليزا ، وهو يحملق فى عينيها ، وعلى شفتيه ابتسامته اللطيفة . وكم أخجلت نظرته الفتاة ، فى هذه المرة ، وجعلتها تقول لنفسها : « انه مليح الطلعة جدا ، ولكنه كثير الاغترار بنفسه ! »

— « ١٤ » —

• **قال** بولوزوف لصاحبه ، حين أصبحا فى غرفتهما : «ألم تخجل من نفسك ؟ .. لقد تعمدت أن أخسر ، وظللت أمس



قدمك ، تحت المائدة . ألست فى خجل ؟ لقد استاءت السيدة العجوز أيما «استياء ! » . فضحك الكونت من قلبه ، وقال : « لكم كانت مضحكة تلك السيدة العجوز ! » .. وظل يضحك فى مرح ، حتى ان « جوهان » ـ الذى كان يقف أمامه ـ أشاح بوجهه ليخفى ابتسامة .. بينما تابع الكونت حديثه وهو يضحك : « وتصور أن يصيبها هذا مع أبن صديق للاسرة ! » . فقال بولوزوف : « لا ، لقد كان تصرفك سيئا فى الواقع . لقد كنت شديد الاسف من أجلها ! » . فصاح الكونت : **« ياله من هراء ! .. وكم أنت صغير ، عديم التجربة ! .. لماذا أردتنى على أن أخسر ؟ ولماذا ينبغى على المرء أن يخسر ؟ .. لقد ألفت الخسارة قبل أن أتعلم اللعب ! ثم ان عشرة روبلات قد تكون ذات نفع ياعزيزى . أنظر الى الحياة نظرة عملية ، والا بقيت دائما فى ضيق ! »**

ولزم بولوزوف الصمت ، لاسيما وانه رغب فى هدوء يفكر خلاله فى « ليزا » التى تراءت له ذات طهر وجمال غير عاديين . وخلع ثيابه ، ثم استلقى على السرير الوثير ، النظيف ، الذى أعد له . وقال لنفسه وهو ينظر الى النافذة التى أسدل عليها الشال بدل الستار ، فتسلل نور القمر خلال النسيج . « أى عبث هذا الشرف والمجد العسكريين ! .. ان السعادة فى العيش فى عش هادىء ، مع زوجة حبيبة ، عاقلة ، ساذجة

الفؤاد .. اجل ، هذه هى السعادة الحقة . الدائمة ! » . على انه لم يفض لصديقه بهذه الخواطر - لسبب ما - ولم يثر ذكر الفتاة الريفية ، رغم انه كان موقنا من ان الكونت - هو الآخر - كان يفكر فيها !

وقال للكونت الذى كان يذرع الحجرة : « لم لا تخلع ثيابك ؟ » . فأجابه : « لا أحس برغبة فى النوم بعد. تستطيع أن تطفىء الشمعة اذا شئت ، وسأستلقى على الفراش بثيابى ! » . وواصل السير فى الحجرة ، فقال بولوزوف الذى شعر - بعد سهرة الليلة - بمزيد من عدم الرضى عن نفوذ الكونت وتأثيره عليه ، وخالجه الميل الى التمرد على هذا الوضع : « لاتشعر برغبة فى النوم بعد ؟ ! » . وقال فى سريرته ، وكأنه يخاطب توربين فى العلن : **«بوسعى أن أتصور مايجرى الآن فى رأسك ذى الشعر المنسق . لقد رأيت مدى اعجابك بالفتاة ، ولكنك غير كفء لان تفهم مثل هذه الانثى الساذجة ، الشريفة .. انما تشتهى امرأة مثل « مينا » واشارات الكتف الخاصة بضابط فى رتبة « كولونيل » .. يجب أن أسألك حقا عن رأيك فى الفتاة »** . والتفت اليه ، ثم عدل عن رأيه ، فقد شعر بأنه لن يقوى على أن يتشبث برأيه أمام رأى الكونت عن ليزا اذا كان مخالفا لما ينبغى ، وقد يعجز عن أن يتحاشى موافقته ، فقد اعتاد أن يرضخ لتأثير الكونت ، رغم انه يشعر - يوما بعد يوم - بأن هذا التأثير أصبح يثقله ويضنيه .

وقال اذ رأى الكونت يرتدى قلنسوته ويسعى الى الباب: « الى أين انت ذاهب ؟ » . فأجابه : « سأذهب لاتفقد الاحوال فى حظائر الخيل » . وهتف الشاب فى سريرته : « عجيب ! » . ولكنه أطفأ الشمعة ، وولى وجهه شطر الحائط ، محاولا أن يطرد عن ذهنه أفكارا سخيفة سداها الغيرة ولحمتها العداء نحو صديقه .

وفى تلك الاثناء ، كانت « آنا فيدوروفنا » قد آوت الى مخدعها بعد أن قبلت أخاها وابنتها ووصيفتها - كعادتها - ورسمت علامة الصليب على صدر كل منهم .. وكان قد انقضى زمن طويل مذ تعرضت السيدة العجوز لمثل هذا العدد من الانفعالات القوية في يوم واحد ، فلم تستطع أن تؤدى صلاتها فى هدوء ، ولم تقو على أن تطرح عنها الذكريات المحزنة ، الحية .. ذكريات الكونت المتوفى ، والشاب المتأنق الذى غشها فى غير اشفاق . على انها مالبثت أن خلعت ثيابها ، وشربت نصف قدح من « الكفاس » (١) ، ثم رقدت على سريرها . وتسللت قطتها المدللة الى الحجرة فى خفة ، فنادتها « آنا فيدوروفنا » ، وشرعت تمسح على ظهرها ، وتنصت الى هريرها (٢) . بيد انها لم تستطع النوم ، فقالت لنفسها : « لابد أن القطة هى التى تستبقينى مؤرقة ! » ، وطردتها من السرير ، فقفزت الى الارض بخفة ، وسارت - وهى تحرك ذيلها المنفوش - فقفزت فوق المدفأة . وأقبلت الوصيفة التى كانت تنام فى حجرة « آنا فيدوروفنا » ، فبسطت فراشا من اللباد على الارض ، وأطفأت الشمعة ، وأوقدت فتيلة أمام الايقونة ، وسرعان ما ارتفع غطيطها .. ولكن النعاس لم يواتها ، فاذا أغمضت عينيها ، كان وجه الفارس الشاب يتمثل لها ، ويخيل اليها أنه كان فى الحجرة متنكرا فى أى شىء . واذ ذاك كانت تفتح عينيها ، وتتأمل كل شىء حولها على ضوء الفتيلة .. وأحست بحرارة تدب فى جسدها .. ولم تعد تحتمل دقات الساعة التى كانت تعلو المنضدة ، ولا غطيط الخادم ، حتى انها أيقظتها وأمرتها بأن لاترسل غطيطا ! ..

---

(١) مشروب غير مسكر ، يشبه « السوبيا » فى مادته وطريقة صنعه .
(٢) الصوت الباطني الذى تحدثه القطة عادة

وعاودتها الافكار التى كانت تدور حول ابنتها ، والكونت الراحل ، وابنه الشاب ، ولعب الورق .. واختلطت الافكار جميعا ، فكانت تتمثل نفسها وهى تراقص الكونت القديم ، وتشعر قبلاته على كتفيها الناصعتين .. ثم تتمثل ابنتها فى أحضان الكونت الشاب .. وراحت تقول لنفسها : « لا ، ان الناس اليوم غيرهم بالامس.. كان الكونت الآخر على استعداد لان يثب فى النار من أجلى ، وكان على حق . أما هذا الكونت فينام كالاحمق ، سعيدا بأن ربح منى .. فلا غرام يستهويه! .. ماكان أروع الآخر اذا جثا على ركبتيه قائلا : « ماالذى تريديننى على أن أفعل ؟ .. اننى على استعداد لان أقتل نفسى اذا شئت ! » .. ولو اننى طلبت ، لقتل نفسه ! »

وفجأة ، سمعت وقع قدمين عاريتين فى الردهة ، ثم اندفعت ليزا ـ وعلى كتفيها شال ـ فارتمت على سرير أمها وهى شاحبة ترتجف !

* * *

كانت ليزا قد اوت وحيدة الى الغرفة التى كانت لخالها من قبل ، فارتدت سترة بيضاء ، ولفت رأسها الغزير الشعر بمنديل ، وأطفأت الشمعة ، وفتحت النافذة وجلست على مقعد عندها ، مرسلة بصرها الى بركة الماء التى كانت تلمع فى ضوء القمر الفضى .. وانبعث أمامها ـ فجأة ـ كل ماكان يشغل بالها ، وقد تبدى على ضوء جديد : أمها العجوز الكثيرة النزوات ـ التى أصبح حبها الاعمى لها جزءا من نفسها ـ وخالها المتداعى اللطيف ، ورقيق الدار ورقيق القرية الذين كانوا يعبدون مولاتهم الصغيرة ، والبقر والعجول ، وكل هذه الطبيعة التى كانت تموت وتبعث مرات لاحصر لها ، والتى نشأت فى غمارها ، محوطة بخلق تحبهم ويحبونها .. كل هذه الامور التي اعتادت أن تضفي على روحها اشراقا وسكينة

ناعمة ، بدت لها — فجأة — غير كافية لارضائها .. بل بدت كئيبة ، غير ذات قيمة ، وكأنما كان ثمة هاجس يهيب بها : « أيتها الحمقاء الصغيرة ! .. لقد عشت عشرين عاما فى السفاسف ، تخدمين الغير دون أن تدرى لذلك سببا ،ودون أن تدركى ماهى الحياة ، وما هى السعادة ! » . وراحت تغوص ببصرها فى الحديقة التى أسبغ القمر عليها نوره .. ترى ما الذى بعث فى بالها هذه الخواطر ؟ .. لم يكن السبب حبا طارئا ، تولاها نحو الكونت ، كما قد يخيل للمرء ، فهى — على العكس — لم تمل اليه .. وكان من المحتمل أن تكون أكثر استعدادا لان تميل الى زميله ، لولا أنه كان غير مليح ، وكان ساذجا ، صموتا ، **فظلت تنساه — على غير تعمد — وتتذكر طيف الكونت فى غضب وحنق ، اذ أيقنت انه لم يكن المثل الاعلى الذى اعتادت أن تحلم به .. كان مثالها الاعلى مفرط الجمال فى كل شىء ، جديرا بأحب فى مثل هذه الليلة، وبين هذه الطبيعة ، دون أن يصرفها عن جمال ماحولها ..**

ولقد أدت الوحدة التى كانت تعيش فيها من قبل — فى غياب من يحتمل أن يسترعى انتباهها — الى أن ظلت قوة الحب ، التى أودعتها العناية فى كل منا على قدم المساواة ، هادئة ، ساكنة فى صدرها . فعاشت طويلا فى سعادة آسية كان يبعثها الشعور بوجود هذه القوة فى أعماقها ، وكانت تفتح مغاليق قلبها — بين حين وآخر — لكى تتأمل كنوزه ، حتى تغدق منها على أى امرىء ، دون تفكير . فليدعها الله تنعم بهذه النعمة النادرة ، الى نهاية عمرها ! .. **فمن يدرى أنها ليست خير النعم وأقواها ، وأنها ليست السعادة الحقة ، والميسورة ؟ ! .. وهتفت الفتاة لنفسها : « أواه يا الهى ، أيها الرب .. امن المحتمل ان أكون قد بددت شبابى وهنائى عبثـا ، واننى لن أحظى قط .. لن أحظى قط .. ؟ »** وتطلعت الى أعماق السماء التى أنارها القمر ، وغطتها سحب

كالصوف المندوف ، حجبت النجوم ، واخذت تسعى نحو القمر . ثم قالت لنفسها : « لو قدر لهذه السحابة الصغيرة ان تصل الى القمر ، فستكون هذه اشارة الى ان مايجول بخاطرى صحيح ! » وسبحت السحابة الصغيرة الرقيقة ، فغطت الجزء الاسفل من قرص القمر ، واذا بعتمة تدب فى الضوء الذى كان يترامى على الحشائش ، وعلى قمم أشجار الموالح ، وعلى البركة .. وازدادت ظلال الاشجار قتامة .. وسرت خلال أوراق الشجر ريح خفيفة ـ كأنها تتم التناسق بين الظلال القاتمة ـ فحملت الى النافذة عبير الخضرة المخضلة بالندى ، والمتربة الرطبة ، والبنفسج !

وقالت الفتاة تواسى نفسها : « لا .. اذا غرد العندليب الليلة ، فستكون هذه اشارة الى أن كل ما أفكر فيه هراء ، وان لاداعى لان أيأس ! » .. وسكنت فى جلستها طويلا ، ترتقب شيئا ما ، بينما عاد الاشراق الى كل شىء ، ثم عادت السحب الصغيرة تسبح عابرة أمام قرص القمر ، مشيعة العتمة فى كل شىء . وكان النعاس قد بدأ يراود أجفان الفتاة ، عندما انبعث من لدن البركة شدو العندليب فأيقظها من اغفائها .. وفتحت العذراء الريفية عينيها ، وانتعشت روحها مرة أخرى ابتهاجا بتلك الرابطة الغامضة التى كانت تربط بينها وبين الطبيعة التى استلقت أمامها مشرقة ، هادئة .. وأسندت ذراعيها الى حافة النافذة ، وأطلت !.. وغشى قلبها شعور بأسى عذب ، ناعم .. وملأت عينيها دموع حب طاهر شاسع ، يهفو الى الرى..دموع مسرية ، مواسية.وأسندت الفتاة رأسها الى ذراعيها ، وجالت بخلدها أدعيتها المفضلة ، ثم نامت وعيناها مخضلتان بالدموع .

وايقظتها لمسة .. لمسة كانت خفيفة ، ولطيفة . واشتد ضغط اليد على يدها . وفجأة ، تنبهت الى الواقع ، فصرخت ، وقفزت ، وهرعت مفادرة الحجرة ، وهى تحاول ان تقنع

نفسها بأن الذى كان يقف فى ضوء القمر ـ فى الحديقة ـ لم يكن الكونت .. بل كان طيفا !

ـ « ١٥ » ـ



• والحق انه كان الكونت . وعندما سمع صرخة الفتاة، وحشرجة منبهة من الحارس الساهر خلف سياج الحديقة ـ وقد نبهته الصرخة ـ اندفع عبر الحشائش المنداة ، الى جوف الحديقة ، وقد خامره شعور اللص الذى أوشك أمره أن يفتضح .. وراح يردد لنفسه : « يالى من أحمق ! .. لقد أخفتها ! .. كان خليقـا بى أن أتلطف فى ايقاظها ، بأن أتحدث اليها فى رفق .. يا لى من جلف! » . وتوقف، وأصغى، فاذا الحارس قد نفذ الى الحديقة ، وهو يجر عصاه خلفه . وأسرع الكونت الى البركة ينشد مخبأ ، فأفزعته الضفادع ، اذ قفزت من تحت قدميه الى الماء .. ومع أن حذاءيه ابتلا، الا انه جلس القرفصاء ، وراح يستعيد كل ما جرى .. كيف بحث عن نافذتها ، وكيف رأى ـ أخيرا ـ طيفا أبيض، وكيف اقترب من النافذة ثم ابتعد عنها مرارا ، وهو ينصت

الى أنفه صوت .. كيف كان يشعر – فى لحظة – بيقين من أنها كانت تنتظره ، مستاءة لتأخره .. ثم يشعر – فى اللحظة التالية – بأن من المستحيل أن تكون قد قبلت أن تلقاه بمثل هذه السهولة .. ثم .كيف أقنع نفسه – أخيرا – بأن خجل العذراء الريفية هو الذى جعلها تتظاهر بالنوم على حافة النافذة ، فسار اليها فى عزم .. ثم نكص على عقبيه .. وبعد أن عير نفسه مرارا بالجبن ، اقترب فى جرأة ، ومس يدها !

ومرة أخرى ، أرسل الحارس سعالا أجش ، ثم غادر الحديقة .. وأغلق مصراعا نافذة الفتاة ، وسمع رتاجهما يحكم من الداخل .. وكان هذا مثيرا لاساه .. كان على استعداد لان يضحى بأى شىء فى سبيل فرصة تمكنه من أن يبدأ من جديد ، فلا يتصرف بغباء كما فعل .. وراح يقول لنفسه : « فتاة رائعة .. ناضرة .. فاتنة الى هذا الحد .. ومع ذلك فقد تركتها تفلت من بين أصابعى .. يالى من نذل أحمق ! » .وأبى أن ينام ، فراح يسير على غير هدى ، فى الطريق التى كانت تحف بها أشجار الموالح ! .. **واذ ذاك ، اسبغ الليل عليه – هو الآخر – منحه الناعمة .. منحة الاسى المستعذب ، والشعور بالحاجة الى الحب ! ..** وكانت أشعة القمر الواهنة تلقى نقاطا من الضوء خلال الافنان الكثيفة ، على الارض ، حيث نمت بعض فروع من العشب ، أو تناثرت بعض أغصان ميتة .. وكان ثمة ضوء يسقط على غصين منحن ، فيجعله يبدو وكأنه مكسو بطبقة بيضاء .. وكانت أوراق الشجر المفضضة تتهامس من آن الى آخر . ولم يكن ثمة ضوء فى الدار ، كما كان الصمت يرفرف على الكون ، وفيما عدا صوت بلبل لاح انه كان يملأ الفضاء

المشرق ، الساكن ، الذى لانهاية له .. وهتف الشاب وهو يملأ صـدره بعبـير الحديقـة : « أواه ، يا ربى ! .. أية ليلة هذه ! ياالها من ليلة رائعة !.. ومع ذلك ، فانى أشعر بشىء من الحسرة ، وكأننى غير قانع بنفسى .. غير راض عن الناس وغير راض عن الحياة بأسرها ! .. ياالها من فتاة حلوة ، بديعة ! .. لعلها تاذت منى حقا ، أو أصيبت بضر ! » .

وهنا اختلطت أحلامه بعضها ببعض ، فأخذ يتمثل نفسه مع الريفية العذراء فى الحديقة ، فى أوضاع عديدة ، غريبة . ثم حل طيف خليلته « مينا » محل طيف الفتاة ، فهتف لنفسه : « يالى من أحمق ! .. لم يكن ينبغى على سـوى أن أحبط خصرها بذراعى ، وأقبلها ! »

وعاد الكونت الى حجرته ، وهو فى حسرة ، فاذا زميله لا يزال مستيقظا ، واذا به يتقلب فى فراشه ، ويلتفت اليه . فسأله : « ألم تنم بعد ؟ » .. فأجاب بولوزوف : « لا » .. وعاد الكونت يقول : « هل أنبئك بما حدث ؟ » . فقال الآخر : « هات ماعندك »

ـ لا ، يحسن أن لا أخبرك . أو .. لابأس ، سأخبرك !

وابتسم وهو يجلس على حافة سرير صاحبه ، وقال : « هل تصدق أن السيدة الصغيرة واعدتنى على اللقاء ! » . فقفز بولوزوف من فراشه صائحا : «ماهذا الذى تقول ؟» . وأهاب به الكونت : « الا استمع الى » . ولكن الشاب صاح : « ولكن . كيف ؟ومتى ؟ انه مستحيل ! »

ـ كان ذلك بينما كنت تجمع الحسـاب عقب اللعب .. فقد أخبرتنى أنها ستجلس فى النافذة بالليل ، وان من السهل أن ينفذ المرء من هذه النافذة . أرأيت جدوى ان يكون المرء

عمليا ؟ ! .. ألم تسمعهابنفسك تقول ـ أثناء وقوفك معنا ـ انها ستجلس الى النافذة بالليل ، وتتأمل البركة ؟! »

ـ بلى ، ولكن هذا لم يكن يعنى شيئا ..

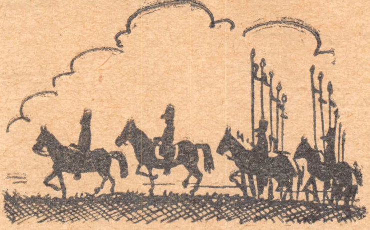
ـ هذا عين ما لم أستطع ادراكه : هل قالت ذلك متعمدة ، أو انها لم تكن ترمى الى غاية ؟ .. من المحتمل انها لم تكن راغبة حقا فى أن توافق بهذه السرعة ، ولكن الامر لاح على النقيض . وانتهى أبشع نهاية .. لقد تصرفت بحماقة !

وابتسم ازدراء لنفسه ، فتساءل بولوزوف : « ماذاتعنى؟ .. وأين كنت ؟ » . فتناسى الكونت ما حاول أن يوقعه فى روع صاحبه ، وروى له كل ماحدث ، ثم أردف : « لقد أفسدت الفرصة بنفسى .. كان ينبغى ان أكون أكثر جرأة . ولكنى جعلتها تصرخ وتجرى مبتعدة عن النافذة »

فابتسم حامل العلم فى غير ارتياح ، ردا على ابتسامة الكونت التى ظلت أمدا ذات أثر كبير عليه ، وقال : « اذن فقد صرخت وهربت ! » ..

فقال الكونت : « أجل . ولكن ، لقد آن لنا أن ننام ! » ..

وعاد حامل العلم يولى وجهه شطر الحائط ، **وظل صامتا عشر دقائق . ولا يعلم سوى الله ما كان يدور فى نفسه ، ولكنه ـ حين التفت ثانية ـ كان يحمل على وجهه امارات العذاب ، والعزم .** فقال فجأة ، وبخشونة : « كونت توربين ! » .. وأجاب الكونت فى هدوء : « أتهذى ؟ .. ماذا هناك أيها الضابط بولوزوف ؟ » . فصاح بولوزوف : **« كونت توربين .. انك لوغد ! »** . وقفز من فراشه مرة أخرى .



— « ١٦ » —

• **بارحت الفصيلة** القرية فى اليوم التالى . ولم يكن الضابطان قد التقيا بمضيفيهما مرة أخرى ، ولم يودعاهم .. **لا ولم يكلم كل منهما الآخر ، بل عقدا العزم على أن يتبارزا فى أول مركز تنزل فيه الفصيلة فيه** . ولكن الكابتن «شولز» ــ وكان ضابطا طيبا ، وفارسا رائعا ، وشخصية محبوبة من كل امرىء فى الكتيبة ، وقد اختير ليكون شاهد الكونت ــ استطاع أن يسوى المسألة خير تسوية ، فلم يقتصر الامر على أن الضابطين الفارسين لم يتبارزا فحسب ، بل أن أحدا فى الكتيبة لم يعلم بالمسألة . وظل توربين وبولوزوف يتبادلان الاحاديث العادية ، اذا ما التقيا فى حفلات العشاء والمقامرة ، وان لم يعودا الى صداقتهما السالفة وودهما القديم !

« تمت »

راجع مكتبتك الخاصة لتتأكد من وجود كل هذه الشوامخ – التي قدمتها لك « مطبوعات كتابى » فى أعدادها السابقة – فهى ثروة أدبية لا تقدر بمال

قصة مدينتين	تشارلس ديكنز
ذات الثوب الابيض	ويلكى كولينز
الخالدون	ديل كارنيجى
الخاطئة	سومرست موم
حياة امرأة **(جزءان)**	جى دى موباسان
الخطيئة الاولى وفتاة من الاقاليم	البرتو مورافيا
أوديب	سوفوكليس واندريه جيد
مدام بوفارى **(جزءان)**	جوستاف فلوبير
عاشقات فى الخريف	ستيفان زيفايج
قلوب ضالة	طاغور
ديكاميرون **(ألف ليلة وليلة الايطالية)**	جيوفانى بوكاشيو
الظمأ للحب	ميكا والتارى
جين اير **(٣ أجزاء)**	شارلوت برونتى
فاتنات الرجال	مارجورى كورجين
رجال ونساء	جوركى
الثأر للوطن	جون شتاينبك
فرنسا الجريحة على ضفاف النيل	أدوين جون ديفيز
الابن الضال	هنرى بوردو
أسرار الجاسوسية	برنارد نيومان
بيلا دونا **(٣ أجزاء)**	روبرت هتشنز
بوشكين	ليديا لامبير
اعترافات جان جاك روسو **(٥ أجزاء)**	
قصص من الصين	أروع نماذج الادب الصينى
ليالى بلزاك **(ألف ليلة وليلة الفرنسية)**	أونوريه دى بلزاك
الالياذة **(٣ أجزاء)**	هوميروس
قصص من روما	البرتو مورافيا
المسبحة **(جزءان)**	فلورنس باركلى
سفينة الملذات	موريس ديكوبرا



"ليو تولستوى" الكاتب الكبير، والقصصى المبدع، والفيلسوف العظيم.. فى نهاية عمره.

الكونت "ليو تولستوى" عندما كان ضابطا بالجيش القيصرى، فى التاسعة والعشرين من عمره..

لم يكن السيف فى يد "تولستوى" - فى صدر شبابه - أقوى من القلم حين امتشقه ليغزو العقول والأذهان، كداعية للسلام والإنسانية.. ولقد خلد التاريخ اسم "تولستوى" كفيلسوف، ولكنه كان إنسانا قبل أن يكون فيلسوفا. فلم تكن فلسفته نصوصا جامدة، ولا مبادئ حالمة، وإنما كانت رسالة عملية لإصلاح الإنسان، سواء فى مجتمعه الفردى، أو مجتمعه المحلى - الوطن - أو المجتمع الأكبر.. العالم كوحدة!

والقصتان الطويلتان اللتان يحتويهما هذا العدد من "مطبوعات كتابى"، هما - بإجماع النقاد - خير ما كتب "تولستوى" من قصص، قبل أن يتفرغ لتأليف روايتيه الكبيرتين الخالدتين: "الحرب والسلام"، و"أنا كارنينا".. وقد صور فى إحداهما حياة رقيق الأرض - فى روسيا القيصرية - محللا نفوس تلك الطبقة، كاشفا عن أنبل ما فيها.. وصور فى الثانية حياة الطبقة الراقية - فى عهد القياصرة - بما فيها من تفاهة، وانحلال.. وفى كلتيهما، كان "تولستوى" يخدم رسالة واحدة، هى: إصلاح المجتمع، ورفع قيمة الكرامة الإنسانية.

يصدرها: حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩